



كتاب شهري محكم يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
يتناول نشر الدراسات والأبحاث التي
تخدم الإسلام في كافة المجالات

بلاد التتار والبلغار

محمد بن ناصر العبودي

السنة الثامنة عشرة

العدد ١٨٨ عام ١٤٢٠هـ



مقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه اجمعين .

أما بعد :

فإن هذه رحلة إلى جمهورية تاتارستان التي تعد الآن من الجمهوريات العديدة داخل جمهورية روسيا الاتحادية ، وبعضهم يقول : إنها جزء من الاتحاد الروسي مع أن أهلها الأصلاء ، ليسوا من الروس ، وإنماهم من التتار الذين أطلق عليهم هذا الاسم أو هذا المصطلح لكونهم من بقايا دولة الشمال الإسلامية التي أنشأها في أول الأمر الملك المسلم العظيم بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان وهو الذي كسر شوكة ابن عمه المجرم السفاح (هولاكو) الذي خرب بغداد ونشر في الأرض الفساد ، وكان بركة خان أول من أسلم من ملوك التتار أو المغول الذين حكموا الأصقاع الشمالية الباردة ، ثم استمرت تلك الدولة المسلمة العظيمة في الفتح والانتساع حتى شملت جزءاً كبيراً من بلاد الصقالبة (السلاف) في بولندا وبلاد البلطيق وروسيا البيضاء ووسط ايتل (الفولقا) فضلاً عن اجزاء مما يعرف الآن بأنه من بلاد الروس الأصلية .

وذلك بعد أن تطورت منها دولة (ألتون أردو) أي القبيلة الذهبية وقد اطلق الناس في الشمال - وبخاصة الروس - على

المواطنين المسلمين في تلك الدولة لقب (التتار) معتبرين أنهم كانوا من رعايا الدولة التي أقامها التتار في الأصل مع أنهم ليسوا من التتار لا من ناحية الأصل ولا الشكل ولا اللغة ولا الدين الذي يعتنقه التتار غير المسلمين .

وقد اتضح لي ذلك جلياً عندما زرت بلاد التتار الأصلاء الذين هم المغول أو قبيلة من المغول كما عرفهم بذلك علمائنا الأوائل وقال بعضهم إنهم بادية المغول فرأيت أن لهم مظاهر خاصة بهم بعيدة كل البعد عما في مظاهر هؤلاء الاخوة المسلمين الذين يسمون الآن بالتتار، ويعيشون في شمال الأرض وتكلمت على ذلك في كتابين أحدهما خصصته للمغول بعنوان : « في مهد المغول » ، وتضمن الكلام على ما كان يسمى بمنغوليا الداخلية التي هي معتبرة الآن مقاطعة من مقاطعات الصين الشعبية ، والثاني ذكرت فيه قصة سفري الى ماكانت تسمى منغوليا الخارجية وهي الآن تعرف بجمهورية منغوليا وعاصمتها (أولان باتور) وذلك بعنوان : « في شمال شرق آسيا » .

وسوف يأتي الكلام على التتار الذين يعرفون الآن بهذا الاسم وتضم أكثرهم جمهورية تتارستان الداخلة في الاتحاد الروسي ويعني الاسم بلاد التتار لأن (استان) بالفارسية معناها : بلاد أو أرض مثل ما عليه هذا اللفظ في باكستان وأفغانستان .

وأما (البلغار) فإن أمرهم أهم من الناحية التاريخية لكونهم أعرق في هذه المنطقة من (تتار المغول) فقد اعتنقوا الإسلام في

وقت مبكر بالنسبة الى غيرهم من الأقسام التي تسكن فيها فكان ذلك قبل نحو الف سنة عندما أسلم ملكهم وأرسل الى الخليفة في بغداد يطلب منه إرسال من يفقهونهم في الدين ويتشاورون معهم في بعض الأمور المتعلقة بهم، لأنهم دخلوا في الإسلام طواعية من غير حرب، فأستجاب الخليفة وأرسل إليهم الوفد المطلوب، فكان من أعضائه الكاتب أحمد بن فضلان الذي سجل ما حصل للوفد كما سجل معلومات عن أهل البلدان الشمالية ومنهم الروس عندما كانوا وثنيين، أي قبل أن يعتنقوا المسيحية، كما ذكر أشياء مهمة عن أهل اسكندنافيا- خاصة من الفايكنج، وقد انقرض اسم البلغار لانهم دخلوا في التتار الذين صارت عاصمة بلادهم (قازان) وذلك قبل أن يكتسبوا هذا الاسم غير الدقيق (التتار)، وسوف نتوسع أيضاً في ذكر هؤلاء البلغار - إن شا الله - في ضوء رحلتنا هذه.

إن رحلتنا الى (تتارستان) كانت جزءاً من رحلة رسمناها للسفر الى بلاد البلطيق وروسيا البيضاء وتتارستان، وقد زرنا حتى الآن أقطار البلطيق الثلاثة: لتوانيا ولاتفيا و استونيا وكتبت عنها كتاباً بعنوان: «في بلاد البلطيق» كما زرت روسيا البيضاء ومدينة موسكو عاصمة جمهورية روسيا الاتحادية وكتبت عنهما أيضاً كتاباً بعنوان: «من روسيا البيضاء الى روسيا الحمراء».

وبقي هذا القسم من الرحلة الذي يتضمن الحديث عن بلاد التتار والبلغار، ولم يكن من عادتي الإكثار من النقل في كتيبي في الرحلات ولكنني آثرت أن أنقل هنا بعض النصوص التي توضح

تاريخ هذه الأمة المسلمة التي نزور بلادها، للمعرفة بذلك ولكي ترى ناشئة المسلمين أن أسلافهم كانوا يعرفون عن الأمم البعيدة - وبخاصة من الاخوة المسلمين، وبرغم الأوقات التي كانت فيها وسائل الاتصال قليلة شاقة - أكثر مما عرفه الاخلاف عنها في هذا الوقت الذي تيسر فيه الحصول على المعلومات، وتيسر فيه السفر الى البلدان البعيدة .

هذا الى جانب ما أخذت به نفسي من كتابة المذكرات اليومية التي تتضمن المشاهدات والتعليق على الملاحظات في البلدان التي ازورها، وذلك منذ أن بدأت السفر والترحال قبل ثلاثين عاما الى أقطار القارة الافريقية وكتبت في ذلك الكتاب الأول في الرحلات: «في إفريقية الخضراء»، وقد زادت الكتب التي ألفتها عن مائة كتاب حتى الآن، وبذلك أصبحت - فيما أعلم - أكثر من كتب بالعربية كتباً في الرحلات، وها هو الكتاب الثاني عشر بعد المائة، وهذا أمر قل أن يتيسر لشخص بمفرده ولا شك أن الفضل الأكبر في ذلك هو لله تعالى فهو المحمود على ذلك وبعده يأتي فضل المسؤولين في بلادي وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله - الذين منحوني الثقة والتأييد لكي أتمكن من القيام بذلك في كل أنحاء العالم، وبعدهم يأتي فضل الإخوة القراء الكرام الذين أقبلوا على قراءة هذه الكتب ومطالبتني بالمزيد منها .

لقد أسميت هذا الكتاب «بلاد التتار والبلغار» وهو اسم

يتماشى مع الواقع في التسمية وإن لم تكن صحيحة، ذلك بأن هذه المنطقة التى تتجه إليها رحلتنا وهى التى عاصمتها (قازان) تسمى الآن (جمهورية التتار) مع أن التتار من المغول لم يسكنوا فيها، وإنما أهلها هم البلغار الذين قرأنا سيرهم فى كتبنا وسيأتي بيان حالهم، ولذلك عطفت على لفظ التتار لفظ البلغار فهذا هو الصحيح فى أهل هذه البلاد، وهو ما أكدته لى جميع من قابلته من زعمائهم وعلمائهم ونابيههم إضافة الى أننى زرت مدينة (بلغار) التاريخية التى تبعد ٢٤٠ كيلومترا من مدينة قازان جهة الجنوب، وهى مدينة كانت قد اندثرت وبارت ولم تبق منها إلا آثار معدودة وقد نشأت بجانبها بلدة حديثة سميت على اسمها (بلغار)، وعلى هذا يكون عنوان الكتاب صحيحاً حتى بالنسبة الى اطلاق تسمية التتار على هؤلاء الإخوة المسلمين البلغاريين الذين يقطنون فى جمهورية تتارستان فى الوقت الحاضر.

أما لو سرت فى العنوان على ما ينبغى ان تكون عليه التسمية الصحيحة لهم المستقاة من تاريخهم الذى ورد فى كتبنا العربية القديمة فاننى سوف أسمى المنطقة كلها (بلاد البلغار). غير أن ذلك قد يشتهبه على أبنائنا الذين قلدوا الأفرنج فى كثير من التسميات حتى صاروا لقلة اطلاعهم على كتب الأسلاف الثمينة لا يعرفون من البلغار إلا هؤلاء الذين صارت لهم دولة مسماة باسمهم هي: (جمهورية بلغاريا) الواقعة فى منطقة البلقان وقد كتبت عنها كتاباً تحت عنوان: (كنت فى بلغاريا) طبع قبل فترة، وهم (بلغار) بلا شك، ولكنهم

غير البلغار المسلمين الذين صار الروس يطلقون عليهم اسم التتار
وتبعهم العالم على ذلك ومواطنهم حول نهر ايتل (الفولقا) .

كما أن هناك قوما آخرين يسمون (البلكار) تقع بلادهم غير
الواسعة في الوقت الحاضر في منطقة جبال قبق (القوقاز) وهم
مسلمون يشتركون مع اخوة لهم في الدين الإسلامي من الشركس
يسمون (قبرداي) في جمهورية صغيرة اسمها (قبرداي بلكار) وقد
زرتهم في بلادهم وكتبت عنهم فصلاً في كتابي : « من بلاد
الفرتشاي الى بلاد القبرداي » ..

وعلى أية حال فإن المقصود من كتابة هذا الكتاب - مثل غيره
من كتبي السابقة في الرحلات - هو تعريف أهل البلدان العربية
بإخوانهم في الدين في مواطنهم البعيدة مع الكلام على أمور أخرى
عامة من أمور هذه البلاد؛ والله الموفق للسداد .

المؤلف

مكة المكرمة

محمد بن ناصر العبودي

جمهورية تاتارستان

دوستي الاتحادية
ایر المدين
غرب

المحيط المتجمد الشمالي

مفوحة

الاسكاناتية

سان بطرسبرغ

بحر البلطيق

البحر الأبيض المتوسط

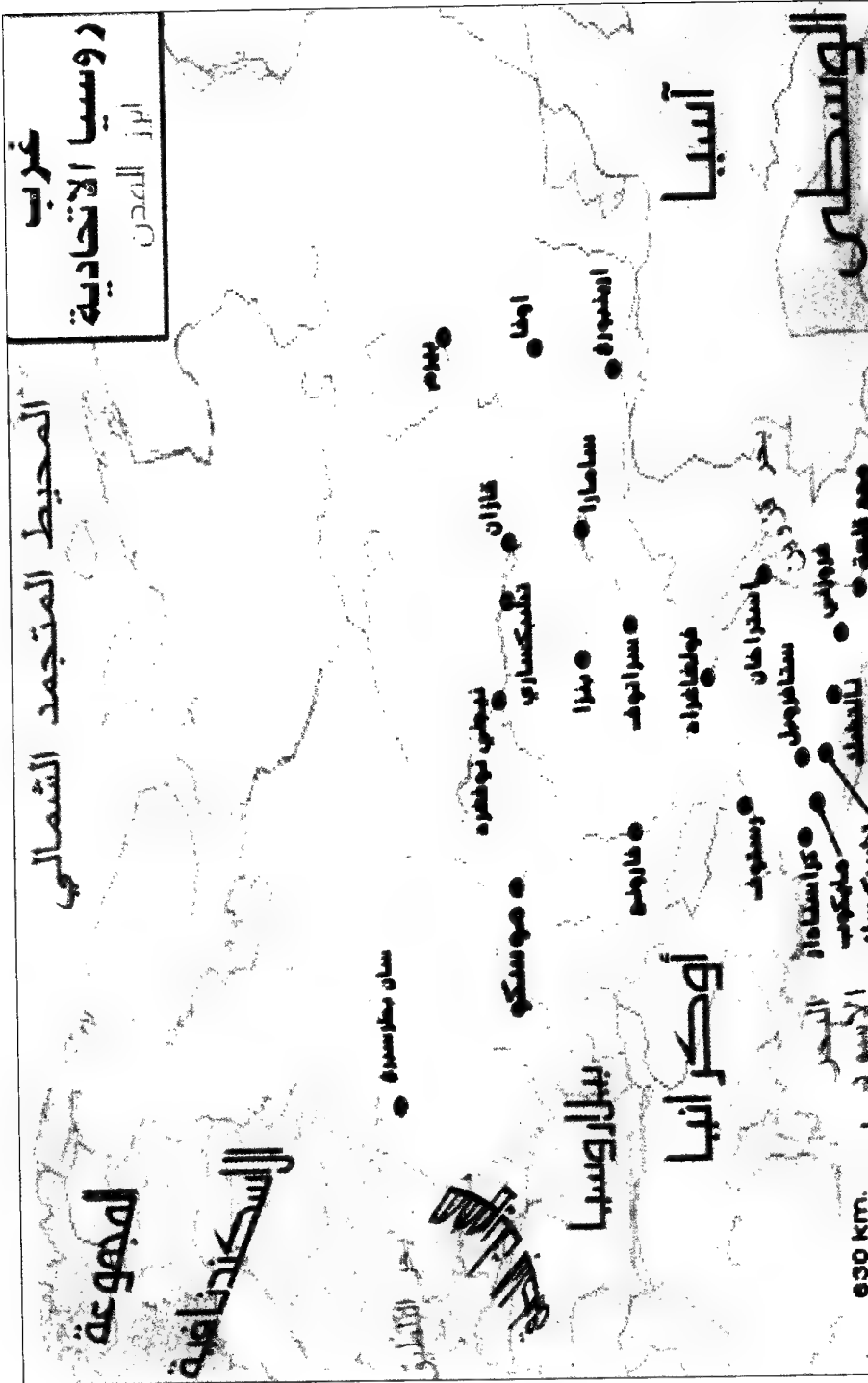
روسيا

أوكراينا

آسيا

الوسطى

630 km.



تقع جمهورية تتارستان في وسط حوض الفولقا في شرق روسيا
الأوربية وتبلغ مساحتها ٦٨٠٠٠٠ كم^٢ ، ويتميز سطحها بالسهول
وتجري فيها بعض روافد نهر الفولقا مثل نهري قاما وقازان .

وبلغ سكانها ٣٦٤١٧٤٢ نسمة بموجب احصاء عام ١٩٨٩ م
ويتكونون من العناصر الآتية :

التتار ٤٨,٥ ٪

الروس ٤٣ ٪

الجوفاش ٣,٧ ٪

الاوكرانيون ١ ٪

ويوجد اكثر التتار في خارج جمهوريتهم إذ يبلغ عددهم
٤٠٩٨٠٤٣ نسمة، أما في تتارستان نفسها فعددهم :
٤٠٤٠٧٦٥٠ نسمة، والديانة السائدة هي الإسلام ثم الارثوذكسية .

ويقوم اقتصاد تتارستان على استخراج النفط والغاز الطبيعي
وصناعة البتروكيماويات وصناعة الطائرات العمودية والشاحنات،
ويعتبر القمح من اهم محاصيلها الزراعية ويليه البنجر وبذر دوار
الشمس وتمثل الثروة الحيوانية في الاغنام والمواشي .

ومن الناحية التاريخية تأسست دولة التون اورده - عقب الغزو
المغولي عام ١٢٣٦ - والتي استمرت الى عام ١٥٠٢ م، ثم ظهرت

خانية قازان عام ١٤٣٧، ولكنها لم تدم طويلاً اذ تعرضت لغزو القيصر الروسي ايفان الرهيب عام ١٥٥٢ م .

ومع ظهور النظام الشيوعي السوفيتي تشكلت تاتارستان جمهورية سوفيتية ذاتية الحكم في ٢٧ مايو ١٩٢٠م؛ وعلى اثر انهيار الحكم الشيوعي وانفراط عقد الاتحاد السوفيتي اعلنت تاتارستان جمهورية ذات سيادة وانها عضو في جمهورية روسيا الفيدرالية في ٣٠ اغسطس ١٩٩٠م وتم الاقتراع على ذلك شعبياً في ٢١ مارس ١٩٩٢م، ورئيس الجمهورية حالياً هو مينتيمير شاميف-shai- Mintimer mieyv وهو من اسرة مسلمة عريقة .

التتار:

كان اول نصر للإسلام والمسلمين في هذه الأصقاع الشمالية الباردة النائية عن البلدان العربية وأهلها أن أسلم الملك العظيم، الخاقان الكبير (بركة خان بن جوجى خان بن جنكيز خان) فهو حفيد جنكيز خان الذي يدل اسمه على معنى (ملك العالم) فجنكيز معناها بلغة المغول (عالم) وخان (هو الملك الكبير) . وهو ابن عم هولاكو السفاح البربري الذي استباح مدينة بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم، كما كان قد قتل قبل ذلك عشرات الألوف من المسلمين، وخرب دياراً كثيرة .

وقد سلط الله عليه هذا الملك المسلم ابن عمه بركة خان فكسره في ميدان القتال، وَخَضَدَ شوكته، وأذاقه الذل والهوان حتى عاش

بعد ذلك ذليلاً مهاناً مصاباً بأمراض خطيرة مات منها مذموماً مدحوراً.

وأما إسلام (بركة خان) فإنه كان فتحاً للإسلام والمسلمين في بلاد الشمال مما جعل المؤرخين من أسلافنا العرب والمسلمين ينوهون بذلك ويكثرون منه، وقد نقل ما قالوه وقاله غيرهم - على قلة ما نقل عن غيرهم - الشيخ محمود الرمزي في كتابه الجامع (تلفيق الأخبار، في وقائع قازان وبلغار، وملوك التتار) الذي سيأتي التعريف به؛ لذلك رأيت تلخيص ما ذكره عن إسلام (بركة خان) - رحمه الله، - وقهره لعدو الله هولاء قبحه الله.

قال الشيخ الرمزي: «ابو المعالي ناصر الدين حضرة السلطان بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان عليه الرحمة والغفران ولما مات صرتاق جلس على سرير السلطنة مكانه عمه حضرة الملك بركة خان ابن جوجى خان عليه الرحمة وكان ذلك سنة ٦٥٢ هـ على ما ذكره النويرى وابن خلدون والمقرئى والعينى، واختلف المؤرخون فيه بانه ابن باتو أو ابن جوجى كما ذكر ابن خلدون هذا الاختلاف في تاريخه ولكن الصحيح والصواب انه ابن جوجى واخو باتو وقد أسلم بركة خان هذا وحسن إسلامه وجعله الله سبحانه سبباً لبقاء رفق الإسلام وانتعاشه بعد ان شارف على الانعدام كما سذكره - ان شاء الله تعالى - واتفق المؤرخون على انه اول من أسلم من أولاد جنكيز خان على الاطلاق ولكنهم اختلفوا في زمان إسلامه انه كان في ايام سلطنة اخيه باتو او بعد وفاته.

وقال المقرئى والنورى : وأسلم بركة هذا وحسن إسلامه وأقام منار الدين واشهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وادناهم منه وقربهم لديه ووصلهم وابتنى المساجد والمدارس بنواحي مملكته وأسلمت زوجته جبك خاتون واتخذت لها مسجدا من الخيم تسافر به .

وزاد النورى : وهو أول من دخل في دين الإسلام من عقب جنكيز خان ولم ينقل إلينا ان احدا منهم أسلم قبله ولما أسلم أسلم أكثر قومه .

وقال الذهبى : قال قطب الدين كان بركة يميل الى المسلمين وله عساكر عظيمة ومملكته تفوق مملكة هولاءكو من بعض الوجوه وكان يعظم العلماء ويعتقد في الصالحين ولهم حرمة عنده وكان يميل الى صاحب مصر ويعظم رسله ويحترمهم وتوجه اليه طائفة من أهل الحجاز فوصلهم وبالف في احترامهم وأسلم هو وأكثر جيشه وكانت المساجد التى من الخيم تحمل معه ولها أئمة ومؤذنون وتقام فيها الصلوات الخمس .

قال : وكان شجاعا جواداً عادلاً حسن السيرة يكره الإكثار من سفك الدماء والافراط في خراب البلاد وعنده حلم ورأفة وصلاح .

وصنف الشيخ نجم الدين ابو الرجا مختار بن محمود الزاهدى صاحب القنية رسالة في الاعتقاد سماها الرسالة الناصرية نسبة الى ناصر الدين بركة خان واهداها اليه ذكر ذلك ابو الفدا والجنابى وغيرهما قال في كشف الظنون الفها لبركة الجنكيزى ورتبها على ثلاثة ابواب : الاول في الدلالة على حقيقة رسالته ﷺ والثاني في

ذكر المخالفين لنبوته والجواب عن شبهتهم **والثالث** في المناظرة بين المسلمين والنصارى واتفقا في جمادى الآخرة سنة ٦٥٨ هـ. ١ هـ

قال المؤرخ الروسي كارامزين: التتار لما قبلوا الإسلام اقبلوا اليه بالكلية ولاسيما بركة خان فانه اعلن نفسه بانه حامى القرآن والشريعة والدين وخادمها فاسلم قوم التتار كلهم تبعا لسلطانهم وقد قتلوا واحدا من الروس غيرة لدين الإسلام في عهد منكو تيمر خان لتكلمه في حق الإسلام بمالا يليق وملأوا جلده بالتبن اهـ.

ثم إن بركة خان لما أسلم ودخل معه اكثر قومه في الإسلام صار يجلب العلماء والفضلاء من اطراف العالم وكاتب الخليفة المستعصم بالله مرات عديدة وبايعة وهاداه، واتم بناء بلدة سراى وقد تقدم ان اخاه باتوقد ابتدأ بينائها فصارت من أعظم البلدان وأحسن المدن وأنزهها.

مدينة سراى

قال ابن عرب شاه^(١) في عجائب المقدور في وصف مدينة سراى هذه: وتخت الدشت سراى وهى مدينة إسلامية البنيان بديعة الأركان وكان السلطان بركة - رحمه الله - لما أسلم قد بناها واتخذها داراً للملك واصطفها وكانت من أعظم المدن وضعا وأكثرها للخلق جمعا، حكى ان رجلا من اعيانها هرب له رقيق وسكن في مكان منحى عن الطريق وفتح له حانوتا يتسبب فيه

(١) وهو قد اقام بهامدة سنين عديدة وتزوج فيها وولد له هناك اولاد فهو يخبر عن علم ويقين ولا يثبتك مثل خير. هـ منه.

ويحصل قوتا واستمر على ذلك الحال نحواً من عشر سنين لم يصادفه فيه مولاه ولا اجتمع به ولا رآه وذلك لعظمتها وكثرة امها وهي على شط متشعب من نهر اتل الذي اجمع السيّاحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الانهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه اهـ .

وقال أيضا : ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام، ورفع في اطراف الدشت للدين الحنيفي الأعلام، استدعى العلماء من الاطراف، والمشايخ من الآفاق والاكفاف، ليوقفوا الناس على معالم دينهم، ويبصروهم على طريق توحيدهم ويقينهم، وبذل على ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الانبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند اوزبك خان بعده وجاني بك خان، مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا احمد الخجندي، رحمهم الله تعالى، فصارت سراى بواسطة هؤلاء السادات، مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والادباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلة، وخصلة نبيلة جميلة، في مدة قليلة، مالم يجتمع في سواها، ولا في جامع مصر ولا في قراها، اهـ .

وقال ابن فضل الله العمرى : وحدثني الفاضل شجاع الدين

عبدالرحمن الخوارزمي الترجمان ان مدينة سراى بناها بركة خان على شط نهر اتل وهي ارض سبخة بغير سور ودارُ الملك بها قصر عظيم على عليائه هلال^(١) ذهب زنته قنطاران بالمصرى، ويحيط بالقصر سور وابراج ومساكن لامرائه وبهذا القصر مشتاهم قال وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات وأكبر وتجرى فيه السفن الكبار يسافر بها الى الروس والصقلب قال وهي يعنى السراى مدينة كبيرة ذات اسواق وحمامات ووجوه اهلها وجوه بر مقصودة بالاجلاب، وفي وسطها بركة ماؤها من هذا النهر يستعمل للاستعمال وأما شربهم فمن النهر يستقى لهم في جرار فخار وتصف على العجلات وتجر الى المدينة وتباع اهـ.

وقال ابن بطوطة ومدينة السراى من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض تغص باهلها كثرة حسنة الأسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطواف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا الى آخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لآخواب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لأقامة الجمعة احدها للشافعية واما المساجد سوى ذلك

(١) فهذا صريح في ان اتخاذ الشكل الهلالي في علياء البيوت ورؤوس المنائر عادة باقية من قدماء التتار لا أنها مأخوذة من القياصرة كما زعم وقد قدمنا انها باقية من اغوز خان وهو كذلك وقد أخطأ خطأ كبيراً، وجنى جناية عظيمة من تقول باخذه من العثمانيه واخذهم من القياصرة جزافاً بغير علم وتسبب بذلك لتعرض الروس بها ورب كلمة تقول لصاحبها دعني اهـ . مؤلف أي الشيخ الرمزي .

فكثيرة جدا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والساطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاصل (الزكي) وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها اسواقها والتجار والغرباء من أهل العراق ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على اموال التجار وقصر السلطان بها يسمى آلتون طاش اهـ.

ذكر وقوع الاختلاف بين السلطان

بركة خان وابن عمه هولاكو

إِعلم انه لما تسلطن بركة خان لم يلبث إلا قليلاً حتى وقع الاختلاف بينه وبين ابن عمه هولاكو الظالم الكافر مخرب بغداد وقاتل الخليفة المستعصم بالله وجرت بينهما المقاتلة والمحاربة الشديدة وسرت تلك العداوة منهما الى اعقابهما بحيث لم يحصل بين هذين الشعبين وفاق حتى انقطعت ذرية هولاكو بموت السلطان ابي السعيد الايلخاني سنة ٧٣٢هـ في عصر السلطان اوزبك خان عليهما الرحمة.

واختلف المؤرخون في سبب حصول العداوة بينهما فمن قائل إنه بسبب: ان عادة اولاد جنكيز خان كانوا يرسلون من فتوحاتهم وغنائمهم شيئاً للقاآن الكبير وشيئاً لبيت باتو ولما مات باتو وتسلطن بركة خان لم يرسل هولاكو اليه شيئاً مما فتحه من البلاد ونهبه من العباد فغضب عليه بركة خان لاجل ذلك، ومن قائل ان بيت باتو خان كانوا في دعوى ان تبريز ومراغة كانتا من حصتهم في تعيين جنكيز خان وتقسيمه فتشبثوا بذيل ذلك وطالبوا هولاكو واعقابه بذلك، ومن قائل غير ذلك مما ليس في إطالة الكلام بذكره طائل

ولا يرجع الى حاصل .

قلت : لا يخفى على العاقل سبب هذه العداوة فإن بركة خان عليه الرحمة بإسلامه صار مظهراً لاوصاف الجمال وحامياً لاهل الإسلام من أهل الكفر والضلال وهولاكو باصراره على الكفر وانغماسه فيه صار أشد الاعداء للملة المحمدية وأمته عليه الصلاة والسلام، وكان بركة يوالى الخليفة في حياة اخيه باتو ويمنع هولاكو من التعرض له، وكان هولاكو لخبثه يبغضه لذلك ولكن كان يضمّر العداوة له ولا يظهرها في حياة باتو خوفاً من شوكته وصولته ولما مات باتو اظهرها وقصد الخليفة وفعل ما فعل واشتدت العداوة بينهما لذلك ورأى بركة خان أن يأخذ بثار الخليفة والمسلمين منه .

قال ابن فضل الله العمري وكذا ابن خلدون نقلاً عنه ولما استقل منكوقا آن بالتخت وعلت كلمته جاءت اليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وضررهم بهم فجهز اخاه هولاكو في جيوش جمّة لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم فلما استولى عليها حسن لاخيه منكوقا آن اخذ ممالك الخليفة والاستيلاء على أعمالها فأذن له فيه فخرج لذلك فبلغ ذلك بركة فصعب عليه ذلك لما كان بين بركة والمستعصم من الموالاة والوصلة وتأكد المودة؛ فذكره على اخيه باتو الذى كان قد ولى منكوقا آن القاآنية وقال له اننا نحن اقمنا منكوقا آن وما جزانا على ذلك إلا انه اراد ان يكافينا بالسوء في اصحابنا وينقض عهدنا ويخفر ذمتنا ويتعرض الى ممالك الخليفة وهو صاحبى وبنى وبينه مكاتبات

وعقود مودة وفي هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة، وقبح فعله ذلك على اخيه باتو فبعث باتو الى هولاء بالنهاى عن ذلك وانه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل ان ينفصل بالعساكر فما عبره وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين أمثالاً لامره حتى مات باتو وتسلمن أخوه بركة فحينئذ قويت اطماع هولاء وبعث الى اخيه منكوا قا آن يستأذن فى إمضاء ما كان امره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسن له ذلك فاجابه فسار هولاء لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستباحهم، واتهم سبعمائة نفر من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة الى باتو ثم الى بركة بالميل الى بركة والمباطنة على هولاء ومنكوا قا آن وقتلهم عن آخرهم وامتد في البلاد وقصد دشت القفجق وعدا اليه فرحف اليه بركة في جموع لا تحصى والتقى واستمر القتل في اصحاب هولاء وهم بالهزيمة ثم حال نهر الكربين الفريقين وعاد هولاء وعاث في البلاد وعام في تيار الفساد واستحكمت العداوة بينهما .

انتهى ما ذكره زاده ابن خلدون : وسار هولاء الى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة اهـ

ولادري من اين أخذ ابن خلدون هذه العبارة وقال هو في موضع آخر نقلاً عن الملك المؤيد انه حدثت الفتنة بين بركة وبين قىلاى قا آن حتى آل الامر الى وقوع الحرب بين بركة وبين هولاء فافتتلا في سنة ٦٦٠ هـ فهاتان العبارتان تفيدان تعدد الواقعة بين بركة وهولاء إحداها قبل وقعة بغداد والاخرى بعدها وهذا هو الذي

وعدنا ذكره ولكن لاتنس نصيبك مما قدمنا من عدم صحة ذلك وهو الصواب وما ذكره ابن خلدون هنا وهم او سبق قلم والله اعلم،

والحاصل ان السبب لوقوع الحرب بينهما هو طغيان هلاكو وقتله العباد وسعيه في الأرض بالفساد خصوصا قتله الخليفة الذي هو اعظم الفساد ولذلك قال الذهبي الذي هو مؤرخ الإسلام ومن لا يقول القول إلا بعد التحقيق والتطبيق لنقول الأعلام: ومن أعظم الأسباب لوقوع الحرب بينه وبين هلاكو قتل الخليفة اهـ، وكفى به شهيدا غير أن بركة خان لما لم يمكن له القيام بطلب دم الخليفة وثأر المسلمين بسببين مانعين له من ذلك :

أحدهما أن أكثر عسكره كانوا في ذلك الوقت كفارا ومن أسلم منهم قليلا مع قرب عهدهم بالإسلام وترسخ يسق جنكيز خان في قلوبهم وقتل الخليفة والاستيلاء على بلاد المسلمين ليس بجناية موجبة لقتاله في يسق جنكيز خان بل هو فخر لهم .

والثاني ان منكوقاآن الذي هو الحاكم المطلق على جميع اولاد جنكيز خان وبمنزلة الخليفة بالنسبة الى المسلمين كان اخا هولاكو وقد فعل هولاكو ما فعله بامر واذنه فحرب بركة هولاكو هو حرب منكوقاآن وسائر اولاد جنكيز خان، لذلك صار يتشبث باذيال حيل لابداء شئ يكون في الظاهر سببا موجبا لقتال هولاكو ويكون هولاكو المعتدى والجاني عند قوم بركة فيوافقونه على قتاله واحداث شئ يكون سببا لتفرقة كلمات سائر اولاد جنكيز خان ومازال ينتهز الفرصة لذلك ويقترح على هولاكو اشياء كثيرة مثل ادعاء اعمال مراغة وتبريز

وطلب ما كان يرسله لبیت باتو من الغنائم وغير ذلك مما ذكره المؤرخون وزعموا حقيقته وليس كذلك، بل كان قصده بذلك حمل هولاءكو على الغضب والضجر والسامة حتى يكون طالبا لحربه وقتاله ويكون بذلك جانبا عند قومه ومستحقا لقتاله فيكونون معه يدا واحدة في مدافعته ومحاربتة.

وبينما بركة خان يدبر انواع التدابير لاجل ذلك اذ مات منكوقا آن وقد خرج بعساكره وقصد بلاد الخطا لعصيان بعض ملوكها واخذ معه اخاه قبلای واستخلف مكانه اخاه الاصغر آرتق بوكا فلما مات منكوقا آن اتفق امراء العساكر ان يجلسوا على تخت القاآنية مكانه اخاه قبلای لكونه أكبر فلما سمع بركة خان ذلك الخبر اغتتم الفرصة واستجلب اليه قیدو بن قاشين بن اوكدای بن جنكيز خان لما تفرس فيه العقل والتدبير والشهامة والشجاعة وارسله الى آرتق بوكا مع بعض العساكر قائلا بانك انت الاحق بالقاآنية دون اخيك قبلای لان منكوقا آن رتبك فيها فقم بطلب حقلك ولا تطع القبلاى وانا قد ارسلت قیدو بن قاشين مع عساكره نجدة لك، وضممت اليه عدداً من عساكري فإن احتجت الى الزيادة فانا معك فقام آرتق بوكا بطلب القاآنية وبايعه من معه من العساكر فلما سمع قبلای ذلك الخبر رجع الى بلاده واستقبله آرتق بوكا بمن معه من العساكر فنشب بينهما القتال من ذلك التاريخ وكان ذلك في سنة ٦٥٨ هـ ودامت المحاربة بينهما الى سنين كثيرة.

وكان هولاءكو قد توجه في التاريخ المذكور نحو بلاد الشام

باربعمائة الف عسكر واستولى عليها واراد ان يسير الى مصر وبينا هو في هذا الفكر اذ بلغه موت منكوقا آن ووقوع الخلف بين أخويه قبلاى وآرتق بوكا وبلغه ايضا ان اولاد جغطاى قد رفعوا الوية العصيان في ماوراء النهر على القاآن بسبب إغواء بركة خان اياهم فاظلمت الدنيا عليه ولم يهنأ بفتح الشام وتكدر خاطره غاية التكدر ولم يستصوب الإقدام على محاربة المصريين تاركا البلاء الاعظم وراءه فكر راجعاً الى مقره بعدان ترك بالشام اميرا من امراء المغول اسمه كتبوغا من ارباب الشجاعة والدهاء مع عشرة الاف عساكر فاستأصلهم صاحب مصر الملك قطز عند عين جالوت كما هو مسطور في التواريخ.

وهذا ايضا من اعظم حسنات بركة خان عليه الرحمة حيث صد هولاكوا الطاغية بهذا الجيش العرمرم الذي لا تطيقه الجبال الشوامخ عن مصر بتدبيره ذلك ولولاه لانصدع شعب الامة المحمدية وهي عمود الملة الاحمدية.

ولما رجع هولاكوا الى مقره لم يوفق لشئ سوى انه استمال قلوب اولاد عمه جغطاى واعادهم الى طاعة القاآن ولكن بقى متحيراً في أموره ومترددا في افعاله ومتعريا عن شعوره خصوصا بعد ان بلغه ما فعله المصريون بعساكره واميره، وبركة خان لا يزال يزيد في اقتراحه ما يوجب غضبه وما يذهب بفرحه وسروره لما انه قد اطمئن خاطره من طرف القاآن بما وقع بينهم من الفتن والحرب والضرب وبقي إحداث

سبب من هذا الطرف حتى بلغ غضبه عليه نهايته وصمم على محاربته وعزم على مقاتلته بعد ان تردد برهة من الزمان في التوجه نحو الشام للانتقام من المصريين والتوجه نحو دشت القفجق لحرب بركة فوقع ما سيذكر.

وذلك ان بركة خان ارسل الى هولاكو سنة ٦٦٠ هـ رسولين يطالبه بحمل ما جرت به العادة الى بيت باتو وبعث معهم سحرة ليفسدوا سحرة هولاكو فاطلع هولاكو على ذلك فامر بالقبض عليهم جميعهم وحبسهم في قلعة تلا ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوما فلما بلغ بركة قتل رسله اظهر العداوة لهولاكو اهـ من تاريخ المفضل نقلا عن سيرة الملك الظاهر للقاضي ابن شداد وهو نقله عن علاء الدين بن عبد الله البغدادى احد اصحاب الامير سيف الدين بن يلبان الرومى وهو كان وقتئذ عند هلاكو.

ويقرب منه ما ذكره في روضة الصفا حيث قال ما معربه: ومن جملة اسباب الوحشة بين بركة خان وهلاكو ان توتار^(١) اوغل كان من اقرباء بركة فاتهمه اصحاب هولاكو بالسحر فارسله هولاكو الى بركة صحبة سونجق نويين يعرفه بجريمته فاعاده بركة الى هولاكو ليحكم فيه بقانون جنكيز خان فقتله هولاكو وكان بركة يتوقع منه العفو عنه والإغماض عما صدر منه فكان ذلك في السابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ فتكرر خاطر بركة لذلك وصار يرسل اليه الرسل

(١) قلت توتارا اوغل هذا احد قائدي العساكر الذين كان باتوخان قد ارسلهم نجدة لهولاكو على الملاحدة حين وقع بهم وتانيهم بغاى بن شيبان. ١ هـ منه

تترى ويوبخه ويتحكم عليه بانواع التحكمات فلما جاوز ذلك حد الاعتدال ولم يبق للتحمل مجال قال هولاء في مجلسه الخاص : إن بركة وان كان اخا أكبر منى وانا اصغر منه ولكن لما كان يخاطبني دائما بالتهديد ويعاملنى بالعنف والتشديد لم يبق لى بعد ذلك ميدان للتحمل ولا مجال للتجمل فلا أداريه بعد ذلك ولا أجامله فيما هنالك بل اطوى صحائف القرابة واسلك مسلك المخالفة والمضاربة ولما بلغ بركة خان ما قال استشاط غضبا وقال إن هولاء أخرج بلاد المسلمين واستأصل سلطان الإسلام والمؤمنين واعدم خليفة الزمان وفعل ما فعل برأيه السخيف بلا مشاورة الاخوان ولم يفرق الاعداء من الاخذان فإذا كان توفيق الحق سبحانه رفيقى وعونه ونصرته معى لآخذنه بدم المظلومين ولا تركنه عبرة للعالمين اهـ .

ذكر كيفية هذه المحاربة:

قال فى روضة الصفا بعد ذكره ماتقدم ثم أرسل بركة قريبه نوغاي الذى هو قائد جيشه وله قرابة بتوتار اوغلان المقتول بثلاثين الفامن العساكر الجرار فى مقدمته فعبر دربند وخيم فى ظاهر شروان فلما بلغ هولاء ذلك خرج من محله الاطاع فى شوال سنة ٦٦٠ هـ وأرسل فى مقدمته شيرامون نويان مع سائر الامراء ولما وصلوا الى حدود شروان هجم عليهم نوغاي بعسكره وقتل كثيرا من شجعانهم وأمرائهم، ورجع الى محله مظفرا منصورا .

وفى ذى الحجة من السنة المذكورة هجم تاباى نويان بعسكر كثير على عسكر بركة وكان على مسافة فرسخ من شروان فانهزم

نوغای امامه فلما بلغ ذلك هولاکو نهض في اوائل محرم مفتتح عام احدى وستين وستمائة من نواحى شماخى وفي الثالث والعشرين منه توجه جميع عساكره مسلحين نحو دربند فلما وصلوا اليها وقت الضحى رأوا طائفة من عسكر بركة على ابراج دربند^(١) فهجموا عليهم، وأزالوهم عن مواقعهم وعبروا دربند واقتتلوا مع المخالفين فانكسر القفجق - يعنى بركة - وانهزموا عن آخرهم حتى لم ير منهم اثر في تلك النواحى وفي غرة صفر قال امراء المقدمة نحن نذهب من عقب العدو بتمام العجلة والسرعة والاصلح ان يرجع شهزاده يعنى ابغابن هولاکو فابى ابغا الا المسير معهم، فأمر هولاکو الامراء بالغارة على اهل الدشت والنهب والسلب فعبروا نهر ترك ووجدوا الدشت مملأة بالاموال والامتعة وارباب الجمال وليس بها مقاتل ولا ممانع من الرجال فنزلوا في خيام القفجق وشرعوا في التلهى مع البنات صواحب الجمال وبينما هم على هذا الحال اذ طلع بركة خان من تلك البرية الواسعة بعساكر كالرمال لا يعلم عددهم الا الله الواحد المتعال وهجموا عليهم بلاامهال واشتد بين الفريقين القتال وامتدت المحاربة من طلوع الشمس الى غروبها وقام سوقها على ساق بين الابطال ثم انهزم عسكر هولاکو اشنع الانهزام وولوا الادبار فلما وصلوا الى نهر ترك منهزمين وارادوا العبور انكسر الجمد وغرق اكثر العسكر وهرب ابغا بشرذمة قليلة واتصل بهولاکو بموضع شروان فرجعوا منه الى بلادهم مسرعين اهـ.

(١) دربند : مدينة توجد في جنوبي جمهورية داغستان .

وقال ابن واصل الحموى: وصل الخبر الى الملك الظاهر أن رسل
بركة قد وصلوا الى هولاءكو وأنه ضرب رقاب الجميع وخرج بالعساكر
الى ازاك ووصل الى نهر كور والى تيمرقيو ولما بلغ بركة وصول
هولاءكو الى بلاده رسم ان تخلى له البلاد وان لا يقف احد بين يديه
ولا يقاتل احد ثم اخلوا له البلاد مسافة خمسة عشر يوما ولما وجد
هولاءكو البلاد شاغرة وقد هرب عسكر بركة اوغل عسكر هولاءكو في
البلاد ونهبوا وغنموا فلما سمع بركة ان عسكر هولاءكو قد اوغلوا في
البلاد نادى في جيشه ان يركب من عمره عشر سنين فركب خلق
لا يدري اولهم من آخرهم واما هولاءكو فقد أصبح معتقدا بانه قد
ملك بلاد بركة وبينما هو كذلك اذ رأى هواء سموما سخنا فقال
ما هذا الهواء السموم فقالوا له هذا الهواء حرارته من انفاس الخيل
وكان في عسكره رجل كبير السن يسمى صمغار اوستناى وكان
مقعداً قد بطل نصفه وكان لا يحضر حربا الا وينكسر من يحاربه
وينتصر على عدوه لانه اذا التقى الجمعان نزل عن فرسه ويقول
لاصحابه انا قاعد هنا فمن شاء يدعنى فقال له هولاءكو ما تقول في
هذا الجيش فاخذ صمغار مقرعته وتطرقها وقال هذا اقدام مقرعتى
ستمائة الف ويفيض من هنا ويفيض من ها هنا يعنى يمينا وشمالا وما
اعرف عدد هذا الجيش فعند ذلك رسم هولاءكو بان كل من عدا النهر
قبل الخان يعنى نفسه مات ثم انهزم هولاءكو مع خواص عسكره من
المغول فلما قطع النهر وعدى انكسر الجيش ورائه وتزاحموا في
الهروب وانخسف بهم الثلج فلم يسلم منهم من يرد خبرا وكان كل

من تقدم هاربا غرق ومن تأخر قتل فاما الذين غرقوا فلا يدري عددهم الا الله واما الذين تاخروا فقتلوا جميعا .

ولما حضر بركة ورأى تلك المقتلة امر ان تجمع القتلى فجمعوهم وجعلوهم ثلاثة كيما تلالاً عظيمة وقد صقلتهم الامطار والرياح وابيضت عظامهم ينظر إليهم المسافرون من مسافة يومين وهذه الواقعة تسمى نوبة تيمر قبو، وهرب هولاء في نفر يسير ولما وقف بركة على مقتلة ورأى مقتله شنيعة قال قبح الله هولاء هذا؛ تقتل المغول بسيف المغول لو كانت كلمتنا مجتمعة لفتحنا الأرض كلها اهـ .

وقال الشيخ عماد الدين ابن كثير وفيها (يعنى في سنة ٦٦٠ هـ) وقع الاختلاف بين هولاء وبين السلطان بركة ابن عمه وارسل اليه بركة يطلب منه نصيبا مما فتحه من البلاد واخذه من الاموال والاسرى على ماجرت به عادتهم فقتل رسله فاشتد غضب بركة وكتب الى الظاهر^(١) ليتفق على هولاء وقال فيها (يعنى سنة ٦٦١) التقى بركة قان وهولاء ومع كل منهما جيوش عظيمة فاقتتلا فانهمز هولاء هزيمة فظيعة وقتل اكثر اصحابه وغرق اكثر من بقى وهرب هو في شردمة قليلة من اصحابه والله الحمد والمنة ولما نظر بركة قان الى كثرة القتلى بكى وقال يعز على ان تقتل المغول بعضها بعضا ولكن كيف الحيلة فيمن طغى وبغى او كما قال اهـ .

وقال العمرى : قصد هولاء دشت القفجق وعدا اليها واقام ثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل وداسهم بركة

(١) يعنى الملك الظاهر بيبرس ملك مصر .

بجنوده وعساكره ودارت الدائرة على هولاء حتى هم بالهزيمة فنزل امير كبير كان معه اسمه سنتاي وهو المنسوب اليه عقبة سنتاي بالعراق وامسك برأس فرس هولاء وقال اين تروح فلما استحر القتل في اصحابه تأخر حتى صار نهر الكر بينه وبين بركة وجاء بركة حتى وقف على نهر الكر ولم يجد له سبيلا الى العبور ورجع هولاء وعاث في البلاد وعام في تيار الفساد وفعل فعلته وقويت العداوة بينه وبين بركة خان اهـ.

وقال الذهبي وفيها (يعنى سنة ٦٦١هـ) جرت وقعة هائلة بين هولاء وبركة وكانت الدائرة على هولاء وقتل خلق من اصحابه وغرق آخرون ونجا بنفسه اهـ.

وقال المفضل قبيل ذكره ما تقدم عنه ان هولاء جمع العسكر وقصد بركة وسار بركة اليه فنزل في ارض الكرج^(١) ونزل هولاء بصحراء سلماس ثم كان الملتقى بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق كثير ووقعت الكسرة على هولاء وعمل في عسكره السيف اثني عشر يوما وهرب هولاء.

انتهى كلام الشيخ الرمزي ملخصاً من كتاب: «تلفيق الأخبار» من ص ٤٠٤ - ٤٢٣ .

شاهد من التاريخ

وهذا شاهد آخر على قوة دولة التتار المسلمة وهيمنتها على مقدرات الروس وهو من القرن الثامن الهجري، أي بعد الملك المؤسس

(١) هي الآن جمهورية جورجيا في بلاد القوقاز .

(بركة خان) بزم، وإنما هي على عهد الملك محمد اوزبك خان
احد ملوك التتار المسلمين العظام.

قال المؤرخ الروسي كارامزين - فيما نقله عنه الشيخ الرمزي - :
ولمات غيورغى بسيف ديمتري وقتل ديمتري بسيف الخان (المسلم)
قصاصا وجه أzbek خان الكينازية الى الكيناز^(١) اليكساندر اخي
ديمتري وابن ميخايل المقتولين وكتب له بذلك منشورا ومنحه ايضا ما
لم يمنحه لابييه وأخيه من المراحم الخانية، ولكن لم تدم له تلك
المراحم، بل تبدلت غضبا وقهرا ثم ذكر وقعة شفقال خان.

حادثة شفقال خان:

قال كارامزين بعد بيان الوقائع المذكورة بالتفصيل ثم ان اوزبك
خان ارسل في ابتداء الربيع من السنة المذكورة ١٣٢٧م ابن عمه الامير
شفقال بن الامير دودين (تدان) مع فرقة من عسكر التتار الى توير
وكان ذلك لاصلاح بعض الامور التي بلغته بعد رجوع اليكساندر
المذكور الى توير فظن الاهالي ان ذلك انما هو لدعوة الروس الى
الإسلام وإجبارهم عليه وانه يقتل اليكساندر وسائر حكامهم ثم
يجلس على تخته وينصب عليهم حكاما ممن معه ويجعلهم عبيدا لهم
وشاع ذلك الخبر بين الروسية شيوعا تاما وصدقوه مع انه غير مطابق
للواقع من جميع الوجوه فانه لم يكن مع الامير شفقال عسكر كافٍ
لهذا الامر، بل كان معه شرذمة قليلة على انه مخالف لسياسة التتار
فانهم كانوا يحمون روحانية الروسية دائما ولم يصدر منهم تعرض

(١) انكيناز بالروسية الحاكم الكبير ومقره موسكو.

للدين قط خصوصاً اوزبك خان الذى كان متصفا بالعدالة للرعايا ومشتهراً بالحقانية بين البرايا، فان استحالة صدور مثل هذا الامر في عصره كانت بديهية. ولكن ما الحيلة انما كانت الروسية متصفة بالجهالة وقلوبهم منخلعة من خوف التتار لكونهم تحت^(١) جبرهم وقهرهم دائماً كانوا يصدقون كل خبر من هذا القبيل (قلت يقول كارامزين هذا لدفع التعصب والوحشية عن الروسية مع كونه ظاهر التعصب والوحشية يدل عليه السياق والسباق ولم يدر أنه واقع في وسط التناقض) قال فاجتمع الاهالى عند الكيناز اليكسندر مع كبرائهم للاستشارة فقال لهم الكيناز لكونه شاباً خفيف العقل: لا يخفى عليكم ان التتار قتلوا ابى ميخايل واخى ديميتري والآن يقصدوننى ويريدون ان يستأصلونا عن آخرنا ويملكوا بلادنا وقد جاء الآن وقت الانتقام وكان الامير شفقاً في ذلك الوقت نازلاً بقصر ميخايل مع عسكره فاجتمع الاهالى عند اليكسندر ليلاً وساروا معه نحو القصر المذكور وقت الصبح واحاطوا به وهجموا عليه فخرج التتار ايضاً من القصر وبدأوا بالمدافعة واقتتلوا قتالاً شديداً من الصبح الى الغروب حتى سالت الدماء كالسيل وحملت القتلى الى الاطراف والجوانب فدخلت التتار الى القصر اضطراباً بسبب قلتهم وكثرة الروس وتحصنوا به فاضرم اليكسندر النار على القصر واحرقه بمن فيه من التتار ولم ينج منهم احد؛ حتى تجار التتار الذين كانوا في توير من القديم قتلوا.

(١) فاذا كان الامر كذلك فلاى شئ تستعجب الروس اتهم التتار الروسية الآن مع أن صدور امثل هذه الأمور عن الروس في جميع الأزمان واقتلاع قلوبهم من تكاليفهم الباطلة دائماً. ١٠ هـ منه.

فلما انتشر هذا الخبر في اطراف الروسية اندهشت الحكام والاهالى وزلزلوا زلزالا شديدا وغابوا عن حواسهم وابقنوا بالهلاك والوبار ولكنهم كانوا لا يعلمون ان هذه الفعلة الشنيعة : هل ستجلب المصيبة العظمى لولاية توير فقط ، ام تعم بلواها كافة الروسية ؟ .

واما اوزبك خان فانه لما قرع سمعه هذا الخبر الموحش غاب عقله ايضا من الغيرة وصاح بالثار والانتقام وحلف انه لا يبقى احدا من هؤلاء الاشقياء حيا على وجه الأرض وانه يسوى اماكنهم بالأرض وربما توهم ان هذه الفعلة بالمواطاة من جميع حكام الروس وأنهم يريدون اخراج رؤوسهم من ربقة رقية^(١) التتار ولكن من اين كان للروسية في الوقت المذكور ان يقاوموا سطوة اوزبك خان وان يقابلوا قوة التتار فلما علم اوزبك خان عدم مشاركة سائر امارات الروسية لاهل توير في الواقعة المذكورة ارسل الى الكيناز ايوان كاليتا ابن دانيل ببلدة موسكو يدعوه لديه فلما جاء امره بالمسير الى بلدة توير لتربية الاشقياء واستئصالهم بالكلية واعداد الكيناز اليكسندر ووعدته في مقابلة خدمته هذه ان يوجه الى عهده مرتبة الكينازية العظمى لجميع الروسية وضم اليه خمسين الفا من عسكر التتار وامر ايضا الكيناز سوز دل اليكسندر بن واسيلي ان يلحق بهم بعسكره فقبله الايو ان المذكور طمعا في الكينازية العظمى وتخليصا لسائر بلاد الروسية من سيوف التتار لأنه كان يعرف يقينا ان اوزبك لو تحرك بنفسه او امر واحداً من امراء التتار لقلبوا كافة الروسية ظهراً لبطن فسار هؤلاء

(١) رقية : من الرق بمعنى العبودية .

العساكر بهيئتهم المجموعة الى توير .

قال كارامزين - في هذا المقام بلسان التأسف والتحسر وبقلم
التحمس - : فلو خرج اليكسندر بعسكره لمقابلة التتار وقاتلهم لابرز
حمية وطنية وفدائية ولكنه لم يكن من اربابها فلم يكن له هم الا
تخليص نفسه من الهلاك بسلاح الهرب فقرر ان يذهب الى نوو غورد
فلم يقبله اهلها، ولما قرب التتار الى توير هرب اليكسندر إلى الادوغا
تاركا قومه المخلصين الصادقين في بحبوحه البلاء الى بصكوف
واخويه قنستطانتين وواسيلي فنال اهل توير ما طلبوه وجوزوا ما
صنعوه حيث هدمت التتار مع الايوان بلدة توير وكاشين وتورزبك
وسووها بالتراب وقتلوا اكثر أهاليها واسروا الباقين ومن لم يبلغ اجله
نجا بنفسه بالهرب الى الغابات، ثم ارادهولاء العساكر ان يستولوا على
نوو غورد ولكن أهل نوو غورد خلصوا بلدهم باظهار الطاعة واهداء
الف روبلة اليهم، وكانت في ذلك الوقت كثيرة .

قال الشيخ الرمزي : قلت ان من تأمل فيما سبق من الوقائع يجد
ان أهل نوو غورد تخلصوا من تلك المصائب التي ابتليت بها سائر
الروسية وذلك بحسن صنيعهم وترك العناد لعدوهم القوى وقد قال
بعض المؤرخين ان نوو غورد اقدم بلاد الروسية واشدهم تمدنا وفعائلهم
المذكورة تؤيد ذلك .

فلما سمع اوزبك خان خبر هذا الانتقام فرح فرحا شديدا وصار
ممنونا من ايوان بن دانييل وانجز وعده اياه حيث نصبه كينازا اعظم
لجميع الروسية واعطاه منشورا بذلك وارسله الى بلدة موسكو

فاستراحت الروسية بعد ذلك خصوصاً طرفها الشمالى الذى هو أبعد ارض الروسية من التتار وترك حكام الروس خصومتهم فيما بينهم وشكاية بعضهم من بعض الى الخان وصارت بلدة موسكو ام بلاد الروسية من ذلك التاريخ وبدأت الروس بالاصلاح والترقي وتوحيد الكلمة والرأى وضم الامارات الصغيرة اليها شيئاً فشيئاً بهمة الكيناز ايوان المذكور فإنه كان من جهة يذهب عند الخان ويتبصبص لديه ويجلب بذلك التفاته إليه ومن جهة أخرى كان يجتهد في اصلاح شؤون مملكته.

قلت ومن هذا قال بعض المؤرخين ان السبب في قوة الروس هو التتار حيث اعانوا الكيناز موسكو على ضم الإمارات الصغيرة الى الكينازية العظمى وتوحيد حكوماتهم الخ وانت تعلم ان فعل اوزبك خان هذا ماكان عن علم بان الروسية تتقوى بذلك وان الايوان الثالث من نسل هذا الايوان يخرب بلدته سراى وان الايوان الرابع يستأصل حكومة قازان بعد سنين فانه لو علم ذلك لما تركه حياً فضلاً عن اعانته ولكن اذا اراد الله شيئاً هيأ له الأسباب ولا اراد لقضاء الله .

عوداً الى قول كارامزين قال : وحين حضر ايوان^(١) عند اوزبك خان بعد اتمام امر توير احضر معه الكيناز ايوان والكيناز فنسطنتين اخوى اليكسندر الخائن فشفع عند الخان لهما وسأله ان ينصب قنسطنتين كينازاً لتوير فقبله الخان وارسل الكل الى بلادهم وامر الايوان ان يتتبع اليكسندر الخائن وان يمسكه ويجيئ به إليه فقبله

(١) ايوان هو ايفان .

الايوان وطلبه من أهل بصكوف فاراد الاهالى الامتناع من تسليمه
إليه ولكن الايوان خوفهم بواسطة ميتروبوليد (مطران) ولعنته عليهم
وحكمه بخروجهم من الدين ان يمتنعوا من تسليمه وذلك لسلامة
الروسية فاخرجوه من بينهم فهرب الى ليتوانيا عند غديمن فرجع ايوان
مع عسكره من بصكوف وبعد عشر سنين من هذه الواقعة عفى عنه
اوزبك خان لكونه صاحب مرحمة بشفاعة ميتروبوليد ونصب كينازا
الى توير ثانيا .

هذه هى معاملة الوحشيين بمن صدر منه أقبح القبايح بشهادة
الاعداء، والحق ماشهدت به الاعداء .^(١)

(١) راجع الحادثة بالتفصيل في الكتاب الجامع للشيخ محمود الرمزي « تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبنغار
وملوك التتار ج ١ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٢ » .

اليوميات التاريخية

يوم الثلاثاء: ١٥ ربيع الآخر ١٤١٥ هـ ، ٢٠ أكتوبر ١٩٩٤ م.
من موسكو الى قازان.

بادرنا بالخروج من منطقة المسجد التاريخي في موسكو- الذي
كنا نزوره - قاصدين مطار دوما ديدوفا للسفر الى قازان وكان
خروجنا إلى المطار في الخامسة والرابع عصراً.

فسلكنا شوارع موسكو الواسعة التي زادت سعة الأماكن الخالية
بينها على هيئة ميادين غير منسقة ولا معتنى بها مما جعل مدينة
(موسكو) تمتد امتداداً كبيراً، مثلها في ذلك مثل معظم المدن
الشيوعية، إن صح أن للمدن مذاهب، وهو صحيح على اعتبار أن
أهلها ذوو مذاهب شيوعية ذلك بأن الدولة الشيوعية تكون هي الجهة
الوحيدة التي تبنى المساكن الحديثة لعامة الشعب ولكنها تبنيتها على
هيئة أبنية ضخمة متعددة الطبقات (عمارات) تشتمل على شقق
سكنية محدودة المساحة، وتكون على هيئة تجمعات منفصلة منعزلة
عن الأبنية الأخرى.

لذلك تبنيتها في الغالب في أماكن بعيدة أو على الأقل غير
متصلة بالأحياء القديمة من المدن التي بنيت قبل الشيوعية.

وهذا الكلام يصدق على ما شاهدناه في شوارع الضواحي في
موسكو اضافة الى أن مدينة موسكو كانت مدينة كبيرة معتنى بها
منذ عهد القيصرية الروسية، وان كانت عاصمة القياصرة هي مدينة
(سان بطرس بوج) التي أسماها الشيوعيون (لينين قراد) بمعنى
مدينة لينين.

نهر موسكو :

نهر موسكو صغير كان اسمه (موسكوف) سميت هذه المدينة على اسمه وينطق بها هنا بلفظ (موسكوف)، ولما اتسعت المدينة وصارت مياه هذا النهر لا تكفي حاجة أهلها أمدوه بمياه من نهر (ايتل) المعروف بهذا الاسم في كتبنا العربية العريقة، ولكنه صار يعرف عند الخلف من بنى قومنا بنهر الفولقا وهي تسمية روسية، وشقوا لذلك قناة واسعة وفق طريقة هندسية مكلفة حتى صار نهر ايتل (الفولقا) يمد نهر موسكو بما يحتاجه من المياه من أجل ان يفي بما تتطلبه مدينة موسكو الكبيرة المتنامية .

إن سكان مدينة موسكو يبلغ عددهم في الوقت الحاضر نيفاً وثمانية ملايين وكانت عاصمة دولة الاتحاد السوفيتي أكبر دول العالم مساحة حيث كانت مساحته تغطي سدس مساحة الأرض اليابسة وبلغ مجموع السكان فيه ٢٦٧ مليوناً؛ وبعد أن انفرط عقد الاتحاد السوفيتي، وصارت جمهورية روسيا الاتحادية من دون توابع إلا جمهوريات كانت قد ضمت الى جمهورية روسيا من قبل مثل جمهورية تاتارستان التي سوف يتناولها حديثنا الآن، هبط عدد السكان الذين يتبعون موسكو بمائة وعشرة ملايين ومع ذلك لو كان في مكان مدينة موسكو مدينة حرة في زمن الاتحاد السوفيتي او ان شئنا الايضاح قلنا: لو كان الاتحاد السوفيتي بلداً حراً في نظامه السياسي والاقتصادي لكان عدد السكان قد تضاعف في موسكو .

ذلك بأن النظام الشيوعي نظام شامل تتحكم فيه الدولة في كل

شئ ومن ذلك مساكن الناس ومكان إسكانهم فكان لابد لمن ينتقل الى موسكو من اى مدينة أو ريف خارجها من أن يكون انتقاله بأمر الحكومة في موسكو لأن الحكومة هي التى تبنى المساكن وتؤجرها للناس ولذلك لايجد مسكنا له الا اذا كان ذلك باذن من الحكومة ولغرض من اغراضها، اللهم الا اذا كان شخصا واحداً وجد شخصا رحب بأن يشاركه السكن في غرفته وهذا نادر لاحكم له هنا لأنه لايزيد في عدد مساكن المدينة.

واذكر أنني في اول زيارة لي الى الاتحاد السوفيتي وكان ذلك في زمن الحكم الشيوعي قبل انفراطه و سقوطه قال لي الدكتور شمس الدين باباخانوف: إن الحكومة قد سمحت لي بشقة في موسكو لانني أتردد عليها بحكم عملي وكان يشغل في ذلك الوقت وظيفة مدير الادارة الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان وهي ادارة معترف بها من الحكومة الشيوعية وبوساطتها تستقدم الضيوف المسلمين الى الاتحاد السوفيتي ومن ذلك وفد رابطة العالم الإسلامي الذي رأسه، وقد قصصت ذلك في الكتب الأربعة التي كتبتها أثناء تلك الرحلة وطبع ثلاثة منها أولها كتاب: «في بلاد المسلمين الضائعين: بخارى وما وراء النهر».

إفلاس الشركة من إفلاس النظام:

أفلس النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ولذلك أسقطوه وكان أحرص الناس على إسقاطه والبراءة منه الذين كانوا أهله وأنصاره والأصلاء من الروس ومن لف لفهم، ولذلك نهجوا نهجا

اقتصاديا بل مبدئيا مغايراً له كل المغايرة وقد حملهم كرههم للشيوعية على سرعة الأخذ بالنظام الاقتصادى المفتوح المسمى السوق الحرة من دون تهيئة ذلك او ترتيب مرحلة انتقالية ولذلك حصلت في البلاد رجات اجتماعية وانتشرت فيها المحسوبية بل الفوضى الحكومية، ومن ذلك ما شاهدناه اليوم من رؤية جمهور ضخم قد سد الشارع واقفا امام مقر شركة يسمونها اختصاراً (ام ام ام) بثلاث ميمات (m,m,m) قد كانت جمعت أموالاً طائلة من متوسطى الدخل بحجة استثمارها واعطت في أول الأمر مبالغ مالية زعمت أنها ربحتها ثم أعلنت إفلاسها وذهاب أموال الناس ولم تصنع الدولة الروسية لهم شيئاً لأنها ليس لديها نظام اقتصادي مستقر، ولا خبراء أمناء ذوو تجربة ولم يتكون لديها بعد رأي عام يضغط عليهم او يتسترون منه، ولذلك ضاعت أموال المودعين في هذه الشركة وصار أرباب الأموال ينتظرون الساعات الطوال أمام مقرها المغلق من دون جدوى.

الريف المسكوفي:

كان الكتاب العرب الذين كنا نقرأ كتاباتهم في أول عهدنا بالقراءة يسمون الروس المسكوف نسبة الى عاصمتهم التي ينطقون بها (موسكوف) وذلك قبل ان يستقر تعريب الاسم او لنقل: نقله الى العربية بلفظ موسكو.

الريف المسكو في نسبة الى موسكوفا على هذه الطريقة هو ريف أخضر، كثيف الخضرة الا أن خضرته سريعة الزوال والاضمحلال مثل

وصل الحبيب الملول اذ ما أن يذهب الصيف الشمالي - وان كانت لا تزال في الصيف الغربي بقية - حتى تذبل تلك الخضرة ثم تموت تحت صقيع الشتاء الذى يبدأ ثلجه بالتساقط في شهر اكتوبر فتذهب خضرته وتتلاشى نضرته حتى تنقلب الى موت رمادى يخيل لمن يراه ان لا بعث له بعد ذلك .

وخضرة (موسكو) هذه يستغلها أهلها اعلافا لبعض الدواب ، وبطاطس رديئة في بعض الأماكن وليست كخضرة بلادنا والبلدان العربية المعتدلة تنتج الغذاء والفاكهة ولذلك يستوردون كل ما يحتاجون من ذلك من البلدان المعتدلة ، او من المناطق المعتدلة في جنوب روسيا ؛ ولكن الشئ المستغل عندهم هنا هو الاخشاب التي تنفعهم في أنواع شتى من انواع الاستعمال .

مطار الجنوب :

قصدنا مطاراً يسمونه (دوما ديدوفا) وهو أحد مطارات موسكو الكبيرة وقد يقولون له (مطار الجنوب) لكونه تطير منه الطائرات التى تذهب الى جهة الجنوب من موسكو ويبعد عن اطراف موسكو بـ ٢٢ كيلو مترا ، ولكن تقع ما بينه وبين موسكو منطقة ريفية خالصة خالية من المنازل المتراسة ، وانما توجد فيها بيوت ريفية متفرقة . وصلنا المطار في الساعة السادسة عصراً بعد ان قطعنا ٤٥ كيلو مترا ، منذ ان غادرنا المركز الإسلامى في موسكو كان الأخوة المرافقون - وهم يعرفون الروسية لأنهم من المقيمين هنا - يسعون في وزن الامتعة ولكن الموظفة المسؤولة عن ذلك وهي روسية كهلة ثقيلة مثل

سائر الموظفين هنا تركت عملها وتركتهم واقفين أمام المكتب ولما سألوها بلطف وهي تنصرف عنهم قالت : إننى متعبة سوف ارتاح وأعود أليكم، إن هذا الكلام لا يتصور ان يقوله موظف للمراجعين اثناء عمله، ولا سيما اذا كان العمل يجب انجازه في وقت محدد؛ ولكن المرافقين لم يستنكروا ذلك لما يعرفونه من حدوث أمثاله في هذه البلاد.

وبقينا ننتظر ، ثم مرت فلحق بها أحد الأخوة وسألها عن سبب تعبها فقالت : إن الفيتناميين الذين رأيتموهم عندما وصلتم كانوا عندى ومعهم أمتعة قد زاد وزنها وليس معهم نقود يدفعونها مقابل ذلك، وابطأت الموظفة في غيابها حتى قرب موعد قيام الطائرة فطلبنا من زميلة لها في مكتب مجاور لا يبعد الا بمترو واحد أن تزن حقائبنا وتقطع التذاكر لئلا تفوتنا الطائرة فقالت بغلظة وجفاء : هذا ليس شغلي !

ونسيت أن أقول : إننا عندما وصلنا إلى قرب المطار أنزلنا أمتعتنا من سيارتنا لأنه لا يسمح لها بالدخول إلى ساحة المطار الداخلية وحملها الأخوة فى حافلة كبيرة تابعة للمطار مثل غيرنا من الركاب وركبنا معها في الحافلة حتى وقفت بنا عند قاعة الترحيل التى لاتلي رصيف الشارع كما هو موجود في كل أنحاء العالم .

وعندما تأخرت الموظفة ذهب احد المرافقين وهو فؤاد شلحه من إخواننا اللبنانيين المقيمين في موسكو يبحث عنها فلم يجدها، ثم جاءت وفرحنا بعودتها ولكنها دخلت في نقاش مع جارتها التي تعمل في المكتب المجاور، والأخ فؤاد يسمع ويتابع كلامهما لانه يقيم في

موسكو ومتزوج من روسية فعرف أنهما كانتا تتخاصمان على نقود حصَّلتها لقاء أمتعة زائدة على المقرر للركاب وتبين أنهما تأخذان ذلك لهما وليس للدولة التي تملك شركة الطيران الروسية (ايروفلوت) التي سنسافر معها.

هذا وقد أعلن المكبر للركاب أن يخرجوا إلى الطائرة ونحن لانزال عندها ثم لم تعطنا بطاقة دخول الطائرة المسماة (بوردنغ باص) وانما طلبوا منا ان نبرز تذاكرنا عند كل باب يخرج منه الى الطائرة.

إلى قازان:

اسرعنا الذهاب الى منطقة الخروج الى الطائرة في الطابق الثاني ففتشوا الحقائب اليدوية واطلعوا على تذاكرنا ثم ودعنا المرافقين وعلى راسهم الأخ سعد الدين اللبان وخرجنا فوراً؛ وقد أرسلوا معنا موظفة أرضية مرافقة من اجل جوازاتنا (الدبلوماسية) فرافقتنا الى حافلة كبيرة فيها معنا اربعة من الركاب الاجانب من باب التكريم حتى صعدنا الى الطائرة؛ أما سائر الركاب من المواطنين وهم جمهور الركاب فقد ساروا الى الطائرة سيراً على الاقدام.

ومن اللافت للنظر أننا وجدناهم قد صفوا سائر الركاب الذين دخلوا الى الطائرة قبلنا واقفين ولم يسمحوا لهم بالصعود الى الطائرة الا بعد ان صعدنا وأخذنا مقاعدنا فيها جريا على عادة قديمة عندهم عرفتھا عند مازرت الاتحاد السوفيتى اذ لم يكونوا يصعدون الى الطائرة عند السفر ولا ينزلون منها عند الوصول الا بعد الضيوف

الأجانب، ولم تكن هناك ارقام لمقاعد الركاب لأنهم لم يعطونا بطاقات الصعود للطائرة .

وجدنا الطائرة من طراز توبوليف ١٣٤ الروسي الذي يشبه (د سي ٩) الأمريكية التي توقف صنعها الآن، وعندما تكامل فيها الركاب لم يشغلوا الانحو ثلثي مقاعدها، والبقية خالية،

درجت الطائرة في المطار الواسع فكانت المناظر فيه غير سارة منها مستنقع ماء وسخ عند مدخل المطار وهو متخلف من مطر كان قد أصابهم من قبل، ولم يجدوا ما يرشفونه به فضلاً عن أن يمنعوا ركوده هنا واسراب ضخمة من الغربان تقع وتتطاير في المدرج حتى خفت على طائرنا منها لأن أحدها اذا صادف ومرت الطائرة بالقرب منه ومحركاتها مسرعة ان تجذبه إليها فيعطل المحرك؛ اضافة الى عدم الراحة التي لم نحس بها عند الوصول الى المطار بسبب كثرة الناس وقلة اللوحات الارشادية والانتقال بالامتعة على حافلة توصل الى مكان الترحيل مما رسخ عندي ما كنت قد عرفته من قبل وهو أنه من الصعب على الغريب ان يسافر من هذا المطار اذا لم يكن معه من يساعده من سكان البلاد، وحتى اللغة فمعظم الموظفين لا يعرفون إلا الروسية التي لا يعرفها اكثر الأجانب .

أقلعت الطائرة الى قازان في الثامنة إاربعاً متأخرة عن مواعدها المحدد في الأصل بخمس دقائق وهذا لا يعتبر تأخيراً عند شركات الطيران، بل انه شئ جيد في التزام المواعيد، وذكرت بهذه المناسبة ذهابي من موسكو الى قازان في المرة الاولى التي سبقت هذه وان

الطائرة تأخرت ست ساعات وذكرت ذلك في كتابي « الرحلة الروسية » المطبوع .

تكلّموا من مكبرات الصوت باللغة التتارية لغة البلاد التي نساfer إليها . وهي مشتقة من اللغة التركية القديمة ولذلك يعرفها زميلنا في الوفد الاستاذ رحمة الله بن عناية الله فهو يعرف اللغة التركية وما تفرع منها لانه من أهل تركستان الشرقية الذين نسميهم البخاريين مع انهم بعيدون عن بخارى وقد درس بقية اللهجات التركية دراسة - واعلنوا ان مدة الطيران الى قازان ستكون ساعة وربعاً وقد قرع سمعى من كلامهم جملة : (خير لنغ) فأخبرني الأخ رحمة الله انها تعنى مع كلمة تركية أخرى : نتمنى الخير لكم .

كانت الشمس على وشك المغيب والطائرة تقلع من المطار لأن التوقيت هو بتوقيت موسكو الصيفي الذي يتقدم ساعة عن توقيت المملكة، وينتهي التوقيت الصيفي عندهم في آخر يوم أحد من ايام شهر سبتمبر أو اول يوم أحد من شهر اكتوبر الذي يليه حيث يعود التوقيت المعتاد الذي يساوى توقيت المملكة .

فكان اول ما استرعى انتباهي وجود قطع مظلمة في هذه الساعة من الغروب من الغابات في المنطقة التي كانت في السابق كلها تؤلف غابات كثيفة ملتفة قطعوا ما قطعوه منها من أجل عمارة البيوت او نحو ذلك من الاغراض، وهناك تجمعات سكنية اشبه ما تكون بالغرف الصغيرة وأغلبها نشأت حول مصانع في هذه الأرياف، ثم رأيت على الأرض تحتنا ظلاماً بل ظلامين احدهما من الليل والثاني من الضباب مع ارتفاع الطائرة الشديد .

وكانت ضيافتهم المعتادة في مثل هذه الرحلات الروسية الداخلية هي فنجال من شراب (الكوكاكولا) تقدمه مضيضة عابسة، ومن العادات الحميدة التي رأيناها في طائرات الاتحاد السوفيتى السابق ولازال القوم متمسكين بها منع الخمر والتدخين في هذه الرحلات الداخلية عندهم؛ كما ان من عاداتهم غير الحميدة أن تكون جيوب المقاعد في الطائرة خالية من أى شئ يقرأه الراكب، سواء من الصحف والمجلات العامة او من المجلات التي تصدرها شركة الطيران ولم يوزعوا على الراكب أي صحف وانما قامت المضيضة - التي لم ار لها عملاً هي وزميلة لها - بتوزيع هذه الفناجين الصغيرة من المشروب على الراكب وابطأت في اخذها بعد الفراغ منها كما قامت بتوزيع لعب ورقية فيها تسلية للراكب وهي باللغة الروسية ولذلك لم نعرف من امرها الا هذا ولذلك ايضا لم تعرضها علينا كما فعلت مع سائر الراكب .

في مطار قازان:

بدت مدينة قازان من الطائرة على البعد ذات انوار غير ساطعة ولاتدل على العناية الموجودة في انارة المدن في الدول الحاضرة مع انها عاصمة اقليمية مهمة فهي عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية الى جانب اهميتها التاريخية التي كان منها ان ملكها او سلطانها الذي كان يسمى بالخان عندهم هو الذي يسيطر على منطقة روسيا، الى درجة ان الكيناز وهو الحاكم الروسي الكبير الذي يكون مقره موسكو لايعتبر الروس ان ولايته ثابتة الا اذا صدر مرسوم بذلك من سلطان قازان وقرئ- اي مرسوم

السلطان - في قصر الكرملين في موسكو وقد يأتي الحديث مستوفي عن ذلك فيما بعد؛ ويبدو الريف القريب من قازان عند مشاهدته من الطائرة معتماً مع ان بعضه أو أكثره معمور وهذه هي المرة الثانية التي أقدم فيها الى هذه المدينة في الليل .

هبطت الطائرة في التاسعة و ٣٦ دقيقة بتوقيت موسكو ويساوى الثامنة و ٣٦ دقيقة بتوقيت قازان بعد طيران استمر ساعة و ٧ دقائق وليس ساعة وربعاً كما كانوا اعلنوا في الطائرة وقد كان المطار قليل الانوار الى درجة لافتة للنظر حتى النور الذي فيه ليس قويا مع ان قازان واقعة على نهر الفولقا (ايتل) الذي تولد مياهه مقادير ضخمة من الكهرباء وان لم يكن ذلك عند مروره بقازان .

بقي الركاب في مقاعدهم حتى نزلنا من الطائرة فوجدت عند سلم الطائرة عدداً من الاخوة المستقبلين على رأسهم الشيخ عبدالله صفا رئيس الادارة الدينية لجمهورية تتارستان ومعه نائبه واثنان من العاملين في الادارة؛ وقد صحبتنا مضيئة ارضية من المطار كانوا قد أخبروها بقدومنا وَحَمِلَتْ امتعتنا من الطائرة على احدى السيارات ومررنا بمبنى المطار دون ان نقف فيه وانما وجدنا سيارات عدة في انتظارنا منها سيارة رسمية بنفیرها المميز ولونها الاحمر الذي يخولها عدم الوقوف عند اشارات المرور .

في مدينة قازان:

أنزلنا الاخوة في فندق (تتارستان) اكبر فنادق المدينة وقد انزلوني في جناح (سويت) وانزلوا رفيقي كل واحد في غرفة منفردة

ولم نسأل عن الاجرة اذ سوف تدفع دار الفتوى الاجرة للفندق ونحن ندفعها لها بعد ذلك .

وقد وجدتهم وضعوا في غرفة الجلوس من الجناح الذى انا فيه صحناً كبيراً فيه الضيافة من ادارة الفندق تفاحاً من انتاج بلادهم وموزاً وبرتقالاً مستوراً لأنه لا يعيش فيها ومع ذلك شيء من البسكويت وفي ثلاثة الغرف زجاجات من الاشربة المباحة وهي الكوكاكولا والميرنדה والمياه المعدنية المشبعة بالغاز، اضافة الى النقل وهو المكسرات وهو اللوز هنا .

وهذا الفندق جيد نسبياً ولم نتمكن فيه في المرة السابقة لأنه لم تكن فيه غرف خالية آنذاك، كانت غرفنا في الطابق الثالث تطل على الميدان المهم الرئيسي في قازان، ووجدنا الأمر لم يتغير بالنسبة الى طريقة الخدمة فيه اذ كل طابق فيه عجوز روسية مسؤولة عن كل شيء فيه حتى مفاتيح الغرف اذ تتسلمها من النزول عندما يفارق الغرفة وتعيدها إليه عند عودته، واذا نسي وترك المفتاح طلبت منه ان يسلمه لها؛ وقد ودعنا الاخوة المستقبلون الكرام وعلى رأسهم الشيخ عبد الله صفا على موعد اللقاء في التاسعة من صباح غد .

وكانت الساعة قد قاربت العاشرة ولم نتعش فنزلنا الى مطعم الفندق فوجدناه مفتوحاً وفيه عدد من الناس يأكلون فطلبنا من احدى العاملات فيه ان تحضر لنا سمكاً مشوياً فقالت لا يوجد الآن عندنا شيء، تقول ذلك بغلظة وجفاء مما أثار استنكارنا وقال احد الرفيقين لمديرة على مكتب فيه : كيف تعاملون (دبلوماسيين) بهذا يشير الى الجوازين الدبلوماسيين اللذين أحمل أحدهما ويحمل رفيقى الاخ

حسن از ميرلى الآخر؛ فذكرت أن موعد العمل قد انتهى وان
العاملات لا يقبلن ان يعملن الآن ثم قالت : إننى سوف اطلب من
مدير الفندق أن يكلفهن العمل بأجر من الفندق لكم ثم ذهبت إليه
الا أنها عادت تتأسف لعدم امكان ذلك ، فصعدنا غرفنا وأكلنا مما كنا
نحمله من تمر و بسكويت وصنعنا الشاي في الغرفة ونحن نشاهد
تلفازهم الذي هو مثل تلفاز جمهورية روسيا البيضاء التي كنا فيها
قبل أيام فهو قليل القنوات وفيه قناة محلية تعرض صوراً ومشاهد
مستنكرة .

يوم الاربعاء ١٦ / ٤ / ١٤١٥ هـ

صباح قازان

أسرع الفجر بالطلوع وأيضاً الشمس بالشروق على عاداتها في
هذه البلاد الشمالية في فصل الصيف ، إذ يسمح ظل الأرض الضيق
في طرفها الشمالي بالنسبة الى ظلها الكثيف عند خط الاستواء وما
قرب منه ببقاء ضوء الشفق بعد غروب الشمس لمدة أطول من المعتادة
في بلادنا كما يسمح بتسرب ضوء الفجر قبل المدة المعتادة .
والعجيب الذي لاحظته هنا أن الفجر ظل مدة مسافراً والقمر
منيراً قبل ان تشرق الشمس .

كانت نوافذ الجناح الذي حللت فيه تطل على الميدان المهم
عندهم . . . ولذلك رأيت طوائف من المبكرين الى أعمالهم قبل أن
تطلع الشمس ، ورأيت وسائل النقل العامة من قطار الكهرباء الذي
يسير على عجلات وهو المسمى بالترموواى في مصر وبالترام في لبنان

ومن الحافلات الكهربائية وقد بكرت تحمل الناس على قلتهم في هذا الصباح المبكر؛ وهذه عادة عرفتھا عن البلاد الشيوعية، اذ كانوا يعتنون بتوفير وسائل النقل العام مثل هذه لقلّة السيارات الخاصة عند عامة الناس، مع حاجتهم الى عدم التأخير عن الحضور الى أعمالهم، وهذه الجمهورية معتبرة جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية وقد طلقت روسيا الاتحادية الشيوعية، الا ان كثيرا من العادات التي كانت موجودة إبان الشيوعية لاتزال موجودة الآن لتعود الناس عليها وعدم وجود الموظفين المدربين على غيرها، وكنت أرى أيضا من نافذة الغرفة سلماً يصعد من نفق تحت هذا الميدان الواسع يخرج منه الناس الى الميدان.

على مائدة المفتى:

في الساعة التاسعة جاءتنا سيارتان صغيرتان احدهما من صنع غربي والأخرى روسية الصنع وفي احدهما الشيخ المفتى عبدالله صفا فذهبنا لتناول طعام الافطار عنده، وذلك لعدم ثقتهم في نظافة مطعم الفندق عن الاشياء المحرمة في الإسلام حتى وإن كانت من اصل حلال كلحم البقر والدجاج إلا أنهم لا يستسيغون أكله في الفندق لكونه ذبح بطريقة غير شرعية.

كان الشيخ عبدالله صفا يقود سيارته بنفسه وانا استذكر المرة الاولى التي زرت فيها هذه المدينة ضيفاً على الادارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وكانت البلاد آنذاك قد أشرفت على عتبة الخروج من الشيوعية الا ان الاتحاد السوفيتي لازال

قائماً لم يحل بعد ورئيس البلاد هو ميخائيل قورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفييتي والأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي .

وقد كثرت المشاة في الشوارع وأهم ما يسترعي الانتباه لباس الأخوات المسلمات من المسنات اللائي يضعن المناديل البيض السابعة على رؤوسهن بغرض سترها، ومعلوم ان نسبة المسلمين في هذه الجمهورية تكاد تعادل نسبة غير المسلمين فيها من الروس والاوكرانيين والروس البيض ومن لف لفهم من يهود وغيرهم .

وكان ما استرعى انتباهي - وسيارة المفتي تخترق شوارع قازان اذ بيته بعيد عن موقع الفندق ان شوارعها ضيقة إلى جانب اوراق الخريف المبكر التي تتساقط من الاشجار عند أول حركة من الهواء؛ مع أننا في شهر سبتمبر والأعشاب الوحشية يعنى التي لم تزرع وإنما نبتت عفوا هي أقل اخضراراً ونضارة من أعشاب روسيا البيضاء، وربما كان ذلك لقلة المطر في هذه الأيام في هذه البلاد التي امطارها صيفية، واما في الشتاء فإن البديل عن المطر فيها هو الثلج الكثيف، ومرّ الطريق فوق جسر على نهر قازان احد النهرين اللذين تقع عليهما المدينة وهما نهر قازان هذا ونهر ايتل (الفولقا) .

ومما يجدر ذكره ان معنى قازان : القدر بكسر القاف واسكان الدال وقد اتضحت مياه نهر قازان كأنها لكثرتها الخليج الواسع من البحر .

وقد استمرت رؤية وسائل النقل العامة من قضبان الترام الى حبال الحافلات الكهربائية التي تسمى في مصر (الترولى باص) وقد وصلت الى الأماكن البعيدة من ضواحي المدينة ومررنا بحديقة اوراق

الاشجار فيها قد اشبهت مع ان البرد لم يحن بعد ولكن هذه عاداتها
أن تبدأ الاوراق فيها بالموت في وقت مبكر، مع أن الموسم الآن هو
موسم الأمطار وإن لم تنزل عليهم امطار منذ عدة أيام على خلاف العادة؛
ومررنا بعجوز معها فاكهة قد جلست لبيعها في هذا الشارع الذي
ليس فيه غيرها من الباعة وليس فيه حوانيت، وتجاوزنا المدينة الى
ضاحية تكاد تكون منفصلة عنها فدخلناها ولم نجد اسفلتاً الا في
شارع واحد من شوارعها وباقيها فيه حفر ومطبات بحيث لا بد
للراكب من الامساك بالسيارة الصغيرة وهي تسير فيها لئلا يتقلقل من
فوق مقعده فيها.

حي قراواى:

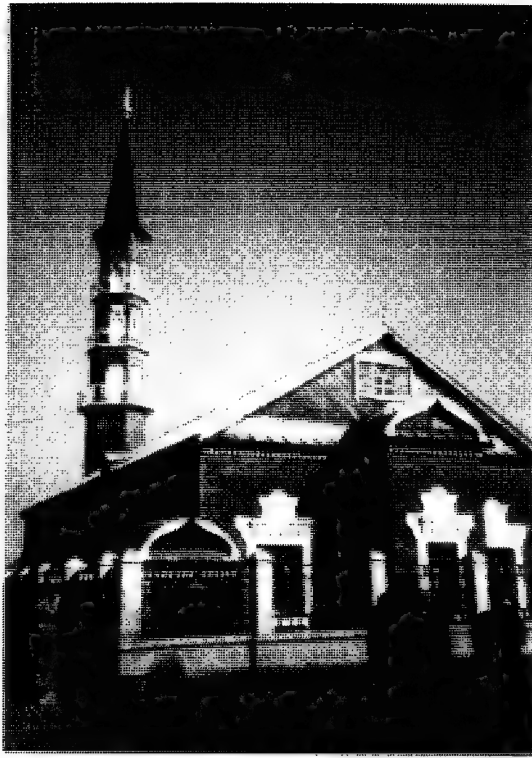
(حي قراواى) فيه بيت المفتى الشيخ عبد الله صفا وتتألف
البيوت في الحى من مساكن خشبية مطلية بما يجعلها تبدو بمظهر
البيوت الاسمنتية الى جانب بعض البيوت المبنية من الآجر والاسمنت
ولكن في داخلها ودرجاتها خشب وكلها على هيئة دارات (فيلات)
مسنمة السقوف، وجدنا المائدة في بيت الشيخ معدة عليها الطعام
وفيه الفاكهة التى هي مستوردة الا التفاح؛ ومن الفاكهة بطيخ أصفر
(شمام) مستورد من طشقند وعنب من اذربيجان وذلك لكون
بلادهم باردة لاتنمو فيها من الفاكهة المعروفة الا التفاح والكمثرى
والخوخ ولكننا لم نر الا التفاح فيها لقلة المخازن الصالحة لхран الفاكهة
عندهم، وكانت المائدة حافلة بأنواع الطعام، فكان من ذلك العسل
الجيد الخالي من الغش ومربى الفراولة الذى رأيتهم يضعون منه مقدار

ملعقة على فنجان الشاي، وقد بدأت المائدة بفاتحتها المعروفة بل المشهورة في بلاد التركستان وهي الحساء (الشوربة) الدسمة التي فيها القطع من لحم الغنم اللذيذ وقليل من الشعيرية ثم فطائر محشوة باللحم المفروم ثم الأرز البخاري الشهير ويصنعونه كثير الدسم وكان في المائدة اطعمة اخرى وسلطات وحلوى .

وقد بحثت مع الشيخ المفتى ومساعدته برنامج زيارتنا في هذه البلاد وانتهينا من رسمه، وقد حضر المائدة عدد من المشايخ منهم الشيخ نورالله بن عبيدالله من طشقند كما حضرها ابن للشيخ شاب اسمه إلياس ويدرس في معهد اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، ولكنه حضر من أجل قضاء العطلة المدرسية عند أهله، وشيخ اخر اسمه مارس بن جلال الدين ذكر انه سمي بهذا الاسم لكونه ولد في شهر مارس .

مسجد نور الاسلام:

بعد الانتهاء من ذلك خرجنا لمشاهدة مسجد جديد في الحي بدأوا بنائه قبل سنوات وأكملوه حديثا وهو مبنى مثل أغلب البيوت في الحي بالآجر الأحمر الجميل وسقفة على هيئة سنام قد طلى بطلاء جيد، ذكروا أن هذا المسجد هو اول مسجد جديد في الحي وكانوا يبنون اذا حصلت لهم تبرعات ثم يقفون الى ان أكملوه، وله منارة عالية يبلغ ارتفاعها ٣٥ مترا يعلوها شاهد ذهبي اللون، وأما المنارة فإن بناءها بالآجر الأحمر المجلل بفواصل من الآجر الأبيض، ومعنى كونه أول مسجد أنه اول مسجد جديد بنى في قازان في العقود الاخيرة



[جامع نور الإسلام في قازان]

من السنين اذ بدأوا
بناءه في عام
١٩٨٥م وبنوا الى
جهة الغرب من
المسجد مدرسة
إسلامية تتوجها
أيضاً منارة بيضاء
الطلاء يعلوها
شاهد أبيض
أيضاً، ويقع
المسجد على شارع
معظم بيوته مبنية
بالآجر الأبيض
ومسقفة بالصفيح

وهو مثل بقية شوارع الحي أرضه خالية من الزفت وحتى التشجير
الذي لا يكلفهم كثيراً هو قليل فيه .

الأخ فخر الإسلام:

حضر إلينا رئيس جمعية المسجد واسمه (فخر الإسلام بن شيخ
الإسلام) والحقيقة أنه يستحق أن يفتخر به مسلمو الحي لجدته
واجتهاده في عمارة المسجد وجمع التبرعات له على قلة الميسورين
وارباب الأموال هنا، بسبب الوضع الاقتصادي المتردى في البلاد .

حدثنا الأخ فخر الإسلام أن عدد الطلبة الذين يدرسون في المدرسة الإسلامية الملحقة بالمسجد كثير فهناك مجموعات الطلاب الذكور وهي ١٦ مجموعة المجموعة الواحدة تتألف من ٢٠ إلى ٣٠ طالباً، ومجموعة الطالبات ٦ وهي ١٤ مجموعة، وقد قسموهم هكذا من أجل مراعاة ظروفهم في الوقت، ولتنسيق العمل بين المدرسين في المدرسة، وذكروا ان في المدرسة ١٤ مدرساً يتراوح راتب المدرس ما بين ٣٥ الى ٧٠ دولاراً في الشهر، والمراد مايعادل ذلك بالعملة الروسية وهي الروبل الذي تنزل قيمته باستمرار ولذلك لا يعرف مقدار الراتب اذا ذكر بالروبل وحده .

سألت الأخ (فخر الإسلام) عن اسم والده الذي ذكر وذكر الاخوة معه أنه (شيخ الإسلام) ظانا ان ذلك لقب له وان اسمه غير اللقب، فقال : والدى اسمه (شيخ الإسلام) والافانه ليس عالماً كبيراً فضلاً عن ان يكون كبير المشايخ كما قد يفهم من لفظ (شيخ الإسلام)، وهذا الاسم مع اسمه هو (فخر الإسلام) يدل على تعلق هؤلاء الاخوة المسلمين بدينهم الإسلامي الحنيف رغم بعدهم عن الحواضر الإسلامية ورغم كيد الأعداء من المستعمرين السابقين ثم الشيوعيين الملحدون الذين تبعوهم .

وفي جولة في المدرسة ومرافق المسجد شاهدنا محلات الوضوء نظيفة جداً، وعليها لافتة باللغة العربية، نصها (إن الإسلام نظيف فتتنظفوا فإنه لايدخل الجنة الا نظيف)، ولا أدري من أين جاء كاتبو هذه اللافتة بها والنظافة المطلوب ايضاحها فإذا كان المقصود نظافة

الثوب والبدن المطلوبة في الصلاة فان هذا الكلام له وجه يفهم من الحديث ان النبي ﷺ مر على قبرين فقال : « انهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، بلى انه كبير أما احدهما فكان لا يستبرئ من بوله ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » أخرجه البخاري ومسلم .

والاستبراء من البول : التأكد من كونه لم يصب البدن او الثوب منه شئ ولم يغسل ، واصله في التأكد من انقطاع البول قبل أسدال الثياب عليه ، كما كتبوا الشهادتين (لا اله الا الله ، محمد رسول الله) على ادارة المدرسة بخط عربي جميل .

ثم دخلنا الى المصلى الرئيسى في المسجد فوجدناه واسعاً نظيفاً مفروشا ببساط موحد (موكيت) ولكن فوقه أردية من الصوف ، وذلك لشدة البرد في الشتاء مع العلم بأن أرض المسجد كلها من الخشب ، وفي واجهة المسجد زجاج ملون جميل كتبوا عليه البسملة والآية الكريمة ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

وجميع نوافذ المسجد ذات زجاج ملون بالارجواني والأزرق ، وفي آخر المسجد ماسميته بصفوف العاجزين وهي صفوف من الكراسى التي ليس لها اذرع يضعونها في المسجد حتى يصلى عليها العاجزون عن السجود وأغلبهم من المسنين الذين اصابوا بامراض في ارجلهم بحيث يصعب عليهم أن يثنوها ، وهذه الصفوف من الكراسى موجودة في مساجد جميع البلدان الباردة مما جعلنى أتساءل عما اذا كان السبب في ذلك هو البرد وحده ، لأنني لم أرها شائعة في

البلدان المعتدلة ولا في البلدان الحارة الا أنني رأيت بعد ذلك ان السبب هو البرد والعادات الغذائية لأهل المنطقة حيث اعتادوا على الاكثار من اللحوم، والاقبال من الخضروات والفاكهة لعدم توفرها في بلادهم وقد قرأت في رحلة ابن بطوطة وهو يتكلم على زيارته لهذه المنطقة في عهد السلطان محمد أوزبك ان النقرس وهو داء المفاصل الذى يصيب أول ما يصيب أصابع القدمين شائع في تلك البلاد وكان يسمى داء الملوك وذلك لكون الملوك في الزمن القديم يكثرون من أكل اللحوم لقدرتهم على ذلك، مع عدم معرفتهم بما يسببه الاكثار منها من ضرر وعدم فهمهم للفائدة الغذائية في تناول الفاكهة والخضروات .

وقد خصصوا قسماً واحداً من مؤخرة المسجد للنساء يصلين فيه .



الشارع الذي يقع عليه مسجد نور الإسلام في حي سيفرني في قازان]

وفي داخل المسجد الدوائر التي اعتاد الاتراك على وضعها في مساجدهم يكتبون في دائرة منها اسم الجلالة (الله) ثم (محمد) ثم (ابوبكر) ثم (عمر) الى اخر الخلفاء الراشدين او آخر العشرة المشهود لهم بالجنة، وذلك منهم من أجل إظهار أنهم من أهل السنة، وأنهم يخالفون الرافضة الذين يسبون صحابة رسول الله ﷺ؛ ولكنهم زادوا في هذا المسجد بأن كتبوا اسماء مشاهير الانبياء والرسل مثل إبراهيم وموسى وهارون ولوط واسماعيل عليهم السلام.

في المدرسة الإسلامية:

عدنا بعد الاطلاع على المسجد الى المدرسة لنرى فصول الدراسة فيها العامرة بالطلبة لأننا لم نمر بها من قبل فنزلنا الى طابق اسفل في المصلى فوجدنا فيه فصولاً دراسية واسعة فيها فتيات اعمارهن ما بين الثالثة عشرة الى الخامسة والعشرين، وكلهن قد لبسن لباساً إسلامياً ساتراً، وعلى وجوهن اشراق وصفاء لا يوجد في وجوه الكافرات، ومن المفرح أننا نرى السبورة عليها كتابة بالعربية وتفسيرها باللغة التتارية ولكن بحروف عربية على خلاف ماتسير عليه الأمور رسمياً في البلاد، حيث يكتبون اللغة التتارية بالحروف السيريلية المسماة بالحروف الروسية وهي حروف سلافية مخالفة للحروف اللاتينية التي تكتب بها سائر اللغات الأوروبية المعروفة كالانجليزية والفرنسية والاطالية، وقد أمتلأ المكان بالطالبات من بنات المسلمين في جو ذي مظهر إسلامي مفرح مما جعلني أكثر اسئلتني عن عدد الطلبة والطالبات الذين يوجدون في هذه المدرسة لأنها كبيرة متعددة

الفصول، وقد اجابني مديرها بأن عددهم يزيد على (٨٠٠) بقليل .

واطلعنا ايضا على بعض الفصول الدراسية الأخرى ثم انتقلنا الى طابق ثالث فوق المدرسة فرأينا قاعة واسعة فيها فصل دراسي كبير، ولكن في جانب منه كراس موضوع بعضها فوق بعض أخبرونا أن هذه القاعة تستعمل للافطار في شهر رمضان حيث يحضر الناس طعامهم من بيوتهم فيفطرون هنا هم والفقراء والغرباء الذين يحضرون للصلاة .

واخيراً جلسنا في مكتب ادارة الجمعية التي تشرف على المسجد والمدرسة فرأينا المحاسبة وهي مسنة اسمها : زينب ناصر، وذلك على جارى العادة التي عرفناها من الجمعيات الإسلامية التتارية. حيث تكون للنساء في النشاط الإسلامي نصيب مثل نصيب الرجال، أو أكثر، وذكرت في ذهني بهذه المناسبة ماشهدناه في مدينة (غدانسك) المعروفة في بولندا حيث المسلمون كلهم من اصول تتارية ويراس الجمعية الإسلامية امرأة هي الدكتورة (جميلة نورمان) كما كان عدد الحاضرين المسلمين في الجمعية عندما زرناها من النساء اكثر من الرجال .

هذا وقد اعلنّا لهم تبرع الرابطة بألفى دولار أمريكية سلمناها لهم فوراً لهذا المشروع الجليل، والحقيقة أن هذا المبلغ هو قليل بل ضئيل بالنسبة للحالة المالية في بلادنا ولكنه يعتبر عندهم كبيراً بسبب سقوط عملتهم الروبل وكونهم يشترون معظم الأشياء بها كما يدفعون اجور العمال بها أيضاً .

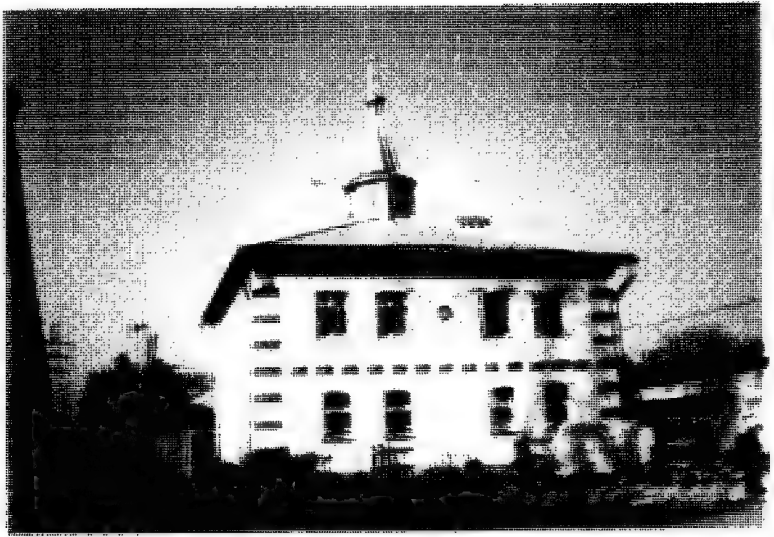
الى مسجد آخر:

تركنا مسجد نور الإسلام ورئيس جمعيته : فخر الإسلام بن شيخ الإسلام - ولم نترك نور الإسلام الحق إن شاء الله - ذاهبين إلى خارج المدينة مارين بضاحية تكثر فيها الأشجار العالية وتكثر الأسوار الخشبية على الأماكن فيها والمراد بذلك ان يكون السور مؤلفا من أعواد خشبية متراسة واقفة، واهم ما يميز الضاحية التي مررنا بها انها غير منسقة وكثير من شوارعها غير مزفتة، مع العلم بأن جمهورية (تتارستان) هذه تنتج مقادير مهمة من النفط .

مسجد رمضان:

وصلنا مسجد رمضان في حي يسمى (حى كيروف) على اسم احد الشيوعيين السابقين، ويقع المسجد في أطراف الحي هذا، بحيث يرى كأنما هو في منطقة ريفية، لأن المنازل فيه غير متراسة وتكثر البقع غير المبنية فيه، ومن ذلك منطقة خالية الا من بيوت خشبية من طابق واحد لسكنى بعض العسكريين .

أول ما يراه المرء من المسجد منارته الجميلة التي بنوها على هيئة صومعة مربعة مثلما كان أهل الأندلس يبنون المآذن في مساجدهم مربعة يكون أسفلها أعلى من أعلاها ويسمونها صومعة وليست كالمآذن المألوفة في منطقة الشمال المسلم وفي بلادنا من كونها تكون مستديرة . والمسجد مكسو بالآجر الأحمر الجميل والإ فإن بناءه من الاسمنت المسلح القوي .



[مسجد رمضان في حي كيروف في قازان]

وجدنا في الاستقبال عدداً من الاخوة المسلمين المسؤولين عن المسجد على رأسهم الأخ (رستم بن أسعد الله) رئيس جمعية المسجد ويسمونه المشرف على المسجد؛ وقد ذكروا ان المسجد فتح للصلاة قبل شهرين مع أنه لم يكتمل، ولكنهم بحاجة إلى الصلاة فيه، ووقف العمل فيه بسبب قصور النفقة، فقد رأينا الطابق الأرضي منه كله بدون بلاط، اذ لم يستطيعوا تبليطه، ويسعون الى ذلك كما ان بعض الملحقات فيه لاتزال بحاجة الى اكمال.

وللمصلي الرئيس مدخلان يصعد اليه منهما على درج لاتزال الان بحاجة الى تبليط والمصلي جيد السعة، ذكروا ان عدد المصلين صلاة الجمعة ما بين ١٣٠ الى ١٥٠ مصليا، رغم كون المسجد فتح حديثا، وأرض المسجد منحت من الحكومة مساحتها خمسة آلاف

متر مربع، وقد بنوا بجانب المسجد مدرسة جديدة البناء وهذا أمر جيد في هذه البلاد أن يبنوا بجانب المسجد الجديد مدرسة إسلامية لتثقيف أبناء المسلمين ثقافة إسلامية وقد بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في مدرسة هذا المسجد ٨٢ طالبا في فصلين اثنين، وخصصوا قسماً منها لتدريس النساء.

ومظهر المسجد كما قلت-جميل مهيب، بحيث يجزم من عاش مثلنا في بلاد تتولى حكومتها أكثر المشروعات الإسلامية أن ثمة حكومة قوية قامت على بنائه، مع أن النفقة عليه كلها من تبرعات الأخوة المسلمين في تارستان وبعض المؤسسات الخاصة على قلتها، وضعف إمكاناتها ولم ترد إليهم أية مساعدات من الخارج، ولا شك أن السبب في ذلك هو عدم معرفتهم بكيفية الاتصال بالأخوة المسلمين في البلدان العربية، وإلا لو كانوا فعلوا لجاءتهم المساعدة لأنني أعرف أن رابطة العالم الإسلامي تحرص على المساعدة في بناء المساجد في البلدان المحتاجة إلى ذلك ومنها هذه البلاد.

وبما أن هدفنا من الزيارة المساعدة على إتمام بناء هذا المسجد وأمثاله ومعرفة النشاط المالي في بنائه فقد أعطيناهم ثلاثة آلاف دولار أمريكية تبرعاً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي وطلبنا منهم إذا انفقوها، ولم يجدوا غيرها ينفقون منه على إكمال المسجد أن يكتبوا إلينا بواسطة المفتي الشيخ عبد الله صفا للنظر في أمر إرسال مساعدة مجزية لهم، ودفعنا المبلغ بحضور المسؤولين عن المسجد والمدرسة وحضور رئيس الإدارة الدينية في تارستان إلى المسؤول المالي وهو

شيخ مسن اسمه (مَنْ الله بن هدية الله) وهو من جنود الله المجهولين للناس المعلومين لرب العالمين، اذ رأيناه يعمل في مكتب صغير لايزيد على مترين في مترين قد شغل سريره جزءاً منه لانه ينام هنا أيضاً فهو لايفارق المكان والعمل في المسجد وللمسجد يستغرق كل وقته وكل جهده .

ومن الأشياء المؤثرة أن رجلاً مسناً دخل المسجد وهو يرتعش من الكبر ومعه نقود قد وضعها في ورقة وسلمها للمسؤول المالي وقال إنه جمعها من الناس، مع انه مريض هرم يرتعش جسمه ويبلغ من العمر ٨٨ سنة وذلك يساوي بتاريخنا الهجري ٩٠ سنة واشهرأ، واسمه: (فاتح بن مصطفى) وشخص آخر اسمه (فخر الدين) ولقد عجبت من اسمائهم التي هي أسماء إسلامية قديمة ولكنها صحيحة المعنى جيدة التركيب، مما يدل على ان القوم يحبون المحافظة على المظاهر الإسلامية القديمة وانهم يشعرون بان الإسلام هو الذي يميز شخصيتهم وهو مصدر فخرهم واعتزازهم على الدهر، وهم على حالة من التقشف في العيش، فضلا عن المستوى المتدني للملابس، بحيث أن اكثرها يعتبر لباس الفقراء، واكثرها لباس المتوسطين وان لم يصل ذلك الى لبس الملابس المهلهلة ولكن ذلك يتجلى في ملابس النساء التي يعتنين بها في العادة بل يتغالين فيها .

ولاشك في ان مرجع ذلك الى الحالة الاقتصادية السيئة التي تتخبط فيها جمهورية روسيا الاتحادية بعد أن تركت الشيوعية، ولم تصل بعد الى الاستفادة من نظام السوق الحر على مستوى الشعب،

فقد استفاد من الحرية الاقتصادية - مع كثرة سكانها - أقلية من أهلها دون أكثرهم، وماتزال حكومتها تسيطر عليها طوائف من الموظفين من غير ذوي الخبرة في الإدارة، وحتى ذوو الخبرة في الإدارة لا يستطيعون أن يعملوا بما يعرفون لأن الانتهازيين والمتنفعين من هذا الوضع المتردي لا يتركون لهم المجال في ذلك وما يزال الشعب غير قادر على معرفة كيفية محاسبتهم، بل إنهم كثير من أفراد الشعب والمسؤولين هو تثبيت الانتهاء من الشيوعية، وعدم العودة إليها.

ومررنا بالإدارة الدينية لجمهورية تتارستان والمراد بالدين هنا الدين الإسلامي وحده لأن هذه الإدارة معنية بشؤون المسلمين وحدهم وهي التي نزورها ونتعاون معها ورئيسها هو صديقنا ومرافقنا الشيخ عبد الله صفا، وإلا فإن في هذه الجمهورية طوائف أخرى غير المسلمين مع أنها في الأصل كانت بلاد مسلمة خالصة للمسلمين.

ويبلغ تعداد المسلمين فيها نحو ٤٨٪ إذ هجر الروس إليها منذ استيلائهم عليها قبل اربعمئة سنة أعداداً كبيرة من غير المسلمين من الروس والأكرانيين والروس البيض وأكثرهم من السلافيين ومن غير السلافيين، بل إنه قيل لنا إن السكان من غير المسلمين قد تفوق نسبتهم في هذه المدينة المسلمة نسبة المسلمين وقد صارت لهم الاغلبية العددية على المسلمين فزادوا فيها على خمسين بالمائة ولكن الاخوة المسلمين من سكان القرى والأرياف أكثر.

وقد وجدت حكومة الجمهورية وهي حكومة اسمية او مظهرية عندما كانت البلاد تعتنق الشيوعية في عهد الاتحاد السوفيتي وكانت

جزءاً منه وهي قائمة على غير أساس ديني وإنما على أساس العقيدة الشيوعية لا تريد ولا تستطيع حتى لو أرادت أن تقول شيئاً أو تفعله في هذا الصدد لأن الأخوة بين الشيوعيين هي بزعمهم أعلى من أخوة النسب أو الجنس، وعندما سقطت الشيوعية، وسرت الروح الوطنية في الحكام وجدوا أنفسهم في ورطة سكانية كبيرة، إذ كيف يخلصون من نصف السكان الذين هم الروس تؤيدهم الحكومة الروسية التي تهيمن على البلاد، ولم تستطع هذه الحكومة التتارية الوطنية إلا بأن تسهل الإقامة للتتاريين الذين يعيشون في سائر أنحاء الاتحاد السوفيتي إذا أرادوا ذلك، لأن الشعب التتاري عانى أكثر مما عانى أى شعب مسلم ابتلى بالسيطرة الشيوعية على بلاده وعلى مقدراته فقد تشتتوا في أنحاء الاتحاد السوفيتي وتبعثروا على هيئة جماعات صغيرة إضافة إلى من هاجروا منهم إلى البلدان القريبة من شيوعية وغيرها، ومن هؤلاء التتار من نفوا نقياً جماعياً إلى مجاهل سيبيريا وسهول آسيا الوسطى مثل تار القرم الذين نفاهم الشيوعيون على عهد (ستالين) طاغية الشيوعية السابق وقد ذكرت ذلك مفصلاً في كتابي : « بلاد القرم ».

مسجد نور الله:

كان مرورنا بالإدارة الدينية من أجل الاطلاع على مسجد كان قد سقط في قبضة الشيوعية فدمرته ثم استعاده المسلمون وصاروا يجمعون المال لإصلاحه، بل بدأوا في ذلك، وقد دفعت لهم بعض المساعدة في ذلك الوقت، وصاروا يواصلون العمل على إصلاحه،

حتى كاد يكتمل وبخاصة أعلاه وجعلت الإدار الدينية مقرها فى جزء
من الطابق الارضى فيه واسموه (مسجد نور الله)، ولا ادري ما اذا
كانت تسميته هذه قديمة أم مستأنفة.

كان أول ما استرعى انتباهنا ونحن نصل المسجد أن راينا رجلاً
يبيع كتباً على عربة ولديه زحام من الناس من المشتريين والمطلعين وهي
باللغة التتارية ذات الحروف الروسية أو بالروسية نفسها ومع الكتب
مصاحف كريمة يشتريها الناس وان كانوا لا يستطيعون قراءة القرآن
الكريم ولو قرأوه لما استطاعوا فهم معانيه، ولكنهم يشترونه محبة في
القرآن الكريم وتبركا بوجود المصاحف لديهم وأملأ فى ان يتمكنوا هم
أو اولادهم من تعلم العربية وفهم القرآن الكريم فى المستقبل، واللافت
للنظر ان المزدحمين على هذه المطبوعات الإسلامية هم من سائر
الاعمار ورأيتهم يشترون من الرجل؛ فقلت فى نفسي: إن الواجب
يقتضي ان نيسر الكتاب الإسلامى مع ترجمة معاني القرآن الكريم
باللغة التتارية وباللغة الروسية لمن يرغب الاطلاع عليها من المسلمين
وغيرهم فى هذه البلاد لان غير المسلمين يحتاجون الى من يصحح فى
اذهانهم المفهوم الخاطئ عن القرآن الكريم وعن الإسلام بصفة عامة،
فقد شوهت صورة الإسلام فى اذهانهم نتيجة للتعصب الصليبي أيام
حكم القياصرة الروس الطويل على هذه البلاد ثم تعصب الشيوعيين
ضد الدين ذلك التعصب القائم على الالحاد.

صعدنا الى الطابق الثانى من المسجد حيث تقام صلاة الظهر
فصعدنا مع درج طويلة وعالية حيث رأينا المسجد قد أكتمل بناؤه
فى هذا الطابق على غاية من الجمال والاناقة، حتى إنهم طلوا أكثر

الأشياء فيه باللون الذهبي كالثريات الكبيرة والنوافذ التي جعلوا زجاجها ملوناً بديعاً.

جولة فى قازان :

سبقت لي رؤية مدينة قازان، ومع ذلك لم اكتف بتلك الرؤية لأنها لم تشمل المدينة كلها إضافة الى أنها قد مضت عليها قرابة خمس سنين، اذ كانت في عام ١٤١٠هـ.

كان الجو شامساً دفيئاً يغري بالحولة ولذلك بدأنا السير بوقفة على جسر تقع مياه نهر إيتل (الفولقا) على يمينه ونهر قازان على يساره وتأملت هذا البحر الخضم من المياه العذبة التي لا يحتاجونها فى أغلب الاوقات لكون الامطار تسقط عليهم غزيرة ثابتة الموعد فى الصيف، كما تتساقط الثلوج عليهم باستمرار فى فصل الشتاء فقلت : سبحان الله الذي اعطاهم ولكنهم ذكروا لي ان الثلج يستمر سقوطه لاشهر متطاولة حتى يكادوا ينسون شهور الصيف حيث تعقم فيه ارضهم عن الانتاج، بحيث لايجدون ما يقتاتون به هم وانعامهم إلا ماخزنوه مما زرعه او حصلوه منها فى وقت الصيف من ثمار وأعشاب، لذلك قلت : إن الذي غبطهم على الأول لاشك فى انه سوف يرثي لهم للثاني وقد اخبرونا بهذه المناسبة بان الامطار جاءتهم غزيرة فى هذا العام ويلتقي نهر قازان وايتل فى هذه المنطقة عند المدينة .

ونظراً الى كونى قد وصفت مشاهدتي عند زيارتى لمدينة قازان فى المرة السابقة في كتابي « الرحلة الروسية » فاننى لن أذكر هنا الا

ما رأيتَه جديداً او ما لم يذكر في السابق .

ولم نطل التجوال في المدينة وانما عدنا الى وسطها حيث يكثُر المشاه من المارة في شوارعها فلا يتخيل المرء وهو يراهم إلا أنه في بلاد أوروبية، وذلك لكون القوم ذوى مظاهر اوروبية من البياض الناصع والشعر الأشقر، بل ربما كان الشعر الأشقر في هذه البلاد اكثر مما يراه المرء في باريس مثلاً، ولكن الفرق واضح اذا تأمل المرء في مظاهرهم ميز الفرق بينهم وبين الأوروبيين من ناحية الصحة والنظارة، ومن حالة الغذاء التي يلمحها المرء على الوجوه فالقوم هنا تظهر على بعضهم علامات نقص التغذية .

وقد ادركنا الامام قبيل اقامة الصلاة واسمه (محمد صادق)، وهو مبعوث من ادارة الشؤون الدينية في تركيا لامامة المسلمين في هذا المسجد، ويعرف اللغة العربية معرفة لا بأس بها، وقد أدى الصلاة معنا ١٦ شخصاً إضافة الى عددنا نحن مع مرافقينا الأربعة وهذا عدد لا بأس به بالنسبة الى كون صلاة الظهر تقع في وقت العمل الرسمي؛ ومن المفرح ان نصف المصلين من الشبان الذين لم يكتمل الشعر في وجوههم بعد إذ كان اداء الصلاة مقصوراً في السابق - اى في زمن العهد الشيوعي - على كبار المسنين المتقاعدين .

وبعد الصلاة تجولنا في المسجد الذي يعتبر تحفة من التحف رغم الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها البلاد من الناحية الاقتصادية كما سبقت الاشارة الى ذلك، ثم نزلنا بعد الصلاة الى الطابق الارضى في المسجد الذي لا يزال العمل يجرى في اصلاحه، وفي جزء

منه قد تم اصلاحه تقع مكاتب الادارة الدينية، وفي اجزاء أخرى مدرسة للنساء ومحلات واسعة للوضوء منها قسم منفصل تماما عن قسم الرجال حتى في الدخول والخروج اليه مخصص للنساء دون الرجال، ومخازن للكتب راينا فيها مقادير كبيرة من كتب تعليم العربية لغير العرب مرسله اليهم من مصر وذكر لنا الشيخ المفتى عبد الله صفا انهم يوزعون منها على الناس في هذه البلاد ويخصون بذلك في المقام الأول المدارس وجمعيات المساجد، وان بعض الاخوة يشترونها شراء اذا لم يحصلوا عليها بالمجان؛ قال: وحتى بعض المدارس الحكومية نرسل لهم نسخاً منها ولا ادري كيف يكون ذلك اذا كانت تلك المدارس لا تعلم العربية.

في الإدارة الدينية:

ومما سرنني اني رايت في الادارة الدينية آلات مكتبية حديثة وهي آلة تصوير الأوراق واخرى للحاسب الآلي وآله كاتبة عربية واخرى روسية فقال الشيخ المفتى وهو يشير اليها: هذه كلها منكم فتذكرت اننا كنا قد ارسلناها اليهم ماعدا الآلة الكاتبة الروسية فانهم اشتروها من هنا بمبلغ مرسل من الرابطة، وقالوا واعادوا القول: ان هذه الآلات الحديثة لم تحظ بها اكثر الجهات الحكومية في البلاد، ولذلك كان وجودها لدى الادارة الدينية مزية ظاهرة؛ قالوا لنا ذلك اثناء تجوالنا على مكاتب الادارة الدينية في الطابق الارضي من هذا المسجد الجميل.

ثم جلسنا في الادارة الدينية نتذاكر احوال المسلمين في هذه

البلاد فكان مما استرعى انتباهنا بالاضافة الى الترميم الجيد في هذه المكاتب غرفة لتعليم اللغة العربية عن طريق المشافهة ومكتبة صغيرة في الادارة فيها كتب عربية وتتارية بالحروف الروسية والحروف العربية وكتب أخرى في الروسية، وفيها مصحف حديث الطباعة كتب عليه بالعربية : (طبع هذا القرآن المجيد من اصل المصحف الشريف المطبوع بقازان سنة ١٩١٣م) . وفي هذا التاريخ لم تكن الشيوعية قد بسطت سلطانها على البلاد اعنى عام ١٩١٣م ، وقاموس عربي روسي في مجلدين وكتاب (معلم ثاني) لتعليم العربية ايضا ، وذكروا لنا ان المشكلة التي تواجههم فيما يتعلق بالكتب الإسلامية ليس عدم إقبال الناس عليها وانما غلاء اثمانها بالنسبة الى امكاناتهم المالية اذ عليهم ان يشتروها لطلاب المدارس والفصول الإسلامية الذين لا يستطيعون شراءها بأنفسهم .

المسجد الأزرق:

غادرنا وسط المدينة القديم حيث مسجد (نور الله) الذي يقع على شارع رئيسى في هذا القسم من المدينة اسمه شارع كيروف ، ذاهبين الى المسجد الأزرق فسلطنا شارعا رئيسيا واسعا اسمه (شارع تارستان) تقع عليه أبنية عالية أغلبها مما اسميتها بالعمارات الشيوعية ان صح التعبير لانها الابنية العالية التى تبنيها الحكومات الشيوعية شققاً سكنية صغيرة من اجل إسكان الناس فيها بأجور رخيصة تتماشى مع دخولهم المتدنية إبان العهد الشيوعي ، وذلك لكون الحكومة هي الجهة الوحيدة المرخص لها ببناء المساكن ، فلم يكن

الناس باستطاعتهم ان يبنوا لهم مساكن بأنفسهم وحتى لو استطاعوا ذلك فان الحكومة لا ترخص لهم به؛ لذلك تبني مثل هذ الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق في ضواحي المدن .

ووقفنا عند (المسجد الأزرق) وبلغتهم (هو زنقر مسجد) لهذا المعنى ، وهو مسجد قديم ، بل مركز إسلامي تليد يضم مساحة واسعة تجعله أشبه مايكون بالمجمع السكني المتكامل ، فقد بني فيما بين عام (١٨٠٠ ، ١٨١٢ م) اي ان بناءه قد استغرق اثنتي عشرة سنة ولذلك صادره الشيوعيون وشغلوه مع مرافقه بأشياء لهم ، اما المسجد بمعنى المصلى الرئيسى فقد حولوه الى مصنع ، وبذلك اسأوا اليه اكثر من الاساءة الى الابنية الأخرى التي تتبعه فقد حولوه الى طابقين بأن جعلوا فيه سقفا إضافيا لأن المسجد في أصل بنائه مرتفع كالعادة في بناء المساجد القديمة وغيرها من الأبنية المعتنى بها التى تعد لدخول أعداد كبيرة من الناس كالقصور .

وقد حاول المسلمون استرجاعه من السلطات بالطريقة المعتادة فلم يستطيعوا ذلك فعمدوا الى طريقة أخرى وهي أنهم عملوا تجمعاً كبيراً من المسلمين واخذوا يتظاهرون أمام المسجد مطالبين باعادته مسجداً ومنعوا العمال من الدخول للعمل فيه ، فاضطرت السلطات الى اعادته للمسلمين وذلك في أول ديسمبر من عام ١٩٩٣م ثم استعادوا مبنى آخر ملحقاً بالمسجد في فبراير عام ١٩٩٤م ، غير أن الأجزاء الأخرى او المنشآت الملحقة به وان كانت منفصلة عنه فان بعضها لا تزال بيد الحكومة ولم تعد للمسلمين ويقولون إنهم واثقون

أنهم يستطيعون أن يسترجعوها غير ان المشكلة التي تواجههم هي إيجاد الأموال اللازمة لترميمها لأنها صارت في حالة سيئة يستدعي اصلاحها وجعلها صالحة للاستعمال الحصول على أموال ضخمة، وهم الآن يعملون في اصلاح المسجد .

وتتألف المرفقات المذكورة من مدرستين كبيرتين؛ اي مبنين لمدرسة ومنزل للإمام وارض واسعة جدا ملحقة بهذه المرافق وبيت آخر ولكل هذه الأبنية الى جانب الأرض صارت الآن ثمينة تساوى مبالغ كبيرة من المال، لأن موقعها في وسط المدينة القديم الجيد في حي يسمى (حي التتار)؛ كما يقع مقابلا للمسجد مبنى كبير وسط فناء واسع كان مدرسة إسلامية ايضا ولكن الحكومة جعلته مقرا لاحدى المدارس الحكومية ولايزال كذلك .

وقد تجولنا في المسجد وفي هذه المرافق كلها ورأينا بيت الإمام لايزال مشغولا بأربع أسر يعجب المرء من استطاعتها البقاء فيه، مع أنه مبنى قديم ولكن هذه هي حال الناس في البلدان الشيوعية : أن يكونوا معدمين، بحيث يريدون الحصول على اي سكن لهم ولأسرهم ولو كان ضيقا او غير ملائم، ولكونهم ليست لديهم وسيلة للحصول على سكن آخر؛ قال الاخوة المرافقون : المشكلة الآن أن هؤلاء الساكنين في بيت الامام يقولون لنا إننا مستعدون للخروج اذا وفرتم لنا مسكنا غيره وان الحكومة ايضا تقول : إنه لا مانع لديها من اخراجهم الاكونها لاتجد لهم مساكن بديلة، وهذا من اعجب العجب الا تستطيع حكومة من الحكومات توفير هذا العدد القليل من المساكن لشعبها .

وكنا قد رأينا حالات مماثلة في البلدان الشيوعية السابقة في روسيا الاتحادية وغيرها من ذلك بلاد القرم التي لاتمانع حكومتها في اعادة جميع المساجد التي صادرها الشيوعيون الى المسلمين ولكن شرط ان توجد لمن يشغلونها مساكن غيرها، ولكنها حكومة ضعيفة عديمة الامكانيات حتى ان المسلمين يعترفون بذلك؛ والأسر التي تسكن في بيت الإمام مختلطة بعضها من المسلمين وبعضها من غيرهم .

ومن اللطيف في هذا الأمر أنه يوجد مكان خال في أسفل بيت الإمام حولته زوجة الامام الى مدرسة اي كُتّاب تدرس فيه البنات الصغيرات مبادئ الدين الإسلامي .

والحي الذي يقع فيه المسجد يسمى (حى التتار) كما أسلفت، وكان بقاء التتار فيه اجبارياً في القديم حيث كانت السلطات الحاكمة لاتسمح لهم بالسكن في الحى الروسى، أما الآن فإن الأمر قد تغير وصار سكان الحى مختلطين من الروس والمسلمين الذين يقصد بهم هنا التتار .

الشمس والقمر في المسجد :

ولو كان المراد بالشمس المشرقة التي لاشمس غيرها لما احتاج الأمر الى هذا العنوان، ولكن المراد به امرأة مسلمة مسنة تبلغ من العمر ٨٩ سنة بالتقويم الميلادي الشمسى ويساوى ذلك اكثر قليلا من احدى وتسعين سنة بتقويمنا العربي القمري، رأيناها ونحن نتجول

على المنازل التي اقيمت على فناء المسجد وهي احد عشر مسكناً فيها ١١ أسرة الا مسكناً صغيراً من الخشب ليس فيه الا إمراة واحدة، خرجت الينا فاذا بها عجوز مسنة ومع ذلك لا بأس بمنظرها لولا أنها ترتعش اذا سارت، او وقفت، قلت : اسألوها عن الذي سوغ لها ان تسكن في ارض المسجد بدون رضا المسلمين؟ فأجابت : انها تسكن هنا منذ (٢٥) سنة وانها تريد ان تنتقل منه، ولكنها لا تجد مكانا آخر تسكن فيه، وقالت إن أمنيتها ان تنتقل من هذا المكان قبل أن تموت لأنها تعلم انه لايجوز لها البقاء فيه لأنه مسجد معد للصلاة وليس للسكن.

وذكرت ان اسمها (شمس قمر بنت زاهد الله) وهذا هو سبب هذا العنوان ولو كان العنوان : الشمس والقمر تغتصب المسجد لكان له وجه، وذكرت انها مسلمة بنت مسلمين وأنها تصلى، وأنه ليس لها من الأقارب الا ابنة واحدة تحضر لها الطعام ولكن لها حفيد واحد .

وقد وعظتها في انه ينبغي لها ان تترك المكان حتى يقتدى بها الآخرون، ولكون ذلك يساعد على أن يستفيد المسلمون من هذا المسجد فيصبح عامراً بالمصلين يذكر فيه اسم الله، بعد ان كان الشيوعيون لا يذكرون فيه إلا اسم لينين وستالين، وقد وعدت بذلك ودعت لنا بالتوفيق .

وَجَلَّنا على مساكن أخرى مبنية في فناء المسجد بالآجر ولا تزال مسكونة ذكر الأخوة والمرافقون وهم من المسؤولين في الإدارة الدينية التي هي مختصة بمثل هذه الأمور أنهم وعدوا بالانتقال في عام

١٩٩٥م بالاتفاق مع الحكومة التي ستبحث لهم عن مساكن .

وقد خرج بالفعل بعض السكان وهدمت الغرف التي كانوا بنوها في فناء المسجد هدمها المسؤولون القائمون على اصلاح المسجد .

أما منارة المسجد فقد هدم الشيوعيون أعلاها حتى يمحو أي أثر باق يدل على أن المكان كان في وقت ما مسجداً ولكن ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) [الصف] فقد عقد الأخوة القائمون على المسجد العزم على إعادة بناء المنارة وانجزوا الرسوم اللازمة لذلك الا انهم يقولون : إن اصلاح المسجد نفسه أولى بأن يقدم على اصلاح المنارة .

اما المدرستان فان احدهما مبنية بناء قويا ومطلية بطلاء اصفر مزين بأبيض وهي الأحدث بناء من المدرستين وذلك أنها مبنية بالاسمنت او بالحجارة أو الآجر، اما الأخرى وهي القديمة فانها مبنية على طراز البناء القديم عندهم وهو البناء بالخشب نظراً لوفرة الاخشاب عندهم لكونه من إنتاج بلادهم ولكونه - أيضا - يتحمل البرودة الشديدة اكثر من الحجارة والاسمنت بمعنى انه لا يوصل البرودة الى داخل المنزل كما تفعل الحجارة والاسمنت .

ويقع المسجد ومنشآته على شارعين احدهما اسمه (شارع ناريان) وهو الشرقي والثاني (شارع كريم حسن) وهو الشمالي ، وقد التقطنا صوراً تذكارية في هذين الشارعين بعد أن رأينا المنشآت التابعة للمسجد من الاتجاهين .

وقد تيقنت بذلك مما قلته من قبل من أن الأخوة المسلمين

القدماء من اهل هذه البلاد الشمالية يجعلون مساجدهم بمثابة المراكز الإسلامية التي تشتمل على المدارس والمرافق والمؤسسات الإسلامية الأخرى، مثلهم في ذلك مثل اخوانهم المسلمين في البلدان الشرقية من تركستان الى الصين، وقد شاهدت ذلك ووصفته في كتيبتي التي ألفتها عن تلك المناطق؛ وقلت للإخوة المرافقين وفيهم المسؤول مباشرة عن إعمار ماتسلموه من المسجد وتوابعه: إن فخامة هذه المباني يجعل من إعادة عمارتها عبئاً مالياً كبيراً عليكم فقال: هذا هو الواقع وقد شعرنا به فأعلننا في الأذاعة والتلفاز اننا نحتاج الى تبرعات كبيرة قال: ولكن النتيجة ليست على قدر ما أردناه فقد تلقينا تبرعات غير كافية ونحن لا نلوم الناس لان الظروف الاقتصادية والمالية لهم ليست على مايرام.

فقلت له: إنه ينبغي لكم ان تعلنوا في العالم الإسلامي ذلك او على الأقل أن تكتبوا الى الجهات والمؤسسات الإسلامية التي تُعنى بأمور الاخوة المسلمين في الخارج لمساعدتكم، فنحن في رابطة العالم الإسلامي - على سبيل المثال - لم نعرف أي شئ عن الموضوع قبل أن نراه والا لكننا نظرنا في صرف مساعدة جيدة من الرابطة وكتبنا لأهل الخير والمتبرعين للمؤسسات الإسلامية في بلادنا للإسهام فيه.

ثم صعدنا مع سلم خشبي مخصص للعمال الى المصلى الرئيسي في المسجد في الطابق الثاني أي الذي فوق الارضي فوجدنا المسجد واسعاً مؤلفاً من ثلاثة اقسام كل قسم بعد الآخر اذا بدأ المرء من عند المحراب، وكل قسم مفصول عن الآخر بجدار وباب واسع على

عادتهم في ذلك فمثلاً جامع المرجانية وهو الكبير العامر منذ سنوات في المدينة هو كذلك مؤلف من ثلاثة أقسام يدخل من أحدها على الآخر، وقد رأيناهم يصلحون المسجد الأزرق هذا إلا أنهم تركوا العمل فيه قبل ثلاثة أيام لعدم وجود النفقة، أما الطابق الأسفل أو الأرضي الذي يقع تحت المصلى الرئيسي فإن فيه مرافق المسجد من محلات الدفء وغرف أخرى، وقد دفعنا لهم تبرعاً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي ليصلوا به ما انقطع من العمل بسبب قصور النفقة مع وعد صادق -إن شاء الله- بأنهم إن احتاجوا إلى زيادة مساعدة وكتبوا لنا بوساطة أخيها المفتي رئيس الإدارة الدينية فإننا سوف نرسل لهم تبرعاً مجزياً، إن شاء الله تعالى .

حي باو من:

عدنا مرة ثانية إلى المرور بشارع تيارستان الواسع، حتى وصلنا إلى حي اسمه (باو من) ذكروا أنه سمي على اسم أحد عتاة الشيوعية من رفقاء لينين واسمه (باو من رايون) وهو يهودي و (الكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل) كما يقال في المثل القديم، ولا أدري لم يبقى أهل هذه المدينة على أسماء الطغاة من الشيوعيين الذين اذاقوهم عذاب الدنيا مع أن أكثر المدن التي كانت شيوعية قد غيرت تلك الأسماء حتى الذين تربطهم بهم رابطة قومية .

جامع اسكي طاش

والهدف من الذهاب إلى هذا الحي هو رؤية مسجد هناك اسمه

(جامع اسكي طاش) بمعنى الحجر القديم لأن (اسكي) قديم بالتركية وطاش : حجر، وينطقون به ما بين تاش - بالتاء - وطاش بالطاء مع أن حرف الطاء لا يوجد في التركية ولكن مثله في ذلك مثل التاء في طشقند التي صرنا نكتبها بالطاء وان كان اسلافنا العرب يكتبون اسمها القديم (شاش) فيقولون : بلاد الشاش .



[مسجد اسكي طاش في قازان]

لقد صادر
الشيوعيون
(مسجد اسكي
طاش) في أول
الثورة الشيوعية
وبالتحديد في عام
١٩١٨م واتخذوه
نادياً ثقافياً ثم
استعاده المسلمون
فبدأوا بتعميره بمبلغ
مالى حصله لهم
الشيخ الدكتور
صالح السدلان من

المملكة العربية

السعودية، بل قالوا: ان هذا التبرع السخي هو الذي جعلهم
يستعيدونه ويعيدونه الى ماكان عليه مسجداً يذكر فيه اسم الله؛ وقد

كتبوا عليه لافتة، بالعربية: «تتارستان قازان شهرى مسجد صالح السدلان» واعد افتتاحه فى ١٨ اكتوبر ١٩٩٣م والى الشمال من المسجد مدرسة واسعة تتبعها أفنية واسعة كانت مدرسة إسلامية تابعة للمسجد والآن فيها مدرسة حكومية ثانوية.

وتتبع المسجد مساحات واسعة من الاراضي بجانبه تابعة للمسجد فى الأصل، ومقبرة جماعية، وفى جهة من الأرض التى كانت من ممتلكات المسجد ولازالت اراض خالية يأمل الاخوة المسلمون فى استعادتها كما أشار اليه المسؤولون عن المسجد والمرافقون قائلين: هنا دفن جماعة من اهل قازان من علماء وزعماء ممن قتلهم (ايفان الرابع) قيصر روسيا عندما احتل قازان، وقال احدهم: بل ان القتلى هم من جيش خان قازان ابن ملكها قتلهم الروس هنا بعد التغلب على قازان، قالوا: وحفر الروس حفرة كبيرة رموهم فيها جميعا واهالوا عليهم التراب.

وايفان الرابع هو المشهور فى الكتب العربية وغيرها بايفان الرهيب وهو عند الروس (ايفان المدهش) لأنهم لقبوه (قروزني) التى تفسر بمعنى رهيب ومدهش والأخير أقرب الى الصواب.

ثم دخلنا الى المسجد الذى كان واسعاً ولكن الشيوعيين قسموه الى غرف واسعة عندما استولوا عليه، فأبقى المسلمون على بعض تلك التقسيمات لكون عدد المصلين لا يحتاج الى كل مساحة المسجد، وخصصوا بعضها مدرسة إسلامية خالصة ذكروا ان الدراسة فيها ستبدأ من اول اكتوبر القادم والمراد بذلك كُتَاب صغير وهذا جيد

منهم أن يفكروا في إيجاد كُتّاب وحتى فصل دراسي في كل مسجد يُعلّم ناشئة المسلمين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ويرشد الكبار ايضا لأن الجميع لا يعرفون من الإسلام شيئاً فقد وصلوا الى حالة يصدق عليها ما جاء في الأثر: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام الا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه»، بل إن أهل هذه البلاد لم يبق عندهم حتى ولا رسم القرآن، لأن الشيوعيين حرّموا عليهم اقتناء المصاحف والكتب الإسلامية واحرقوا ما استطاعوا الوصول إليه منها، حتى اضطر بعض المسلمين الى اخفاء المصاحف والكتب الإسلامية في المقابر بدفنها مع الموتى حتى يأذن الله تعالى لها بالبعث والنشور، وهذا أمر تأكدنا من الحديث عنه في عدة بلاد من بلدان المسلمين التي ابتليت بالشيوعية.

كان يرافقنا في الإطلاع على المسجد الأخ (راوى بن شاهد الله) رئيس جمعية المسجد، ومعه بعض الأخوة العاملين في المسجد حيث قدم لنا الشاي والخبز في مكتب التعمير الملحق بالمسجد وافادوا بأن المسجد لايزال بحاجة الى اتمام ترميمه برفع الحواجز التي كان الشيوعيون قد أحدثوها فيه حتى يعود الى هيئته الأولى.

وقد قدمنا لهم تبرعاً رمزياً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي للإسهام في الترميم وان كان لا يكفي لكل ما ارادوه من ذلك.

المجرى الهائي الفاصل:

ودعنا الأخوة الكرام أهل مسجد (اسكي طاش) تلفنا مشاعر من الأسى والفرح مبعث الأولى تلك الأحداث التي ذكرتنا باستيلاء

الغزاة المتعصبين بقيادة القيصر ايفان الرهيب على هذه البلاد المسلمة التي هي أبعد البلدان الإسلامية جهة الشمال أو لنقل إنها أقرب البلدان المسلمة الى القطب الشمالى وكان نفوذها، بل وممتلكاتها تصل شمالا الى ارض الظلمات التي هي الاراض القطبية سميت بذلك لكونها لا ترى الشمس في الشتاء أشهراً أو أياما حسب بعدها من القطب نفسه او قربها منه .

أمّا مشاعر الفرح فانها بإنهزام الشيوعيين، واستعادة مساجد المسلمين التي نرجو ان يستعيدوا معها ثقافتهم الإسلامية العتيقة، وبالتالي مجدهم السابق وذلك يوم أن يتخلصوا من ربقة الحكم الاجنبي ويملكوا أمرهم بأنفسهم .

وسرنا عائدين مع احدى ضواحي قازان فوصلنا الى مجرى ماء واسع كالنهر الصغير يسمونه (بولاق) ذكر الاخوة المرافقون باهتمام أن هذا النهر كان ذا معنى كبير في القديم حيث كان يفصل في السكن بين المسلمين والروس فما كان يمينه فهو مخصص لسكن الروس اي للمنازل التي سكن فيها الروس وما كان من جهة اليسار فهو مخصص للمسلمين والمراد بالمسلمين هنا المواطنون البلغار الذين صاروا يسمون الآن بالتتار؛ ولا تجيز الحكومة ان يسكن احد من المسلمين مع الروس فيما اذا استطاع احد منهم ذلك واراده .

كان ذلك في العصر القيصرى الروسى، وقد أُلغى بعد الثورة الشيوعية والآن اختلط الفريقان في المساكن وغيرها في البلاد .

ومن الأشياء التافهة أنني كنت بحاجة الى دفتر صغير يقيّد الأشياء التي يخشى عليها النسيان فدخلنا متجراً مهما عندهم فاذا به

فقير في بضاعته، وحتى البضائع فيه غير جيدة، ومع ذلك كان التشدد في الاجراءات عظيماً فقد اشترت الدفتر بنصف دولار ولايساوى عندنا ربع هذا الثمن لانه صغير جداً وقليل الورق واحتاج الأمر في اكمال الشراء الى جهد تمثل في كتابة (فاتورة) من عدة صور وأن نتظر فراغ الوظيفة التي كتبتهما لوقت ليس بالقصير بالنسبة لنا، ثم وقفنا أمام الخازنة وهي أمينة الصندوق التي كانت تؤدي عملها بدون أي شعور بقيمة الوقت او بمجاملة المشتريين فوقفنا عندها أيضاً فترة .

وعدنا الى وسط المدينة مع شارع (كارل ماركس) ابرز منظري الشيوعية ورأسم خططها وشهرته تغني عن تفصيل ذلك فقد نسبت اليه الشيوعية نفسها فقليل (الماركسية)، ولم يغيروا اسم الشارع بعد أن سقطت الشيوعية وصار أهلها يتبارون في بيان مفسادها ونشر مخازي الذين قاموا على تطبيقها في بلادهم، ورأيت في هذا الشارع الذي لم نقف فيه صورة مؤثرة لجماعات من الناس من رجال ونساء ينتظرون قدوم القطار الكهربائي (الترامواي) لكي ينقلهم الى الاماكن التي يريدونها .

ومع ان وسائل النقل العام متوفرة في المدينة مثل غيرها من المدن الشيوعية السابقة فانه يحدث أحيانا ان يحصل خلل فيها او اضطراب في مواعيدها فيقع ذلك بمثابة المصيبة على مستخدميها نظراً للفساد الادارى والعجز الحاصل في الدوائر الحكومية في هذه المرحلة الفاصلة بين الشيوعية والرأسمالية .

وقد عجبت لامتداد الشوارع بل لسعة مدينة (قازان) حتى عرفت ان الإحصاءات الحكومية التي اجريت عام ٨٩م تقول: إن سكان مدينة قازان يبلغ عددهم مليوناً وخمسمائة ألف من مجموع سكان جمهورية تاتارستان الذين هم ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف وهذا معناها أن نحو ٤٥٪ من السكان موجودون في العاصمة.

ولاشك ان هذا عدد قليل جداً اذا عرفنا ان نسبة المسلمين في الجمهورية كلها هو نحو نصف عدد السكان واما البقية فانهم من غير المسلمين من المهاجرين او المهجرين اليها من أنحاء روسيا والبلدان الدائرة في فلكها مع ان هذه البلاد كانت تحكم المنطقة الروسية التي فيها موسكو وكانت تسيطر على معظم الأراضي الروسية الشرقية ولكن أهلها المسلمين تعرضوا في تاريخهم الطويل بعد الاحتلال الروسي وفي عهود القياصرة الى حملات من الابداء والتنفير والتغريب اضافة الى ما شاهدته في عدة اماكن يقطنها هذا الجنس المسلم الذي يسمى بالتتار من ان المسلمين ليس من عادتهم أن يتزايدوا أكثر من غيرهم الا بنسبة ضئيلة فتعدد الزوجات عندهم لا يوجد والوعي بزيادة النسل حتى من زوجة واحدة ليس منتشرًا مثلما هو منتشر في اوزبكستان على سبيل المثال.

ولاشك في ان هذه ناحية نقص ينبغي التفكير في تغييرها وسوف تأتي بقية من الحديث في هذا الموضوع - إن شاء الله -.

بلاد البلغار

ربما يتذكر القارئ الكريم ما قلته في مقدمة الكتاب من كون هذه البلاد كانت بلاد البلغار المسلمين وقلت إن أهلها كانوا ولا يزالون هم البلغاريين ولكن الروس أطلقوا اسم التتار عليهم لكونهم من رعايا حكومة التتار المسلمة، وقلت: اني ذكرت أنها بلاد التتار تمشياً مع المعروف الشائع.

غير أنني أقول هنا: إن مدينة (بلغار) التاريخية لا تزال تحتفظ باسمها التاريخي وبالأوراق الرسمية وغيرها حتى اليوم، وان الغرض من الزيارة إليها هو زيارة لمنطقة مسلمة قديمة تميز أهلها بكونهم أسلموا في أوائل القرن الرابع الهجري حباً في الإسلام من دون حرب أو غزو، بل من دون أى ضغط.

والغرض الآخر من الزيارة هو الاطلاع على مسجد في هذه المدينة التاريخية التي لا تزال خراباً يباباً ولكن نشأت بقربها بلدة سارع أهلها المسلمون بإنشاء مسجد كبير فيها وارسل لنا المفتي الشيخ عبد الله صفا يطلب المساعدة على بنائه حيث إن أهله قد بذلوا الوسع في جمع التبرعات وقطعوا أكثر مراحل بنائه ولكنهم يعانون من قصور النفقة.

ولا شك ان منظر المنطقة التي حول مدينة (بلغار) التاريخية – التي لا تزال تسمى بهذا الاسم – يدل على ان المنطقة كلها هي منطقة بلغارية وهذا امر مسلم به تاريخياً، ويدل عليه القياس العقلي في الوقت الحاضر لأن التاريخ لم يسجل ان أهل بلغار أبيدوا عن آخرهم بسبب من الأسباب أو أجلوا عن بلادهم جلاء جماعياً، وانما تغيرت

تسميتهم فصاروا يسمون التتار بعد ان كان اسمهم (البلغار) وقد نسي اسم البلغار الا في بطون كتب التاريخ وفي آثار هذه المدينة التي تُسمى مدينة (بلغار) حتى الوقت الحاضر .

ولضخالة المعلومات عن هذه الجهة من بلاد الإسلام الشمالية النائية في أذهان اخواننا وابنائنا في البلدان العربية ولعدم معرفتهم بتاريخها رأيت ان انقل نصاً مطولاً من كتاب كتبه أحد أبناء هذه الطائفة البلغارية من المسلمين وهو من أهالي قازان ، وقد كتب كتابه باللغة العربية وطبعه في المنطقة نفسها ، اذ كانت طباعته في المطبعة الكريمة والحسينية في مدينة أورنبورغ التي هي الآن اقليم من اقاليم جمهورية روسيا الاتحادية ، الخارج عن الحدود الادارية لجمهورية تاتارستان ولكنه كان مركزاً ثقافياً للمسلمين ، بل كان مجالاً للثقافة العربية الإسلامية ، واسم المؤلف هو : محمود ، الرمزي ، واسم كتابه «تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار» ، وقد تم طبعه في عام ١٣٢٥هـ اى قبل الحكم الشيوعي في روسيا .

وقد حظّر تداوله في زمن الحكم الشيوعي واصبح اكثر ندرة من المخطوط ، وقد بحثت عنه طويلاً حتى وجدت نسخة منه في مدينة «أوفا» عاصمة جمهورية بشكيريا عام ١٤٠٦هـ حصلها لي أحد الأخوة واستكتمني ذلك الأمر .

فوجدت الكتاب في مجلدين يقعان في ١٢٤٩ صفحة ، وهو كنز ثمين لتحقيق ما ورد في كتب التراث العربي القديم وتطبيقه على ما يعرفه اهل المنطقة عن بلادهم ، اضافة إلى رجوعه إلى مصادر تركية

وهي الكتب التي ألفها علماء المنطقة او ما جاورها في تاريخها باللغة التركية أو اللهجة التي يتحدث بها اهل المنطقة من تلك اللغة، كما انه رجع إلى كل الكتب التي ألقت عنها بالعربية مثل كتاب المرجاني وهو الشيخ شهاب الدين افندي المرجاني الذي نسب إليه جامع المرجانية في قازان ولم أطلع عليه،

ولندرة كتاب (تلفيق الأخبار) وصعوبة الاطلاع على نسخة منه حتى في المكتبات العربية فضلاً عن الحصول على نسخ منه، ولكونه جمع فأوعى في تعريف البلغار وما كتب عنهم في اللغة العربية رأيت نقل ما ذكره هنا بنصه الا أشياء تخرج عن المقصود او لا حاجة إليها فقد حذفها فأصبح ما نقلته عنه أشبه بالملخص وإن كان المحذوف قليلاً، قال - رحمه الله - :

«إعلم أن لفظ بلغار كما أنه كان علماً لبلدة مخصوصة كذلك كان يطلق على سكنة تلك البلدة ونواحيها وما يجري فيه حكمها كما يجري في سائر اسامي البلدان الكبار مثل بخارى وخوقند والروم كما قال بعض السياحين بلغار اسم الجبل والامة واسم الناحية والمملكة واسم المدينة فلذلك ترى من تصدى لبيان احوالها يطلق تارة لفظ (بلغار) ويريد به بلدة مخصوصة ويطلقه اخرى ويريد به مملكة وناحية ويطلقه ويريد به قوما مخصوصين كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فاحفظه وضبطه (بُلْغَار) بضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وبعدها الف والراء المهملة هذا هو الصحيح وان قال في القاموس انه على وزن قُرْطُق يعني بغير الف (بُلْغَر)

والعامة تقوله بلغار يعني بالالف لكن صاحب البيت ادرى بما فيه
ويقال له ايضا : برغار وبرغر بالراء بدل اللام على الوجهين (وبلار)
أيضا بفتح اللام وحذف الغين حتى قال البعض انه الاصل فيه والبقية
محرفة منه ويقال له ايضا (بلكان) بالكاف الفارسية بدل الغين
والنون بدل الراء كما سيجيئ كل ذلك - ان شاء الله - ولكن الاول
هو الصواب والمشهور وعلى الالسنه مذكور وفي الكتب مسطور .

فاذا عرفت ذلك فاعلم ان عادة المتأخرين من المؤرخين -
خصوصا في تاريخ مملكة غير معلومة- قد جرت بالبحث اولاعن
احوال ارض البلدة او الكورة او الناحية المقصودة بالبيان وبيان سمتها
وموقعها وطولها وعرضها ويسمى هذا عندهم جغرافيا ثم يثبونه ببيان
اهلها وسكانها وبيان احوالهم وعاداتهم وطرق معاشهم ودياناتهم
ويسمى عندهم اتوغرافيا بالتاء او الثاء ولاعلينا ايضا ان نفتفى آثارهم فى
ذلك لكونه انفع وافيد فيما هنالك مع قولهم : ان التشبه بالكرام فلاح .

فنقول : إن الارض التى بها قوم (بلغار) ومدينتهم وما جرت فيه
احكامهم وكثر فيه جولانهم اعنى ما يطلق عليه مملكة بلغار فهى وراء
جبال قفقازيا متوغلة فى الشمال وهى غير بلغار طونة الآن وإن كانتا
فى الأصل متحدتين ولايتعلق غرضنا ببيان بلغار طونة الا استطرادا
كما سيجيئ فيمكن لنا أن نحددها بحسب حكمهم فى غالب
الاقوات والاحوال شرقا بجبال اورال ونهره المسمى عندنا معاشر
المسلمين بنهر جايق وغربا بملتقى نهري اوبا وولغا الذي فيه الآن نيزني
نووغورود وما يحاذيه من طرفي الجنوب والشمال وجنوبا بولايات

ستراطاو وبنزا وطامبوف وطولا وشمالا الى آخر المعمورة اعني البحر المتجمد الشمالي فإن السّياحين والجغرافيين الذين وردوا الى بلغار حين كانت معمورة لم يذكروا وراء بلغار سوى ارض الظلمة وذلك لعدم طلوع الشمس فيها في بعض ايام كل سنة وكثرة الامطار والثلوج والمشاجر فعلى هذا يكون بعض بلاد برداس داخلا فيها ولكن لأبأس بذلك فإن هذا التحديد تقريبي لا تحقيقي فإن تلك المملكة قد اتسعت احيانا جدا حتى استوعبت جميع الاراضي المذكورة الى اقاصي طونة وجبال بلقان واطراف قسطنطينية كما سيجيء وقد تضايقت جدا بحسب التقلبات والتطورات حتى اضمحلت بالكلية او كادت وعرض عليها اسم آخر احيانا كما ستقف عليه - إن شاء الله تعالى - ونحن انما حددنا ما تناول فيه جولانهم واشتهر باسم « بلغار » وامتد فيه دورانهم وجولانهم .

أما الحد الشرقي فارجو أن يكون قريبا من التحقيق فإن المفهوم من كلام اكثر السّياح ان قوم باشقرد كانوا في حكومة بلغار ويؤيده انتساب القوم المذكورين الى بلغار قديما وحديثا وإن كان كلام بعض السّياح يوهم خلافه واما الحد الغربي فارجو ان يكون ايضا قريبا من التحقيق وسيجيء في كلام كارامزين مؤرخ الروسية ما يدل عليه .

والحد الشمالي ايضا لا يبعد من التحقيق وانما الكلام في الحد الجنوبي والأمر فيه سهل وقد بينا فيه عذرنا واما نفس بلدة بلغار فقد كانت في قديم الايام من المدن القديمة البناء مشهورة معمورة مقصودة بالتجارة من جميع الجهات وكما انها كانت من المدن المتقدمة

بحسب البناء والحدوث كانت أيضا من المدن المتقدمة بحسب تمدن
اهلها وتقدمهم في المعارف بالنسبة الى اكثر بلاد أوروبا واقدم البلاد
إسلاما من بلاد أوروبا بعد بلاد الاندلس .

واما الآن فهي خربة مابقي منها شيء سوى بعض آثارها مثل
منارة بعض جوامعها وبعض الابنية وآثار سورها واطلالها الدارسة .

واما موقعها : فانها كانت في نهاية بلاد أوروبا الشرقية وأواخر
المنطقة المعتدلة الشمالية وباعتبار تقسيم المتأخرين واقعة في جهة
الشرق الشمالي من نهر ادل المشهور الآن عند الروسية ومن يشاكلها
بنهر وولغا « الفولقا » على بعد نصف فرسخ منه بعيد ملتقى قطعتيه
الكبيرتين اعني وولغا وقاما وباسم آخر جولمان حيث العرض الشمالي
خمس وخمسون درجة الا شيئا يسيرا والطول الشرقي ست وستون
درجة وخمسون دقيقة على ما يظهر من خرائط الروسية كافة وهم^(١)
يعدون الطول من ساحل المحيط الغربي تبعا لليونانيين القدماء فيكون
الطول من جزائر الخالدات ستا وسبعين .

وقال الملك المؤيد ابو الفدى في تقويم البلدان ان مدينة (بلار)
يقال لها بالعربي (بلغار) هي بلدة في نهاية العمارة الشمالية وهي
قريبة من شط اتل من البر الشمالي الشرقي وهي وسراي في بر واحد
وبينهما فوق عشرين مرحلة وهي في وطأة من الأرض والجبال عنها
اقل من يوم وبها ثلاثة حمامات واهلها مسلمون احناف ولايكون بها
شيء من الفواكه وحكى لي بعض اهلها أنه في اول فصل الصيف

(١) هذا متقدموهم واما المتأخرون منهم فيعدونه من بطربورغ . اه منه .

لا يغيب الشفق عنها ويكون ليلها في غاية القصر .

وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالاعمال الفلكية لأنه من عرض ثمانية واربعين ونصف يتبدىء عدم غيبوبة الشفق في اول الصيف وعرضها اكثر من ذلك فصح ماتقدم على كل تقديره اهـ .

واختلف فيمن بناها وانها متى بنيت قال في روضة الصفا إنه بناها بلغار بن كمارى بن يافث بن نوح عليه السلام وان اهلها من ذريته فسميت البلدة والمملكة وذريته باسمه وقيل بنيت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعصرين وقيل بناها ذو القرنين حين خرج من الظلمة ومات بها وقيل غير ذلك .

وحيث إنه لم يوجد تاريخ لذلك لا يمكن التكلم بالظن والحسبان فيما هنالك ولا فائدة في سلوك ما لا يعرف من المسالك .

واما احوالها الاتنوغرافية اعني احوال اهلها فقد اُخْتَلِفَ فيهم ايضا كمثّل الاختلاف المتقدم فقيل : إنهم من الترك وقيل بل قوم متولدون بين الصقالبة والترك ، وقد مر آتفا نقلا عن روضة الصفا انهم من ذرية بلغار بن كمارى بن يافث فيكونون من ذرية ابن اخي الترك ان قلنا ان الترك ولد يافث من صلبه على ماهو الصحيح ومن ذرية اخي الترك ان قلنا انه ابن كומר بن يافث على ماذهب اليه البعض كما سيجيء بناء على كون (كمارى وكومر) شخصا واحدا .

قال فيها -أي في روضة الصفا- : إن كمارى بن يافث كان رجلا متعيشا محبا للصيد وكان يركب دائما وكان له ميل تام الى

المنتزهات فانتهى سيره مرة في اثناء اصطياذه الى حدود بلغار فرآها
ارضا طيبة الهواء وصحراء منتزهة فاستوطن بها وكان له ابنان احدهما
بلغار والآخر برطاس فاختر كل منهما محلا لنفسه وعمر فيه العمائر
باسمه وصار كل منهما يصطاد الثعلب والسمور والسنجاب وصنعوا
من جلودها البسة حسنة اهـ.

وقال ابو الغازي بهادر خان في تاريخه إن يافث بن نوح
استوطن بحدود ادل^(١) وجابق ومات بها ثم ارتحل ولد الترك الى
طرف الشرق اهـ. فعلى هذا يكون بلاد بلغار اصل وطن يافث جد
الأتراك وغيرهم ولندكر هنا ما ذكره الجغرافيون والسيّاحون من
المسلمين وغيرهم في حقهم من المعلومات.

قال ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري القرطبي الاندلسي
بعد بيانه مملكة الخزر ويتصل بهذه « يعني مملكة خزر » مملكة البرغر
« يعني البلغار » وملكها الآن مسلم اسلم بعد العشرة وثلاثمائة برؤيا
رآها وذلك ايام المقتدر وكان هذا الملك يغزو القسطنطينية في نحو
خمسين الف فارس ويشن الغارات الى بلاد رومه والجلالقة والافرنج
ومنه الى قسطنطينية نحو من شهرين وهم امة شداد لاتطاق والفارس
منهم يقاتل امة من الروم ولا يمتنعون منهم الا بالجدران والليل عند
البرغر في غاية القصر سائر السنة يزعم احدهم انه لا يقدر ان يطبخ
قدره حتى يصبح ويتصل بهؤلاء الروس اهـ قوله سائر السنة الخ
لا يخفى ما فيه.

(١) ادل هو إيدل أو إيس أو نهر الفولقا.

وقال المسعودي في مروج الذهب : ومدينة البلغر على ساحل بحر مانطش وارى انهم في الإقليم السابع وهم نوع من الترك والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم اليهم إلا ان ذلك من بوادي غيرهم من الترك « يعني الاقوام القزاقية » والقوافل مخففة منهم وملك البلغر في وقتنا هذا وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مسلم اسلم في ايام المقتدر وذلك بعد العشر والثلاثمائة وذلك لرؤيا رآها وقد كان له ولد حج وورد مدينة السلام يعني بغداد وحمل معه المقتدر لواء وبنودا ولهم جامع وهذا الملك غزا القسطنطينية في نحو خمسين الف فارس فصاعدا فشن الغارات حولها الى بلاد رومية والاندلس وارض برجان والجلالقة والافرنجة ومنهم الى القسطنطينية في خليج آخر من البحر الرومي لامنفذ له الى غيره وانتهوا الى بلاد حرفيدية واتاهم في البحر جماعة من البلغر ينجد ونهم واخبر وهم ان ملكهم بالقرب وهذا يدل على ما وصفنا من ان البلغر تتصل سراياها الى ساحل بحر الروم وكان نفر منهم ركب في مراكب الطرسوسين فاتوا بهم الى بلاد طرسوس . والبلغرامة منيعة عظيمة شديدة البأس ينقاد اليها من جاورها والفارس ممن قد اسلم مع ذلك يقاتل المائة والمائتين من الكفار ولا يمنع اهل القسطنطينية منهم في ذلك الوقت الا سورها وكذلك من في هذا الصقع لا يعتصم منهم الا بالحصون والجدران والليل في بلاد البلغار في نهاية من القصر في بعض السنة ومنهم من زعم ان احدهم لا يستطيع ان يفرغ من طبخ قدره حتى يأتي الصباح انتهى .

قلت مراده ببحر مانطش هو بحر ازاك^(١) فقله ان البلغر على

(١) هو البحر الأسود .

ساحل بحر مانطش خطأ بل بينهما مسافة بعيدة وقد خطأه ياقوت الحموي في معجم البلدان ولكن وقع في نسخته^(١) لفظ برغر بدل بلغر ولذا قال بعد ان ذكر جميع ما ذكره المسعودي قلت: إن جميع هذه الصفة هي صفة بلغار وما اظنها إلا واحدا وانهما لغتان فيه وليس فيه ما انكرته إلا قوله ان البرغر على ساحل بحر مانطش وما اظن بينه وبين ساحل بحر مانطش الا مسافة بعيدة انتهى ما ذكره الحموي.

قلت قد تقدم منا ان بلغار يقال له ايضا برغر وبرغار وقد مر اطلاق برغر في كلام ابي عبيد البكري ايضا.

وقال منجم باشي في تاريخه: بلغار وهؤلاء ايضا من اولاد يافث ويقال لهم ايضا برغر وبرغار منسوبون الى الصقع الذي يسكنون فيه.

وقال شمس الدين الدمشقي واما البلغر فمنتسبون الى الصقع وهم مسلمون أسلموا ايام المقتدر وبعث ملكهم الى المقتدر يطلب منه فقيها يعرفه قواعد الإسلام فاجابه الى ذلك ثم وصل جماعة من البلغر الى بغداد يريدون الحج فاقيم لهم من الديوان الإقامة الوفرة وما استعانوا به وسألهم سائل من اي الامم انتم وما البلغر فقالوا قوم متولدون بين الترك والصقالبة.

وقال في موضع آخر: وعد صاعد الاندلسي فيهم اي في الترك الخزر والبلغار اهـ.

(١) اعني نسخة مروج الذهب الذي بيد الحموي.

تنبيهه، قال ابن الاثير في الكامل في اثناء ذكره حوادث سنة ثلاث وثلاثين واربع مائة وفيها وصل جماعة من البلغار الى بغداد يريدون الحج فاقم لهم من الديوان الاقامات الوافرة فسئل بعضهم من اي الامم هم وما البلغار فقال هم قوم تولدوا بين الترك والصقالبة وبلدهم اقصى الترك وكانوا كفارا فاسلموا عن قريب وهم على مذهب ابي حنيفة - رضي الله عنه اه-.

قلت هذا الكلام إما مبني على اشتباه عام ورود البلغاريين الى بغداد على ابن الاثير او على تعدد ورودهم اليها مرة في العام الذي ذكره المسعودي اعني بعد الثلاثمائة وان لم يذكر التاريخ، ومرة العام الذي ذكره ابن الاثير فإن المسعودي قال ان ذلك في زمن المقتدر ولاشك ان موت المقتدر سنة ٣٢٠هـ فبين ما ذكره المسعودي وما ذكره ابن الاثير ازيد من مائة سنة واما ما ذكره شمس الدين الدمشقي فيحتمل كلا منها لانه ماذكر التاريخ ولكن سياق كلامه حيث ذكر ورودهم الى بغداد بثم عقيب ذكر اسلامهم يوافق كلام المسعودي وان الفاظه وعباراته مطابقة لالفاظ ابن الاثير وعباراته والله سبحانه اعلم وعلمه اتقن واحكم.

وقال في رسالة الانتساب: وارض البلغار بلاد الاتراك الإسلامية أسلموا في الدولة العباسية في خلافة المأمون والواثق وأسلم مرة في خلافة القائم بأمر الله ثلاثون الف خرگاه^(١) هـ.

قلت الظاهر من كلام ابن الاثير ان هؤلاء الذين أسلموا في عهد

(١) الخرگاه : الحيمة الكبيرة.

القائم كانوا من اهل دشت القبيجق^(١) فانه قال في حوادث سنة ٢٣٥ هـ أسلم عشرة آلاف خركاه من كفار الترك وكانوا يصيفون بنواحي بلغار ويشتون بنواحي بلاساغون اهـ والخليفة وقتئذ هو القائم بامر الله .

وقال ابو علي احمد بن عمر بن دستة وقيل داسة في كتابه المسمى بالاعلاق النفيسة: الفصل الثالث في ذكر بلكارا: وبلكار متاخمة لبلاد برداس وهم نزول على حافة النهر الذي يصب في بحر الخزر المسمى اتل وهو بين الخزر والصقالبة وملكهم يسمى المش وهو ينتحل الإسلام وارضوهم غياض ومشاجر ملتفة وهم حلول فيها وهم ثلاثة اصناف صنف منهم يسمى بوصولا والصنف الآخر اسفل والثالث بلكار ومعاشهم كلهم في مكان واحد والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروسية اليهم يصيرون بتجاراتهم وكذلك كل من كان منهم على حافتي ذلك النهر يختلفون بتجاراتهم اليهم كالسمور والقاقم والسنجاب وغيره، وهم قوم لهم زرع وحرثة يزرعون كل الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك واكثرهم ينتحلون دين الإسلام وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وائمة والكافر منهم يسجد لكل من لقي من محبيه وبين برداس وبين هؤلاء البلغارية مسيرة ثلاثة ايام يغزونهم ويغيرون عليهم ويسبونهم ولهم دواب ودروع وسلاح شاك، وهم مؤدون الى ملكهم الدواب وغير ذلك واذا

(١) يعرف دشت القبيجق الآن بصحراء القازاق

تزوج الرجل منهم اخذ^(١) الملك منهم دابة دابة واذا جاءتهم سفن المسلمين للتجارة اخذوا منهم العشر، وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين واكثر اموالهم الدلق وليست لهم اموال صامته وانما دراهمهم الدلق^(٢) يتزوج الدلق الواحد فيهم بدرهمين ونصف وانما يحمل الدراهم المدورة البيض من نواحي الإسلام يتاعونها منهم.

وقال الشيخ زكريا بن محمد بن محمود القزويني في كتابه عجائب^(٣) المخلوقات وغرائب الموجودات: بلغار مدينة على ساحل بحر مانطش قال ابو حامد الاندلسي هي مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط وحولها من امم الترك مالا يعد ولا يحصى وبين بلغار وقسطنطينية مسيرة شهرين وبين ملوكهم قتال ياتي ملك بلغار بجنود كثيرة ويشن الغارات على بلاد^(٤) قسطنطينية والمدينة لا تمتنع منهم الا بالاسوار حكى ابو حامد الاندلسي ان رجلا صالحا دخل بلغار وكان ملكها وزوجته مريضين ميؤسين من الحياة فقال لهما ان عاجلتكما تدخلان في ديني قالان نعم فعالجهما فدخلا في دين الإسلام وأسلم أهل تلك البلاد معهما فسمع

(١) ولعل مراده بذلك ان اخذ العوائد الميرية مختص بالمتزوجين.

(٢) الدلق يقال له بلغة أهل قزان تين والمراد جده وهو حيوان مثل الفأرة البرية ولهذا يقال بين أهل قزان إلى الآن للكابيك الروسي تين.

(٣) نه كتابان كلاهما مشهوران بهذا الاسم إلا ان احدهما يختص باسم آثار البلدان أو آثار البلاد وهو مطبوع وهذا منقول عنه وإنما بنينا الأمر على المشهور في التسمية. ١٠ هـ منه.

(٤) قلت وهذا وما مر عن المسعودي والبكري كله صريح في ان بلغار قزان هجموا على القسطنطينية مراراً ولا ذكر له في كتب الأفرنج وإنما المهاجم عليها في كتبهم بلغار طونة بعد استيطانهم هناك في حدود سنة ٢٧٥م إلا ان نقول إن علاقتهم له تنقطع من هناك بالكلية في عصرهم واطن ان مصدر هذا القول هو المسعودي فقط والباقيون نقلوا كلامه من غير تحقيق فلا يبعد ان يشبهه على المسعودي البلغار وسنشير إلى ذلك فيما بعد أيضاً إن شاء الله تعالى. ١٠ هـ منه.

بذلك ملك الخزر فغزاهم بجنود عظيمة فقال ذلك الرجل الصالح لاتخافوا واحملوا عليهم وقولوا الله اكبر ففعلوا ذلك وهزموا ملك الخزر ثم بعد ذلك صالحهم ملك الخزر وقال انى رأيت فى عسكر كم رجالا كبارا على خيل شهب يقتلون اصحابى فقال الرجل الصالح اولئك جند الله وكان اسم ذلك الرجل بلار فعر بوه وقالوا بلغار هكذا ذكر القاضى البلغارى فى تاريخ بلغار وكان من اصحاب امام الحرمين وملك بلغار فى ذلك البرد الشديد يغزو الكفار ويسبى نساءهم وذرائعهم واهل بلغار اصبر الناس على البرد وسببه ان اكثر طعامهم العسل ولحم القنذر^(١) والسنجاب .

وقال فى تواريخ البلاد والعباد الذى الف فى عهد السلطان محمد جابى ابن يلدرم بايزيد وهو بلسان تركى مامعربه : بلغار هذه محاطة من الجوانب الاربع بالكفار وقد حفظها الله سبحانه فى وسطهم وملك البلغار من اولاد الاسكندر قيل الاسكندر^(٢) لما خرج من الظلمة اقام فى بلغار الى ان توفى بها واهل بلغار ارباب الديانة واصحاب المهابة والشهامة وسيرتهم حسنة طيبة والواجب على كافة اهل الإسلام ان يمدوهم بالدعاء حتى ينتصروا على الكفار

وقال فى مجمع الأنساب ما معربه : البلغار واقعة بين المغرب والشمال وقريبة من القطب الشمالى ولهم مدينتان يقال لاحداها

(١) هذا وان صح فى حق الكفار منهم لكنه غير صحيح فى حق مسلميهم فأنه حرام .

(٢) قتت اراد به ذا القرنين بناء على الغلط المشهور بين الناس من ان ذا القرنين هو الاسكندر وهو غلط صريح وخطأ محض وان قال به الجرم الغفير والجمع الكثير . ١٠ هـ مه .

سوار وللاخرى بلغار وبينهما مسيرة يومين وبينهما نهر وبساحل ذلك النهر مشاجر كثيرة وهم كلهم مسلمون يحاربون الكفار دائما وفي غاباتهم يكثر وجود الثعلب والسنجاب والقنذز اهـ .

وقال ابو عبد الله الغرناطى : البلغار ذات الجانبين بيوتهم من الخشب وهى على ساحل نهر اتل وجامعهم فى السوق والسوار ايضا على ساحل ذلك النهر وبيوتهم من اللبد ولهم مزارع والخير بها واسع وقال ايضا : ولسان الخزر والبلغار واحدة ولكن لسان البرطاس مغايرة وبلغار اسم مدينة وبها المسجد الجامع واهلها مسلمون وبقربها ايضا مدينة يقال لها سوار وبها ايضا مسجد جامع ويكون بهما عشرة الاف بيت وابنيتهما من الخشب ومن مدينة الاتل (وكانت مدينة بموضع حاجى طرخان) الى بلغار نحو مسيرة شهر من البر ويصعد من مقدار شهرين وينزل من بلغار الى مدينة الاتل فى مقدار عشرين يوما

وقال ابو عبيد البكرى وبلاد بلكان متاخمة لبلاد فرداس بينهما ثلاثة ايام ومنازلهم على شاطئ نهر اتل وهم بين فرداس وصقلاب وهم قليلو العدد نحو خمسمائة اهل بيت وملكهم يسمى المس وهو منتحل للإسلام والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروس

قلت : قد تقدم عنه فى اول الفصل فى وصف بلغار ما يخالف ذلك وقد ذكر البلغار بلفظ برغر وهنا بلفظ بالكان ولا ريب انهما واحد ولكن قوله قليلو العدد غير صحيح مخالف لما ذكره هو وغيره كما لا يخفى ولعل ذلك صدر عنه على سبيل الذهول ، او فى العبارة سقطت والله سبحانه اعلم .

وقال ابو حامد الاندلسي : لباس البلغار والخزر والبجانات
قراطق^(١) تامة ولباس الروس قصير والبشجرد فى طاعة البلغار
والتجارة فى بلغار فى السمرور والسنجاب والقاقم والفنك والشعلب
والارانب والشمع والنشاب والعسل والبندق والرقيق والغنم والبقر
وغراء السمك واسنان السمك والكهربا والكيمنت والسيوف
والدرع والخلنج.

وقال فى خريدة العجايب : أرض البلغار وهى ارض واسعة
ينتهى قصر النهار عند البلغار والروس فى الشتاء الى ثلاث^(٢) ساعات
ونصف ساعة قال الجو اليقى شهدت ذلك عندهم فكان طول النهار
عندهم مقدار ما اصلى اربع صلوات كل صلاة فى عقيب الأخرى مع
الاذان وركعات قلائل والاقامة والتسبيح وعماراتها متصلة بعمارت
الروم وهم امم عظيمة ومدينتهم تسمى بلغار وهى مدينة عظيمة يخرج
واصفها الى حد التكذيب.

ثم قال مع ذلك فى محل آخر : وبلغار مدينة صغيرة ليس لها
اعمال كثيرة وكانت مشهورة لانها كانت ميناء لهذه الممالك
فاكتسحتها الروس واتل وسمندر سنة ٣٥٨ هـ فاضعتها .

قلت عزا الفاضل المرجاني ذكر هذه الغزوة الروسية الى ابن الأثير
وابن حوقل ونحن راجعنا الكامل لابن الاثير مرارا كثيرة فلم نرفيه
ذكر هذه الواقعة فى العام المذكور وانما ذكر فيه حرب الروس مع بلغار

(١) قراطق جمع قرطق بضم وسكون وفتح معرب كورته وهى القميص وهى اعني كورته مستعملة فى التركية الى الآن .

(٢) علم من ذلك ان ساعتهم كانت اطول من ساعة عصرنا والا فاقصر الايام هناك ست ساعات ونصف ساعة .

طونة صرح بذلك على ماسنقل عنه فعزوها الى ابن الاثيروهم واما كتاب ابن حوقل فليس عندنا حتى نحكم عليه بشئ واما صاحب الخريدة فلم ادر من اين اخذها فانالانرى للروس فى العام المذكور مع البلغار الذى نحن نبينها الآن حربا اصلا والله سبحانه اعلم .

قال الفاضل رفاعه بك : ومن هؤلاء الناس الذين كادوا ان يكونوا مجهولين لليونانيين والرومانيين حتى روم بوزانطيا خرجت اسراب متبربرة عرفت باسم بلغار واوار وخزر وماجار وغير ذلك ولم تتفق الفضلاء الى الآن على اصول هؤلاء الاقوام والظاهر انهم مختلطون من قبائل الفنية والاتراك .

وقال وامة البلغار على كلام البوزنطيين فرع من امة الاوغرة ولكن يظهر منهم ان شبههم بالاتراك اتم من شبههم بهذه الامة ولاشك انهم (بلغار) استفادوا اسمهم من اسم النهر الذى كانوا فى اول امرهم يسكنون عليه لان اقليمهم الاولى المسماة البلغارية الكبرى كان يتصل به نهر الاتل (المسمى ايضا وولغا فأراد أنهم استفادوا اسم بلغار من وولغا وهذا وهم منه) ويظهر بقرب قزان بقية من آثار دار ملكهم ثم سكنوا (يعنى طائفة منهم) على نهر قوبان ثم على نهر طونة وهناك تغلبوا فى نحو سنة ٥٠٠ ميلادية على أسلاوون الصربيين المستوطنين باسفل نهر طونة ثم تغلب عليهم الاوارة ثم خرجوا من اسرهم سنة ٦٣٥ ميلادية فدخلت تحت طاعتهم فى ذلك الزمان امة القوطر غورة التى هى بقية من الهونة استوطنت جهة بحيرة نيوتيده المسماة الان بحر ازاك وبلغارية طونة^(١) التى هى قطعة من

(١) يريد ببلغار طونة أهل جمهورية بلغاري في البقان .

تلك السلطنة العظيمة مكثت مدة طويلة تخشى سطوتها سلطنة
بوزنطيا (القسطنطينية) .

وقال ومن الامم المتجاورة لاسقوتية امة الحية^(١) (سيتيا) وهى
امة تقرب من جنس الصقالبة وكانت هذه الامة ساكنة فى سالف
الزمان فى البلاد المسماة الآن بلاد بلغار ثم بعد ذلك عدت نهر ايوستر
(يعنى طونة) .

وقال : وعلى شاطئ نهر وولغا المذكور فى الكتب العربية نهر اتل
جعلت العرب مقام امة الخزر وهى تتاربة ومنها نصارى ووثنى
ومحمدي وعلى حدود الخزر امة البلغار واكثر الجغرافيين يتكلمون
عليها فتارة يجعلونها بلغار وتارة بلارويجعلون قاعداتها على نهر اتل
وانقاضها الباقية على ثمانين ويرسة من سنير الى الان تدل على عظم
شأنها فى سالف الزمان وبعض المشاركة يرى انها ابعد مدن الدنيا شمالا .

وقال وامة الخزر يسميها البوزنطيون باوغرة ابيض ظهرت اولاً بين
بحرى الخزر وازاق ثم لما تخلصت من كونهم مأسورين تحت حكومة
الهونية وبلغار مدة يسيرة أمتد حكمها الى نهر تبييسة وبقيت مدة
القرن السابع والثامن ارجح الامم فى تلك الجهة وبقي اسمها الى القرن
١٢ من الميلاد .

وقال فى بيان اواره ولكن لم تمكث هذه الامة النهاية على
سطوتها وشدة بأسها زمنا طويلا بل ضعفت بالحروب مع البلغار ثم
سقطت بقوة كارلوس مانوس سنة ٧٩٦ وكان مبدأ سلطنتهم
سنة ٥٦٦ - ١هـ ما انتخبناه من كلام رفاعة بك .

(١) زعم ان الحية غير لاسقوتية وهذا وهم فان الحية هي الاسقوتية كما حققناه . ١هـ منه .

وقال كارامزين^(١) بعد بيان سر ماطة وقد ظهر فى تلك الاثناء قوم يسمون اوغر وبلغار ولم يكن المغاربة يعرفونهم قبل وهم على قول اليونانيين من جنس الهون فخرجوا من اوطانهم التى كانت فى قرب وولغا واورال واستملكوا ما بين البحر الاسود وازاق واقليم قريم وشرعوا من سنة ٤٧٤ ميلادية فى نهب اقليم ميزيد (اى البلغارية الحاضرة) وفرا كيه حتى وصلوا الى اطراف القسطنطينية ثم ذكر ظهور اسلاوون^(٢) فى تلك المدة خلافا لما تقدم وهجومهم معا الى القسطنطينية فى عهد القيصر يوسطيان سنة ٥٢٧ وسائر معاملاتهم معهم ثم ذكر امة اواره من طرف الشرق وغلبتهم على البلغار ومعاملاتهم مع القيصر فى حدود سنة ٥٦٨ ثم قال ان ملك بلغار (قوارات خان) خرج فى سنة ٦٣٠ ميلادية مصادفة سنة ٩ هجرية من طاعة حكومة اوار وتبعيتهم وقسم قوته على تسعة أقسام كبيرة وملكوا الداركية ويانونية مدة كثيرة وحاربوا فى اقليمي كارنيتيه وبوهميه مع باواريا واسلاوون محاربات عظيمة وحكم (قوارات خان) فى قرب بحر ازاق^(٣) مع المودة والموافقة بالروم ولكن خالف اولاده وصيته الحكيمة وقسموا مملكتهم فيما بينهم فبقى كبيرهم (وات باى) فى قرب دون وعبر ثانيهم (قاتراق) إلى طرف آخر من النهر المذكور وذهب رابعهم إلى حكومة اوار فى يانونيه (هنغرية)^(٤) وذهب خامسهم إلى ايطاليا وثالثهم المسمى اسياروخ اقام اولاً بين

(١) هو مؤرخ روسي شهير نقل المؤلف عنه كثيرا فى كتابه: (تلفيق الأخبار).

(٢) يعنى السلاف.

(٣) هو المعروف الآن بالبحر الأسود.

(٤) هي بلاد انجر.

نهرى طونة ودينستر ثم غزا في سنة ٦٧٩ اسلاوون^(١) المقيمين بميزة
واسس هناك حكومة بلغارية قوية (وهي البلغارية الحاضرة) .

قلت هذا صريح في ان تفرق بلغار طونة من بلغار قزان كان في
التاريخ المذكور وهو المصادف سنة ٦٠ هـ وهذا مخالف لما مر عن
المسعودي الا ان نقول إنهم اتحدوا بعد ذلك ايضا والله اعلم^(٢)
وعلى كل حال فقد افرقت امة البلغار على فرقتين اما في اول
خروجهم من اصل وطنهم على ما يومئ إليه اول كلام كارامزين في
التاريخ المذكور آنفاً أو بعده ويقال لمن بقى في اصل مملكتهم البلغارية
الكبرى ولهؤلاء المهاجرين الى جهة طونة البلغارية الصغرى وربما يقال
للاولى البلغارية الداخلة وللثانية الخارجة وربما يقال للاولى البلغار
البيض لتمدنيهم بقبول الايمان والإسلام وللثانية البلغار السود لتسودهم
بسود الجهل والكفر وربما يقال للاولى بلغار وولغا^(٣) واتل وقزان
وللثانية بلغار طونة وربما يقع الناس في الغلط بعدم التمييز بينهما
فيخلط وقائع هذه بوقائع تلك حتى ان ابن فضل الله العمري مع علو
كعبه في الجغرافيا وطول باعه في علم التاريخ وانفراده في عصره بمعرفة
الممالك وامتيازه بتخطيط ما فيها من المسالك قال : ولقد كان في
السرب والبلغار من قديم دار إسلام وإيمان ذكر هذا المسعودي في
مروج الذهب واما الآن فقد تبدلت بايمانها كفرا وتداولها طائفة من
عباد الصلبان اهـ .

(١) يعني السلافيين .

(٢) ولكن هذا مجرد احتمال ؛ واقوال كافة الافرنج في هذا الباب دالة على تفرقهم في التاريخ المذكور وعدم
اتحادهم بعد ذلك فعلى هذا يحمل قول المسعودي على اشتباه احدى طائفتي البلغار بالآخرى كما
ذكرناه قبل والله اعلم بالصواب .

(٣) أى بلغار الفونقا .

انظر كيف اشتبه عليه الامر ولم يدر ان مذكره المسعودي وغيره عن هذه البلغار وانها باقية على ماهي عليه من التمسك بعروة الايمان وحبل الإسلام لم يغيرها عما كانت عليه اتحاد الكفرة اللثام وتبقى كذلك - إن شاء الله - إلى آخر الايام بموجب وعده سبحانه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف] ، ولم يتفطن لما وصف المسعودي به البلغار من عدم غيبوبة الشفق فيها ولم يتنبه ان هذا الوصف لبلغار اتل لالبلغار طونة ولم يتأمل فيما ذكره غير واحد ان بين بلغار وقسطنطينية مسافة شهرين او لم يعرف ان هذا الوصف ايضاً هو وصف بلغار قزان لالبلغار طونة ومنشأ الغلط هو الاشتراك في الاسم وعدم التأمل في الاوصاف والموضع وانما ذكرت هذا هنا لتلايق المطالع في الغلط .

قال ابن الاثير في الكامل بعد ذكره ما جرى بين الواسيلي الثاني قيصر الروم وبين البلغار في حدود سنة ٣٠٠ وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة فان هؤلاء اقرب إلى الروم من المسلمين بنحو شهرين وكلاهما يسمى بلغاراً اهـ .

فعلى هذا يخطر بالبال ان ما ذكره المسعودي سابقاً ومن تبعه من غزو بلغار القسطنطينية في التاريخ المذكور هناك لا يكون غزو بلغار اتل بل غزو بلغار طونة فقط وكأنه لم يكن له علم بكون بلغار طائفتين وان التي غزت القسطنطينية هي بلغار طونة لا بلغار اتل والله سبحانه اعلم .

ولما افترق بلغار طونة من بلغار قزان تحولوا من حالة المجوسية إلى النصرانية ولا ادري في اى زمان كان ذلك التنصر فعلى قول الفاضل

الشهاب القراني كان ذلك في سنة ١٨١ هجرية وكان اسم ملكهم في ذلك الوقت باغار فتسمى بعد التنصر ميخائل وقال بعض مؤرخي عصرنا كان ذلك في حدود ٣٥٠ على يدياني^(١) زيمسكس الاول (اظنها شمسية) ولم ينفع الروم تنصرهم اصلا بل كانوا يحاربونهم دائما وقد كانوا ينصرونهم قبل ذلك حتى استعان بهم اليون حين حاصر مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية ولما تنصر بلغار طونة تركوا ألسنتهم وعاداتهم الاصلية واخذوا السنة اسلاوان^(٢) وعاداتهم بسبب كثرة اختلاطهم معهم فهم يعدون إلى الآن من اسلاوان بحسب العادات واللسان لا بحسب الجنس ونحن لا نبين في هذا الكتاب أحوالهم بل احوال بلغار قران كما ذكرنا قبل .

قال كارامزين بعد بيان هجوم بلغار طونة إلى قسطنطينية واسرهم امبراطور لا تين في سنة ١٢٠٥م مصادفة سنة ٦٠٢ هـ وبلغاراتل لم يكونوا مائلين إلى الغزاة قلت قد مر اول كلام كارامزين مقارنة بلغار باوغر واكثر الجغرافيين لم يجدوا مصداقاً للفظ اوغر وهو لفظ تركي معناه اللص والسارق ولعل هؤلاء الذين قد خرجوا من اصل بلاد بلغار كان لصوصهم وقطاع الطريق قد خرجوا للنهب والغارة وطبيعة بلغار طونة تدل على ذلك وبقي في اصل^(٣) بلاد

(١) وهو المشهور في تواريخ الإسلام بدمستق .

(٢) يعني السلافيين .

(٣) ومن الآفة العظيمة قول بعض مشاهير ادباء عصرنا بعد بيان إسلام بلغار اتل ولكن البلغار تركوا وطنهم الأصلي في ذلك الوقت ثابتين على ديانتهم الاصلية يعني الوثنية وهاجروا إلى شبه جزيرة بلقان فلا ادري ان المسلمين في اصل مملكة بلغار هل هم فئة من قوم بلغار بقوا هناك او قوم من التتار الذين اخرجوهم من هناك لا يدري ذلك ١ هـ . وخضاه من وجوه ظاهر فان خروج بلغار من هناك ليس بعد إسلامهم كما عرفت ولا شبهة في كون المسلمين في تلك الديار من قوم بلغار عند احد وكونه آفة ان المقلدين ربما يصدقونه او يقعون في الشبهة لشهرة القائل والله الهادي للصواب ولعمري ان في اثر هذا القائل خطأ كثيرا لا يحصى في مثل هذه المسائل ولا يخفى على ارببه ١٠ هـ منه .

بلغار ارباب التمدن والاستقامة والخيار كما يدل على ذلك طباعهم في جميع الازمان .

وربما اطلق لفظ اوغر واوغرة على ما جار حتى قال كارامزين لما هلكت الوينغرية في دينستر سنة ١٢٣١ ميلادية بقي منه مثل في غاليتسيا وهو لعب دينستر باوغر لعباً مدهشاً ١٥ فعلم من ذلك ان هذا الاسم كان يطلق على ما جار حتى السنة المذكورة وظني انه محرف من لفظ ايغور لا غير والله اعلم .

ثم رأيت في تاريخ عاصم نجيب افندي انه قال ان بعض المؤرخين يرون ان الفاظ اونغر واو نغاريا وانكروس منحرفة من لفظ اون واويغور لكن المجار ينكرون في هذه الاعصر كونهم من اويغور ويدعون انهم من جنس بلغار والله اعلم .

نعود الى كلام كارامزين قال : وبلغار قزان كانوا يرسلون الميرة إلى مملكة سوزدل ويشبعون اهلها وكانوا يوصلون بضائع الممالك الإسلامية المتمدنة ومصنوعاتهم إلى الروسية وربما يوجد على بعد ٩٠ ويرة من قزان و ٩٠ من وولغا الكتابة الأرمنية الباقية من القرن الثاني عشر من الميلاد السادس من الهجري وهذا يدل على ان الارمن المشهورين بالتجارة كانوا يبادلون هناك بضائع الشرق بجلود الروسية وفرواتهم والسختيان العالي المشهور بالبلغار في جميع الاقطار باق ومستعمل ومقبول عند الكل إلى الآن واسمه يدل على انه من مخترعاتهم واعلى السختيان يستعمل في الروسية الى الآن ببلاد قزان وكذلك يوجد في خرابة بلغار الكتابة العربية من سنة ١٢٢٢ الى سنة

١٣٤١ ميلادية وتلك الكتابة مكتوبة على قبور اهل شروان وشماسي ويجد الفلاحون بقرب خرابة بلغار في بعض الاوقات حلى النساء من الذهب وربما يوجد فيه دراهم العرب وربما يوجد دراهم غير مكتوبة بل فيها نقط ولا شك انها دراهم الاميين فتدل امثال هذه الحالات الخطيرة على ان البلغار المذكورة كانت سابقاً على غاية المعمورية .

وقال ايضا كان يعيش على شطوط وولغاواتل قوم بلغار من مدة مديدة ولعلهم ارتحلوا هناك من سواحل دون (تن) هربا من طاعة خوانين خزر الذين كانوا اقوياء في العصر السابع الميلادي وهم قد تمدنوا بمرور الايام والدهور وشرعوا في التجارة وكانوا يتاجرون الروسية بواسطة الانهر الكبيرة : وفارس وسائر الممالك الآسيوية الغنية بواسطة بحر الخزر .

انتهى ما ذكره الشيخ محمود الرمزي عن البلغار وما رأيت من نقل كلام علمائنا الاوائل بهذا الاستيعاب والنقد والفحص مثله فجراه الله خيرا .

المشاهدات البلغارية

يوم الخميس: ١٧/٤/١٤١٥ هـ ، ٢٢/٩/١٩٩٤ م.

من قازان الى مدينة بلغار:

وتبعد مدينة بلغار عن قازان نحو ٢٤٧ كيلو مترا، ومررنا في طريقنا اليها بقرى واماكن فيها مسلمون ومساجد واخذنا من احد الاماكن القريبة من (بلغار) شخصا من كبار المسلمين من اهل المنطقة ليكون عوننا لنا في الحصول على المعلومات التي نطلبها.

كان تحر كنا من فندق تتارستان في قازان في الساعة التاسعة من هذا الصباح على حافلة صغيرة سيئة المظهر لكن تبين انها جيدة وقادرة على السير في الطريق الذي لم يعد كله مزفلتا، وانما فيه اماكن تحتاج الى اصلاح واخرى تصلح.

وكان المرافقون على هذه الحافلة عدداً من الاخوة على رأسهم المفتي رئيس الادارة الدينية في تتارستان الشيخ عبد الله صفا ونائب المفتي الشيخ نور الله والشيخ مارس بن جلال الدين، والياس ابن المفتي وهو شاب تزوج حديثا ودرس العربية في الرياض واثنان اخران، اما سائق السيارة فانه مسلم ولكنه مثل سيارته صبور على الطريق الا انه ليس صافيا، فرغم كونه مسلماً عريقاً من هؤلاء الذين يسمون بالتتار فانه ذكر انه لا يصلى قال لنا ذلك بصراحة، الا انه لم يقل انه يفعل ذلك عن عدم رغبة او عزوفاً عن الدين الإسلامي، وانما هو كأمثاله من المسلمين الضائعين تحت الحكم الشيوعي الملحد في هذه البلاد وما جاورها.

واسم هذا السائق: (البرت بن محمد جان صالح) فحتى اسمه

من أسماء الضائعين فهو اسم مسيحي أو لنقل انه اسم روسي (البرت) رغم عراقة اسم والده (محمد جان) وجده : صالح ، وسالته عن السبب في تسميته بهذا الاسم الغريب عن المسلمين ، فقال : هكذا اسمي ومثلي كثير وقال : انا بطبيعة الحال لم تكن لي يد في اختيار اسمي ، فقلت له الك اولاد ؟ قال ؛ نعم : قلت ما هي اسماؤهم ففهم قصدي من ذلك ، وقال : كلهم اسميتهم بأسماء إسلاميه : وهما ابتان إحداهما اسمها (الصو) و (ال) معناها ملون وصو : الماء فمعنى اسمها اذاً : الماء الملون والمراد بذلك الملون باللون الجميل كما اخبرنا المرافقون وهذا باللغة التتارية المشتقة من اللغة التركية القديمة .

قال والاخرى اسميتها : (مدينة) على اسم مدينة الرسول ﷺ . ومظهره في اللون والشعر يشبه اسمه فهو اشقر الا ان وجهه خال من الصفاء والإشراق مثل كثير من ذوي اللون الاشقر في هذه البلاد .

سرنا في شوارع قازان ومعنا ثلاثة ممن يحسنون العربية ومنهم ابن المفتي الذي تعلم العربية حديثا في الرياض واسمه : إلياس وكان كثير المقارنة لما في هذه البلاد بما في الرياض وفكرته على وجه العموم جيدة جدا عن الحياة في الرياض والتقدم الذي شاهده بل عايشه هناك .

مررنا بأشجار الشوارع فأسرع الاخوة المرافقون يقولون ان هذه الاشجار التي ترونها في قازان لا يثمر منها شيء وانما فائدتها أنها تنقي الهواء وتوفر الاكسجين .

فبادرت هؤلاء الاخوة قائلًا : وماذا عن الشتاء حيث تذهب اوراق هذه الاشجار؟ هل تكون ايضا منقية للاوكسجين مع انها هي تعتبر ميتة وان لم يكن موتها حقيقياً ولكنه كإيقاف الحياة الذي يعبر عنه بالسبات الشتوي عند بعض الحيوانات والحشرات، ولم يجيبوا على ذلك .

مر السائق على محطة لبيع وقود السيارات فبقينا فيها وقتاً على غير طائل ثم وضع في سيارته مع ما استطاع خزان الوقود فيها حملة واخذ ايضا وعائين كبيرين (جالونين) من باب الاحتياط كما أخذ من المحطة زيتا لسيارته ايضا وقد عجبت لسوء رائحة البنزين عندهم مما يدل على انه ليس نقيا نقاء البنزين الممتاز عندنا، وقد أرجعوا سبب تعطلنا عند المحطة بكثرة السيارات وقلة المحطات مع العلم بان سعر البنزين عندهم رخيص فهو تنتجه بلادهم وغيرها من مناطق المسلمين مثل باشقردزستان « بشكيريا » المجاورة وغيرها من انحاء روسيا الاتحادية .

ولم نغادر ضواحي قازان الا قرب العاشرة بعد ان مررنا بضواحي من ضواحيها بعيدة عن مركزها حتى تبدو كأنما هي القرى المنفصلة .

ريف تتارستان:

وقفنا بعد مغادرة قازان في ريف خالص مثلما عليه الحال في اكثر المدن الشيوعية حيث يبدأ الريف بعد مفارقة ضواحي المدينة، وكأنما يحده حد معين، وذلك لصعوبة بناء منازل خاصة للأفراد في الريف المزروع وإنما يكون ذلك للفلاحين الذين يبنون بيوتهم في

الارض التي يزرعونها من المواد الأولية المتوفرة هي الخشب بصفة رئيسية، لانهم يعتنون به في بعض الاحيان ويطلبونه حتى كأنما هو البيت الاسمنتي المعتاد .

وتجلت طبيعة الريف الخضراء في هذا الفصل الصيفي الماطر، وقال الياس الذي عاش فترة في الرياض انه لا توجد هنا ابل فسألتهم عن الياك وهو حيوان رايته في البلدان الباردة جدا مثل منغوليا والتبت ويعتبر من فصيلة البقر ولكن له شعر كثيف فذكروا انهم لا يعرفونه .

وقال احدهم : الإبل في الحقيقة مصنع لحم ضخمة، فقلت نعم، ويزيد من اهمية ذلك كونها تعيش في البلاد الجافة فتحول الشجر الجاف والشبيه بالجاف الي كتل من اللحم والشحم حتى الماء فانه لا تشتط ان يكون عذبا، بل انها تشرب الماء الملح ايضا وتأكل الاشجار الملحة المسماة بالحمض واذا فقدت الملوحة في الماء والاشجار ذهب طيب لحومها ونكهته الجيدة.

وذكرت بهذا ما نشره بعضهم من كون لحم الابل أقل اللحوم الموجودة في جزيرة العرب (صمغيات) وهي المادة التي تتخلف في الدم بعد هضم الشحوم وتسمى بلغة الطب الكلسترول وقلت في نفسي : كأن ذلك بسبب الملوحة في أشجار الصحراء التي ترعاها الإبل وكذلك ملوحة المياه التي تشربها، والله أعلم.

وهنا مررنا بقطيع كبير من البقر فذكروا أن اللحم كثير في بلادهم وان كيلو اللحم الواحد يباع بأربعة آلاف روبل وذلك اقل قليلا من دولارين امريكيين ومن سبعة ريالات سعودية، وهذا رخيص

بالنسبة الى الاسعار العالمية غير انه غالٍ بالنسبة الى دخولهم المتدنية.

موسم جني البطاطس:

مررنا بجماعة كبيرة من الناس في حقل للبطاطس ذكروا انهم جاءوا لمساعدة اهل الحقل على جمع البطاطس وذكر الاخوة المرافقون في هذه المناسبة ان موسم (جمع البطاطس) موسم مشهور عندهم يحدث احيانا ان تأمر الحكومة طلبة المدارس من ذكور واثاث بالخروج الى الحقول لمساعدة الزراع على جمع البطاطس وذلك لكثرتة وعدم وجود آلات زراعية حديثة لجمعه، وعلق الياس بن المفتي على ذلك بقوله: لقد خرجت مدرستنا مرة للمساعدة في جمع البطاطس فتعرفت على الفتاة التي تزوجتها منذ شهر اثناء ذلك العمل.

وهذه الأهمية لجمع البطاطس ناتجة عن أهمية البطاطس في الغذاء لديهم فبلادهم باردة وهم يخزنون البطاطس بطرق قديمة معتادة عندهم لمؤونة الشتاء، وقد رأيت مثل ذلك في سيبيريا عندما زرت مدينة (ايركسك) وتجولت في الضواحي الريفية منها ورأيت الفلاحين هناك الذين يعتمدون على قطع صغيرة من الاراضي ينصبون فيها لهم بيتا من الخشب، ويزرعون البطاطس في فصل الصيف ثم يخزنون ذلك لمؤونة الشتاء ويجعلون إدامه الزبد والسمن الذي يحصلون عليه من حيوانهم المحدود وهو مثل بقرة وبقرتين اللتين تحتاج أيضا الى خزن العلف لها في فصل الصيف للشتاء.

وهذا هو عماد حياتهم المحدودة الاغراض في تلك الأصقاع الباردة النائية.

وذكر الشاب الياس أن مساعدتهم للفلاحين على جمع البطاطس تستمر ما بين اسبوعين وثلاثة يوفر الفلاحون لهم الطعام وتعطيهم الحكومة مكافأة لا تستحق الذكر لتفاهتها.

وذكرت بهذه المناسبة - أيضا - ما رأيته في اذربيجان من كون الحكومة تفرغ طلاب المدارس في موسم جني الزيتون في البلاد للمساعدة على جمع حبات الزيتون التي تحتاج الى صبر وعدد كبير من الايدي، وذلك يتم أكثره في مزارع الحكومة الواسعة، وفي الاراضي العامة التي تديرها الجمعيات التعاونية الشبيهة بالحكومية.

قرية سوبوري :

أخذ الشاب الياس ابن المفتي عبد الله صفا يشير باهتمام الى هذه القرية، ويقول : لقد تعرفت على زوجتي بها ثم تزوجت منها قبل شهر، وهي قرية للمسلمين بيوتها من الخشب تختلف ما بين الجودة في المظهر وبين عدم الجودة بسبب تأثر الخشب بالعوامل الجوية وعدم تجديد طلائه. وسقوفها من الصفيح وهي مسنمة غير مسطحة، وبجانبها ماء مجتمع غير صاف .

نهر ميشا :

وغير بعيد من هذه القرية وصلنا الى نهر (ميشا) وهو نهر متوسط السعة تنتهي مياهه الى نهر ايتل (الفولقا) ، وقد اجتزنا فوقه على جسر قديم .

قرية روسية:

مر الطريق بقرية روسية على اليسار لمثلنا فرأينا فيها منظرًا لم يكن مألوفًا في البلاد الشيوعية من قبل وهو منظر كنيسة مشرفة في مكان منعزل عن بيوت القرية، أما البيوت فإنها مبنية من طابق واحد وكلها ذوات سقوف من الصفيح على هيئة سنام وذلك من أجل ان تنزل عنها الثلوج في الشتاء وهي متفرقة وواضح انها ضيقة المساحة، وتلتف حولها الأعشاب الخضراء مثل بقية المنطقة ومع ذلك فان رؤية الحيوان هنا ليست كثيرة ربما كان ذلك لعدم وجود رأس المال اللازم عند الفلاحين، وعدم الخبرة عند سائر الناس بكيفية تربية الحيوان تربية تجارية والاستفادة من تصدير لحمه وجلده.

ولك ان تعجب مثلنا من الواقع الذي شاهدناه في دولة الاتحاد السوفيتي التي كنا نعتقد انها مثل الولايات المتحدة الأمريكية في التقدم الزراعي واستعمال التقنية الحديثة لما نعرفه ويعرفه غيرنا من قوة الصناعة الحربية فيها، ولكننا عندما شاهدنا الامور فيها على حقيقتها وجدنا العكس من ذلك وعرفنا ان اكثر ما سمعنا عنها ليس صحيحا وانما ضخمته الدعاية المركزة وان مستوى معيشة السكان واستعماله في التقنية هو اقل من كثير من مستوى البلدان الناقصة النمو التي تسمي بالدول النامية، وذلك مع وفرة الامكانيات الضخمة في هذه البلاد فمثلا أرى الآن التبن وبقايا القصب في حقول القمح الحصيد متروكة تكفي للاسهام في طعام الماشية وهي غارقة في الاعشاب البرية النافعة التي تنبت كثيفة بسبب امطار الصيف الغزيرة وحتى اوراق

الاشجار التي بدأت بالتساقط هي ذات مقادير ضخمة يمكن ان يسهم الصالح منها للعلف في علف الحيوان ولكنهم لا يحتاجون اليها .

قرية ايمان كسكا :

مررنا بقرية زراعية اسمها (ايمان كسكا) ظننت اول الامر ان اسمها مأخوذ من الايمان ولكن الاخوة ذكروا ان اصله من اسم شجرة يقال عنها (امان) بكسر الهمزة، وتقع في منطقة زراعية خصبة .

وقفنا في شارعها العام الذي هو الطريق الازفلي الذي نسير معه عند امرأة تبيع تفاحاً طازجاً قطع لتوه من شجره الذي يكثُر في المنطقة وهو من التفاح الابيض الذي ينمو بل يوجد في بلادهم اكثر من التفاح الاحمر المعتاد .

وقد اشترينا منها مقداراً كثيراً لا لشيء الا لكونه يانعاً طرياً رخيصاً اذ قدر الاخوة أن الكيلو الواحد قيمته تساوي ريالاً سعودياً وربع الريال وذلك بالتقدير والا فانها تبيعه جزافاً وليس عندها ميزان، وقد نفعا نفعا عظيماً اذ غسلناه بعد ذلك وصرنا نأكل منه طول الطريق حتى العودة إلى قازان .

وقد التقطت صورة تذكارية في شارعها العام الذي تقع عليه البيوت المسنمة، وابرز المناظر في القرية اكوام ضخمة من التبن المتخلف من القمح ذكروا انهم يضيفون هذا التبن الى الاعشاب التي يخزنونها لعلف الماشية في الشتاء .

وقرية قل يانجي :

هذه قرية روسية رغم ما يوحي به اسمها بأنها تتارية اذ الاسم يلوح عليه الطابع التركي لا الروسي مما يجعلنا نتذكر ان هذه البلاد كانت بلغارية خالصة للبلغار المسلمين الذين كانوا يتحدثون لهجة تركية متفرعة من اللغة التركية القديمة التي يسميها بعضهم بالجتاوية وبعضهم يسميها (الألتاوية) نسبة الى جبال (التاي) المشهورة في تركستان الشرقية .

وبيوت هذه القرية الروسية من الآجر الابيض وبعضها من الخشب، وفيها كنيسة رثة المظهر ويدل ذلك على عدم العناية والاهتمام بها، وقبل الوصول اليها بقليل رأينا حقلا واسعا للبنجر مع أننا لم نر من قبل حقولا واسعة في المنطقة للبنجر، وبقرب القرية ماء مجتمع على هيئة بحيرة صغيرة، ولا تبعد هذه القرية الصغيرة كثيرا عن قرية (إيمان كسكا) السابقة وهي مثلها في كون الاشجار قد غرست على جانب واحد من الطريق وهي التي يقصد منها الجمال والمنفعة للطريق وتغرسها البلديات او مصلحة الطرق في العادة .

لم نقف في قرية (قل يانجي) وانما واصلنا سيرنا مع الطريق الازفلتية التي كانت السيارات بها اكثرها من الشاحنات الحشنة واقلها من سيارات الركوب الصغيرة التي هي بطبيعة الحال من الصناعة الروسية الوطنية واكثرها من طراز (لادا) الذي يشبه (فيات) الايطالية اضاف اليه الروس ما يكسبه قوة، وما يجعله صالحاً للعمل في هذه الاصقاع الشمالية الباردة .

وهنا شاهدنا الحرائق مشتعلة في القصب المتخلف من القمح يحرقونه من اجل ان تخلو الارض منه فتصبح صالحة لزراعة القمح في الموسم القادم، وذكروا ان إحراق هذه البقايا من القمح والاعشاب اسهل عليهم من قطعها وازالتها، ثم ان الرماد المتخلف عن الحرق يفيد في تسميد الارض، وعادتهم ان يبذروا القمح قبل فصل الثلج ثم يتركونه يسقط عليه الثلج فيغطيه وهو يستمر طويلا حتى اذا حل الدفء في الربيع وربيعهم يتأخر عن ربيعنا وذابت الثلوج نبت القمح ونما حتى يؤتى أكله وهو احسن عندهم من القمح الذي يبذر في إقبال الدفء ولا ينزل عليه الثلج، وهذه الحرائق رأينا بعضها مشتعلا وبعضها رأينا آثار الحرق فيه وسط مزارع واسعة من مزارع القمح فقالوا لنا ان هذه مزارع حكومية واسعة وليست للأفراد.

النهر العظيم:

وصل بنا الطريق الى منطقة تجمعت عندها السيارات يتجول عندها عدد من الشرطة فظننتها مركز تفتيش واذا بها ميناء أمام مياه ضخمة كأنها مياه البحر الخضم ولم نكن رأيناها على البعد لان الطريق كانت تحول بينها وبينه ربي خضر حتى وصلناها .

واشار القوم وهم يترجلون من السيارة قائلين: هذا نهر (قاما) انه لا بد لنا من ان نركب نحن وسيارتنا على العبارة حتى نقطعه .

ونهر (قاما) بالجيم المصرية وهي القاف المضرية هو نهر كبير ولكن غطى على كبره في هذه المنطقة كونه يجاور نهر ايتل (الفولقا) ثم يصب فيه بالقرب من مدينة قازان اي انه اعتبر احد روافد نهر ايتل

ولو كان في منطقة منفرداً مثل انفراد نهر النيل لكان له تاريخ حافل
يسمع به الناس كما يسمعون عن نهر النيل .

انني لا استطيع ان اقول انه اكبر او اصغر من النيل الا في رأي
العين من هذه النقطة بالذات ومن نقطة أخرى رأيناه منها فوجدته
اكبر واوسع من نهر النيل ، ومع ذلك لا يعتبرونه هنا الا رافداً واحداً
من روافد نهر ايتل (الفولقا) الذي يعتبرونه نهر الانهار في هذه
المنطقة الغنية بالمياه .

اصطفت السيارات من جميع الانواع امام ميناء العبارة النهري
الذي لا يدل على العناية وبخاصة من ناحية التجميل والعناية المظهرية
والخدمات البلدية ان كانت خدمات مدينة من المدن تصل اليه فنحن
رأيناه منفصلاً عن غيره .

كان ميناء العبارات خالياً عندما وصلنا فصرنا مثل بقية الواصلين
نتجول سيراً على الاقدام واخبرونا ان العبارة هما : عبارتان تسير في
كل نصف ساعة واحدة منها من ميناء الذهاب بالنسبة الى مدينة
قازان والاخرى من ميناء الاياب اي من الضفة الاخرى للنهر .

والضفة الاخرى بعيدة في النظر وهذا هو في رأي العين ومع
ذلك هو نهر لا بحيرة ، ولا يكاد من يراه يصدق بذلك ، بل لاشك انه مثلي
سيظن ان هذه المياه هي مياه بحيرة تنتهي اليها مياه احد الانهار الكبيرة .

والميناء خشبي ، بل كل ما فيه من الخشب وذلك لوفرة الاخشاب
واعتياد القوم على استعمالها في منشآتهم الكبيرة منذ القدم كما كان
مؤرخونا العرب قد نقلوا لنا ان المنازل في (بلغار) هي من الخشب .

موقعنا من النهر:

كان مما استرعى انتباهنا هنا لافتتان كلتاهما بالروسية غير ان في احدهما ما يمت الى العربية بصلة وهي الارقام العربية التي نسميها نحن بالافرنجية وهي المستعملة الان في اوروبا وفي أنحاء العالم كله حتى في الصين واليابان، فليس للروس ارقام اخرى .

وتقول هذه اللافتة يبعد هذا المكان عن قازان ٧٧ كيلومترا وهي لافتة عن يمين الطريق المتجهة الى قازان اي عكس اتجاهنا فموقعنا من النهر - اذاً - يبعد بهذه المسافة (٧٧ كيلومتر) عن مدينة قازان وهي تعادل المسافة ما بين وسط مدينة جدة ووسط مكة المكرمة، واللافتة الثانية باللغة الروسية وحدها فسرنا لنا اخواننا بانها (يمنع مرور اي سائق لا يحمل الاوراق الرسمية) والمراد بالمنع منعه من ركوب العبارة مع سيارته واذا منع من ذلك لم يستطع السير في طريقه لأنه لا توجد وسيلة أخرى لعبور هذا النهر العظيم .

وكان المنظر هنا هو منظر بائعات التفاح الذي تنتجه هذه المنطقة وهن فلاحات قد اذهب القشف وخشونة العيش ما يكون في وجوه امثالهن البيضاوات من تطرية او تمليح، والتفاح غير جيد ولم ار غيره يباع هنا مما جعلني استنتج انه الفاكهة الوحيدة المتوفرة في هذا الفصل من السنة وهذا صحيح .

ولقد قال اسلافنا الأوائل الذين ذكروا بلاد البلغار بأنها لا تنتج فاكهة ولا شك ان ذلك كان قبل استنبات اشجار التفاح وغرسها في البلاد .

رأيت الإخوة يدفعون رسم نقل السيارة والركاب في العبارة ولم اعرف مقداره الا عند العودة .

مدن كثيرة نحتاج الي جسر:

كثُر ورود السيارات فاصطفت صفين حيث طال الصف الواحد وهي تنتظر قدوم العبارة فعلق الاخوة المرافقون على ذلك قائلين: السبب في كثرة السيارات ان هناك العديد من المدن خلف هذا النهر بعضها بعيد عنه وبعضها قريب ولا يوجد جسر على هذا النهر فالناس مضطرون لركوب العبارة هذه .

وهنا تبادر الى ذهني السؤال عن السبب الذي جعل الحكومة لا تفكر في مشروع مد جسر على النهر مع ان عرض النهر كبير أظنه لا يقل عن ثمانية كيلومترات، وقلت: ربما يوجد مضيق في النهر اي مكان في المجرى اضيق من هذا يمكن ان يقام عليه جسر فيسلكه الناس والسيارات حتى وان زاد عليه الطريق الإسفلتي عدة كيلومترات او عشرات من الكيلومترات فهو أسهل وأسرع من انتظار هذه العبارة وضياغ وقت في ركوبها وهي تدب ديباً على الماء، وما يتطلبه ركوبها من اجراءات طويلة وذكر الاخوة ان اضيق نقطة في عرض هذا النهر هي ستة كيلو مترات اما عرضه الذي تقطعه العبارة فاوسع من ذلك كما انه لا عبارة في الشتاء .

وقال الاخوة عندما طرحت عليهم هذه الفكرة ان الجسر لا يحتاج اليه في الشتاء الذي يمتد أشهراً لأن مياه النهر تتجمد فيسير الناس عليها كما يسيرون على اليابسة، وقال الشيخ مارس بن جلال

الدين : لقد لبثت طويلاً اتردد بسيارتي في الشتاء على ظهر هذا النهر
مثلما اسير على غيره من الطريق لان وجه الارض مثل وجه الماء تجمله
الثلوج الناصعة حتى يبدو المنظر جديلاً رهيباً، لان البياض يجلل أى
شيء يقع عليه بصرك .

قالوا : ولذلك لا يحتاج الى العبارة في الشتاء ولسبب اخر ان
العبارة لا تستطيع ان تسير في مياه النهر لو اراد أهلها ذلك لكون المياه
تتجمد فلا تستطيع سفينة أن تمخر عابها .

وجاءت العبارة :

فتوقفت عند ميناء خشبي فيه جسر قصير من الخشب بارز
الصقت به العبارة طرف مدخلها الذي كان واقفاً في مؤخرتها فأسرع
الناس راجلين وعلى السيارات يدخلون في جوفها وظننت ان ذلك
خوفاً من ان تسرع بالإقلاع قبل تكاملهم وتبين ان ذلك غير صحيح اذ
لبث طويلاً واقفة وانما كانوا يسارعون في الدخول حذراً من ان يمتلئ
ظهرها بالسيارات فيضطروا لانتظار العبارة التالية اما نحن فقد
دخلناها راجلين وصعدنا الى ظهرها في جو بديع ذي شمس صافية
تماماً وسط مياه النهر غير الصافية وان كان الانسان يرى بعض
الاسماك تجول في الماء ورأيت بهذه المناسبة صيادين قد طرحوا
شباكهم في شاطئ النهر غير البعيد وقال الاخوة ان الصيد الآن يكون
ثميناً لأن الناس قد يصادفون سمكاً من سمك الكافيار الغالي الذي
ياتي مع النهر عكس تياره حيث يدخله من بحر الخزر المعروف الآن
ببحر قزوين وهو الذي يصب فيه نهر ايتل (الفولقا) فيصعد من البحر

الى النهر فيصطادونه، وتشبه الاسماك السابحة في مياه النهر طيوراً بحرية سابحة في هوائه وسألتهم عما اذا كانوا يصطادونها فأجابوا بالنفي وعللوا ذلك تعليلاً غير مقبول بكون الناس يكتفون بالدجاج عن هذه الطيور وان مستوى المعيشة المنخفض عند بعضهم وغلاء الدجاج عندهم الذي يباع بمثل ثمنه عندنا او اقل من ذلك، وانما ظني ان سبب عدم صيدها هو منع الحكومة مع صعوبة الحصول على بنادق الصيد وذخيرتها عليهم .

وابطأنا في العبارة حيث لم تتحرك من مكانها وقال بعضهم انها لا بد من ان تظل في مينائها نصف ساعة ولو انتهى تحميلها في خمس دقائق، وظني انها بقيت اكثر من ذلك .

وفي الساعة الثانية عشرة تحركت العبارة تتهادى على صفحة المياه العميقة من نهر (قاما) التي تشبه مياه البحر العميق وهذه العبارة خشبية الداخل والخارج، بعيدة العهد بالاصلاح والترميم وليس اشد خشونة منها الاخشونة عمالها الذين رأيت فيهم امرأة تبدو مسترجلة لكون عمل العبارة خشناً شاقاً .

وتتألف العبارة من طابقين معظمهما مكشوف على هيئة سطح وفيها قسم فيه غرف لا أرى الناس يدخلونها، وانما يصعدون معها الى سطح العبارة الذي فيه مقاعد خشبية عديدة يستريح عليها الركاب اذا ملوا الوقوف وهي افضل من الجلوس في السيارة حيث يتمتعون بمراى المياه الواسعة وبالنسيم البحري البليل .

وكان اول ما فعلوه قبيل قيامها ان اطلقوا حبلاً قوية كانوا قد

ربطوا بها العبارة إلى كتل من الخرسانة في الميناء قد وضعوا في جوانبها اطارات فارغة من اطارات السيارات لكي تمتص الصدمات، وعندما سارت الباخرة كان يتبعها نهر من المياه التي تمخرها كالذيل الفضي الضخم لها وترفرف عليها اسراب من طيور النورس المائية التي تهاجر من الجنوب إلى الشمال اذا كان الوقت صيفا في الشمال ثم تعود في الخريف الى الجنوب لتتمتع بصيفه الطويل حين يكون الوقت شتاء في الشمال، وهي تفعل ذلك بما يسميه علماء الطبيعة بالغريزة وهي الهداية الالهية التي لم يبذل احد من الناس جهداً في ان تعرفها تلك الطيور، وقد فهموا ان الطيور هي تفعل ذلك بحثا عن النهار الطويل الذي يمكنها فيه لأن تحصل على غذائها من الحشرات والاسماك الصغيرة وغيرها عندما تبحث عن غذائها في الصيف، اما نهار الشتاء فانه يكون قصيراً لا تتمكن فيه من الحصول على الغذاء اليومي اللازم لها فسبحان الذي ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه : ٥٠].

ومن المناظر المميزة – وعبارتنا تفارق الميناء – منظر الربى الخضر المحيطة بالجهة الشمالية من النهر تبتعد وعبرة أخرى قادمة تقترب، ورجل قد ترك القسم الاعلى من جسمه عاريا اغتناما للشمس مع ان الجو بالنسبة الينا وامثالنا يعتبر بارداً وبخاصة اذا تحرك الهواء النهري الندي وسفن محملة ببضائع واشياء ثقيلة تقطع النهر ايضا لاشك في انها قادمة من اماكن بعيدة وليست من الضفة المقابلة لان مياه نهر (قاما) هذا صالحة للملاحة ولذلك رأيت من بين هذه السفن واحدة

من ناقلات (البترول) الصغيرة، وقد أسرعت العبارة في سيرها عندما امعنت في مياه النهر، حتي صارت تطلق رذاذاً لذيذ الوقع على الوجوه والأيدى في هذه الشمس الصاحية .

وركاب العبارة كلهم من ذوي اللون الابيض، بل الأشقر ما بين فلاحين جاءوا على حافلات او شاحنات خشنة ومدنيين مع سياراتهم الا ان الرفاهية والتنعم بعيدة عن الجميع فالجد وعدم المغالاة في الملابس والاحذية هو الطابع الغالب عليهم .

غداء العبارة:

كان المفتي الشيخ عبد الله صفا رعاه الله - قد حمل معنا في هذه الحافلة الصغيرة من قازان طعاما وشرابا كان منه الماء المعدني وشراب الفراولة الأحمر القاني، والشاي الجاهز المحفوظ في الزمزميات . وقد دخلنا سيارتنا اثناء سير العبارة وتغدينا غداء جيداً من الفطائر والكعك اللين (الكيك) وشربنا من هذا الشراب الجيد، وذلك لعدم وجود المقاصف أو المقاهي في الطريق اذ لم أر منها حتى واحداً في مكان بارز على الطريق اما اذا كان يوجد منها شئ فانه قليل وفي مكان منزوٍ .

وقد عرفت انها تكون معدومة في الطرق في البلدان الشيوعية لكونها وسيلة من وسائل الترف التي لا يليق بالشعب العامل الركون اليها كما يزعمون مع انها موجودة في بلاد الذين يعملون اكثر من عملهم او انهم يعملون مثلهم ولكنهم ينتجون اكثر منهم كالامريكيين والاوروبيين الغربيين .

ولم نطل اللبث في السيارة وإنما اخذنا ما بقي من فتات الفطائر والخبز الذي معنا فرميناها الى تلك الطيور (النورسية) الخفاقة وقفنا على ظهر العبارة نراقب الضفة الاخرى للنهر التي نقصدها وهي تقترب وهي في شمول الخضرة كالضفة التي غادرناها غير ان هذه التي هي الجنوبية ارضها مستوية وليست ذات ربي كالضفة الشمالية.

وعلى ذكر الشمال والجنوب اقول : ان مدينة بلغار التاريخية تقع الى الجنوب من مدينة قازان ولذلك كنا منذ أن غادرنا قازان نتجه جهة الجنوب، وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة كانت العبارة ترسو على الضفة الجنوبية للنهر بعد ان امضت احدى وثلاثين دقيقة في قطع عرض هذا النهر العظيم نهر (قاما) الواسع، واسرعت السيارات بالخروج من العبارة كأنما افلتت من عقاب؛ وانطلق الطريق ونحن نرى من اليمين واليسار روافد للنهر على هيئة مسايل للمياه او نقل انها نهيرات صغيرة متجهة اليه تصب في مياهه التي لن تشعر بها لضخامتها مثل مياه هذه النهيرات الصغيرة؛ وقد نمت اشجار القصب على تلك النهيرات وتكاثفت الاعشاب الوحشية وهي الطبيعية التي لم تستزرع، وبين هذه الاعشاب المختلفة مجامع للمياه على هيئة بحيرات صغيرة غير متصلة بالنهر العظيم ولا بما يصل اليه من مياه النهيرات.

ناحية اليسكي:

وصلنا بعد قليل من مفارقة شواطئ نهر قاما الى ناحية اسمها (اليسكي) أهم ما فيها اكوام التبن المكومة في حقول القمح الحصيد الذي أخذوا الحب منه.

ومن اللافت للنظر ان حاصداتهم او حاصديهم لا يستقصون
حصد القمح من اصوله بل يتركون مقدراً من القصب في الارض ربما
كان ذلك لعدم مبالاتهم بالتبن لرخصه لديهم بسبب كثرة الاعلاف
من الاعشاب وغيرها، او لعدم قدرتهم على ذلك .

القمح العجيب:

رأيت بعض الحقول فيها نبات قد اطل من الارض لتوه
فاخبروني انه القمح بذره اهله الان مع انهم لن يحصدوه الا بعد
شهور طويلة عندما تذوب الثلوج في الصيف وذكروا انهم بذروه
الآن ويحصدونه ثم ينزل عليه الثلج فيدفنه حتى يخيل لمن لا يعرف
امره على حقيقته انه قد مات وانه لانشورله بعد موته، غير انه يحيا
بعد ذلك الموت ويوجد حتى يحصدوه في الصيف .

وهذا امر عجيب ولكني تذكرت ما كان قومنا يقولون في
امثالهم « يا الله بركة مجرود والاً مصرود » يسألون الله ان يبارك في
زرعهم والمراد به القمح كما يبارك في الزرع المجرود وهو الذي اصابه
الجراد والمصرود الذي اصابه الصرّد وهو البرد الشديد وذلك ان الجراد
لا يأكل شيئاً من جذور الزرع ولا من اسافله والبرد لا يقضي عليه وانما
يقتل اوراقه الغضة التي ما يلبث الزرع ان يخرج اوراقاً بديلة عنها اذا
ذهب عنه البرد، مع ان البرد الشديد عندنا هو الريح الباردة وهو ايضا
القفصة التي يراد بها البرد الشديد من دون ريح ولا ينزل الثلج فيها
عندنا وان كان قد ينزل الصقيع في الليالي الشديدة البرد .

قالوا: وقد اعتاد الزراع عندنا على ان يحصدوا هذا القمح مع

قطع الاعشاب المجاورة له قبل سقوط الثلج الذي يبدأ بالتساقط بعد شهر من الان اي في النصف الثاني من شهر اكتوبر، ويقطعون الاعشاب وقد نقول يحصدونها لارتفاعها عن وجه الارض اكثر من متر مثل اكوام ضخمة من الاعشاب نراها الان قد كوموها واعدوها لعلف الماشية في الشتاء.

وانطلقت السيارة في جو زراعي خصب كل مافيه يدل على ذلك، وتخيلت الشتاء الأشهب الكالح عندهم فتذكرت متوسط البرودة المعتاده عندهم ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر! وفي هذه المنطقة الخصبة بالذات، اما الطريق فانه ازفلتي ولكنه ضيق كثير الحفر والنقر ولكنهم يسعون في اصلاحه الان وقد رايتهم يفعلون ذلك في اكثر من موقع فيه.

هذا وقد واصلنا السير فقلت القرى في الطريق رغم الخصب الظاهر في المنطقة ومن مظاهر ذلك ان رايت اكواما من التبن المتغير للسواد ذكروا انه من تبن الموسم الماضي اتى عليه ثلج الشتاء ومطر الصيف دون ان يحتاجوا اليه لكثرة التبن الجديد ففسد القديم، وما زالت مزارع القمح الواسعة تغطي المنطقة والمراد بذلك اثار القمح الحصيد.

بلدة بازارني ماساجي:

وصلنا الى بلدة اسمها (بازارني ماساجي) وهي واسعة متناثرة المنازل بيوتها من طابق واحد متفرقة، حتى تبدو على البعد اشبه بالخيام وفي وسطها بعض البيوت الخشبية من طابقين، وهذه القرية

زراعية معظم اهلها يشتغلون بالفلاحة وقد رأيت امرأة على قدميها حذاء جلدي ثقيل يصل الركبة في ارتفاعه وهو ضروري هنا لوقاية الارجل من الثلج والماء البارد، ووقفنا في احد شوارع هذه البلدة الخالية من الزفت ومن اي مظهر آخر من مظاهر العناية البلدية، وقد مرت بنا شاحنة (قلاّب) فاثارت عاصفة من الغبار لم تهدأ الا بعد فترة والتف علينا جماعة من الصبية البيض بل الشقر وتبين انهم كلهم من أبناء المسلمين ويحملون اسماء إسلامية واضحة وسألت احدهم عن اسمه؛ فقال (رسلان عثمان) ومن اسماء الآخرين التي اخبرونا بها عندما سألتهم: فاتح وابراهيم ورايف وريس.

وكانت الوقفة عند بيت اخ مسلم تبين فيما بعد انه نافع لنا اذ أخذنا الى موقع مدينة بلغار التاريخية وعشانا في بيته فيما بعد، وبيته ريفي تزين اطرافه اشجار التفاح الثقيلة بالثمار فهذا اوان ادراك التفاح في هذه المنطقة.

ومع الإهمال في الشارع والمرافق العامة في البلدية فان اكثر بيوتها تبدو ذات مظهر جيد كبيت هذا الاخ المسلم المبني من الآجر وسياحه الخارجي الذي يضم في داخله فناء البيت هو من الأخشاب القصيرة، وقد خرج الينا صاحب البيت مرحباً وهو الاخ (سلطان احمد) تتاري من هؤلاء الذين يسمون بالتتار وهم البلغار الذين لا تربطهم رابطة من شبه أو لون بتتار المغول، وفي البيت اشجار قديمة من اشجار التفاح وخضرة ليس فيها مما يؤكل شئ وهذا عجيب في امرهم حيث تكثر الامطار في فصل الصيف ولا يستغلون ذلك في

زراعة بعض الخضروات التي يمكن ان تنمو في بلادهم وان تثمر قبل ان يحل موسم البرد الذي يقتلها، وقال الشاب الياس : ان هذا الفصل الدفئ ينقضي بسرعة ثم ينزل الثلج فلا ينتفعون من الأرض بأي شئ . قال ذلك لكونه يعرف من احوال بلادنا التي عاش فيها نحو السنتين ان ارضنا لا ينقطع عطاؤها حتى في الشتاء ، ولم يقله بقية المرافقين الذين يظهر انهم اعتقدوا حتى من دون تفكير ان اكثر البلدان كبلادهم يموت ما عليها من خضروات واشجار في فصل الثلج الطويل .

مغادرة بازارني ما ساجي:

تبعد (بازارني ماساجي) ١٤٠ كيلو مترات من قازان وما زالت في الطريق الى مدينة بلغار بقية طويلة .

ركب معنا الاخ سلطان بن احمد في سيارتنا لنواصل سيرنا تجاه مدينة بلغار، وفي طرف البلدة اعترضتنا امرأة تكلمت بلغتها المشتقة من التركية القديمة بحدة ففسروا كلامها بأنها تقول لقد انتظرنا المساعدة على بناء المسجد مدة طويلة فمتى تاتي ؟

وقلت في نفسي : انها ستأتي أقرب مما تتصورين، وقلنا لها علناً : انها قريبة بعد ان نزور الارض التي حصلوا عليها لبناء المسجد وذلك بعد العودة من زيارة مدينة بلغار .

سكان البلدة:

هذه البلدة مختلطة السكان إذ يبلغ مجموع سكانها خمسة

الاف وخمسمائة نسمة منهم ثلاثة الاف وخمسمائة من المسلمين والبقية من غير المسلمين من الروس وغيرهم ممن يمتون اليهم بصلة النسب او اللغة، ومعنى هذا ان الغلبة في سكانها هي للمسلمين ومع ذلك لم يتمكنوا من بناء مسجد فيها وان حصلوا على الارض وصاروا يسعون في جمع التبرعات لبنائه، ورأيت فيها شيئاً استرعى انتباهي واعاد الى ذهني مناظر مشابهة في اماكن باردة اخرى وهو منظر أسراب كثيرة من البط الأبيض الكبير يتهاذى في شوارع القرية الترابية او يسبح في مناقع المياه فيها، وهذا امر رأيت في معظم القرى المسلمة من بلاد القوقاز وبخاصة في بلاد الشركس وقد ذكرت ذلك في كتابي «بلاد الشركس الاديجي» كما كنت قد رأيت مثلاً له في القرى الإسلامية في بلاد ما وراء النهر.

ولا شك في ان اتخاذ البط من قبل المسلمين يقابله اتخاذ الخنازير من قبل غيرهم، مع اننا لم نلاحظ في هذه المنطقة وجود اي خنزير فيها، وربما كان المسيحيون او غير المسلمين يراعون مشاعر المسلمين في عدم وجوده، مع كونهم أي الكفار يأكلونه اذا وجدوه.

ومن المناظر التي تسترعي الانتباه منظر انابيب المياه او هي انابيب الابخرة الساخنة قد نشروها في البلدة ولكنهم لم يدفنها تحت الارض كما نفعل نحن في انابيب المياه، وانما جعلوها عالية فوق ارض الشارع بنحو نصف المتر، وتلك عادة في البلدان الروسية والبلدان الشمالية التي يسيطر عليها الروس حيث تعمل الحكومة على مد انابيب الأبخرة الحارة من اجل التدفئة في الشتاء في انابيب مكشوفة

فوق سطح الارض وذلك لشدة البرد في تلك المناطق، وهذا شئ لا يتصوره المرء منا في الوقت الحاضر لان الوقت يعتبر صيفا عندهم وجميع من نراهم من الناس هنا يرتدون الملابس الخفيفة .

كانت مغادرتنا قرية (بازارني ماساجي) في الساعة الثانية والنصف ظهراً وشاهدنا اعمدة الكهرباء تماشي الطريق وفي خارج المدينة نساء قد اجتمعن في وضع لا يدل على الارتياح في انتظار وصول الحافلة لتنقلهن الى ما يريدن الذهاب اليه .

ومازالت المنطقة منطقة زراعة القمح يظهر ذلك من اكوام التبن الضخمة التي ترى من الطريق في اي اتجاه .

وقد نوه المرافقون بأن جميع المزروعات هنا لا تسقى وانما تشرب من الامطار الصيفية او من ذوب الثلوج في الشتاء ونوهوا بأن زمن الثلج يستمر من ٥ اشهر الى ٦ وعلى هذا يكون نصف الزمن عندهم شتاء ومررنا برجل واقف عند سيارة له متعطلة ورثينا لحالته لانه لا توجد خدمات للسيارات على الطرقات والهواتف قليلة ووسائل اسعاف السيارات السريعة بطيئة او غير موجودة الا ان الشئ الطيب هو غلبة الامان حتى في هذه البرية فالسرقات قليلة والاعتداءات المسلحة أقل .

وعاد الحديث الى الخصب وانتاج الارض فقلت لهم ما لم يفهموه وهو ان بعض البلدان المتقدمة في الادارة مثل الدانيمرك طورت المجال الزراعي حتى غدا يدر عليها مداخيل ضخمة مثل المداخيل الصناعية عند الدول الصغيرة الاخرى وقلت لهم ان

والخبره الجيدة ان تستفيدوا فائدة عظيمة من ارضكم هذه عن طريق
تربية الحيوان واستغلال ماتنتجه من البان وزبدة الى جانب اللحوم
التي يزداد سعرها في العالم يوما بعد يوم .

وكثرت الحرائق التي اشعلها المزارعون في مخلفات القمح وفي
الأعشاب الوحشية التي في الحقول من اجل تطهيرها من ذلك تهئية
لزراعتها المقبلة .

قرية جغاصوما :

مر بنا الطريق بقرية زراعية اسمها (جغاصوما) كان من المناظر
فيها اسراب من الغربان لا ادري سبب وجودها هنا وجرار زراعي
يحرث ارضا غير واسعة .

هذا وقد دخلنا الى منطقة اسمها (سمسك) كتب اسمها عليها
باللغة الروسية مثل جميع الافات المكتوبة بالحروف الروسية دون
استثناء وان كان القليل منها باللغة التتارية بالحروف الروسية .

قرية نيكولسكي :

وصل بنا الطريق الى قرية روسيه اسمها (نيكولسكي) تقع على
نهر صغير اسمه (نهر بزدانه) .، وقد واجهنا عندها أول شرطة يسألون
الناس في الطريق ولم يخبرنا المرافقون عن الغرض من سؤالهم للسائق
وبعض الركاب ولكن ليس مهما لانه لم يترتب عليه شيء .

واصلنا السير ولم نتوقف فكان من الاشياء الظاهرة في الطريق

شاحنات روسية عريضة وهي التي عرفتھا في بلدان الاتحاد السوفيتي حيث تكون خشنة قوية لم يراع فيها جمال المنظر ولا انسيابية الحركة بقدر ما روعيت فيها القوة .

ولم تنقطع مظاهر الزراعة الواسعة واهمھا حقول القمح الحصيد الذي هو ملك للدولة وبقيت منه اكوام التبن الضخمة وبجانبيھا اكوام الاعشاب التي جمعوها للاعلاف وكلھا تظهر على البعد كأنما هي البيوت المتفرقة .

واستمر الطريق وشعرنا بأنه قد طال اكثر مما قدرنا، وقلت في نفسي: ان (بلغار) تستحق ذلك ثم رجعت باللوم الى نفسي على هذا الخاطر الذي يستحي المرء منه اذا ذكر ان أسلافاً من أسلافه قد انفقوا كثيراً من المال والجهد والوقت وساروا أحد عشر شهراً في الطريق إلى بلغار مع المشقة والخوف من اللصوص، والمغيرين ومعاناة قسوة البرد وربما يأتي ببيان ذلك في آخر الكلام على بلغار – إن شاء الله تعالى – .

وكان من أجمل المناظر التي ترى في حافات الطريق الزهور الربيعية التي يصح ان توصف هنا بأنها الزهور الصيفية لأن صيفهم هو ربيعهم وربيعهم الذي يوافق زمنه زمن ربيعنا هو شتاء او كالشتاء في برده وثلجه ومن اللافت للنظر اني رأيتهم قد بنوا على الطريق محطات للحافلات بلبن الآجر الأزرق اللون، ولكنني لم اصادف حافلة واحدة في هذا الطريق لا سائرة ولا واقفة .

حدود بلغار:

وصلنا حدود المنطقة التي تقع فيها مدينة بلغار التاريخية وهذا هو المراد بحدود بلغار وإلا فإن حدود دولة بلغار الإسلامية هي واسعة بحيث تشمل جمهورية تارستان هذه كلها وما كان منها شمالا حتى منطقة القطب الشمالي، ووجدنا عند مدخل المنطقة على الطريق عدداً من رجال الشرطة اطلعوا على أوراق السيارة ثم سمحوا لنا بدخول المنطقة دون اي تعقيد .

كان وصولنا الى بلغار في الساعه الثالثة من بعد الظهر، وكان اول ما يميز مدخل منطقة المدينة نصباً من حديد أبيض مكتوباً عليه اسمها باللغة الروسية، وكنيسة من الصفيح الخفيف .

وقد تأثرت جدا اذ المفروض ان يكون في مدخل المدينة مسجد على الطراز المعماري القديم المعروف في هذه المنطقة وذلك بأن تاريخها كله انما هو تاريخ إسلامي مجيد، ولم يحدث قط ان حكمها المسيحيون بعد إسلام اهلها الا بعد ان سقطت دولة المسلمين في قازان .

هذا بالنسبة الى المنطقة واما بالنسبة الى المدينة فانها منذ ان اجهز عليها القائد الروسي بجنوده وهو باسيل الثالث امير امارة موسكو في عام ١٤٣١م لم تقم لها قائمة غير ان دولة المسلمين في قازان، استمرت حتى قضى عليها القيصر ايفان الرابع المسمى عندنا بايفان الرهيب في عام ١٥٥٢م وبأمره أقيمت كنيسة بجانب المسجد الجامع، بل ان بعض الاحجار التي كان الجامع مبنيا بها أخذت بعد

هدمه وبنيت به الكنيسة وسوف يأتي الكلام على ذلك في المشاهدات عندما نصل الى وصف مابقي من الآثار التاريخية فيها .

إننا نقول إنه لا بد ان يبنى مسجد هناك ونحن نعرف ان نفوذ الاخوة المسلمين في بلادهم ضعيف في الوقت الحاضر وانه كان اكثر ضعفا في الماضي القريب الذي صاحب الحكم الشيوعي ، وكان اكثر من ذلك ضعفا او في مثله في العهد القيصري الروسي بعد سقوط قازان الى قبيل العهد الشيوعي ، ولكننا املنا في ان يعمد المسؤولون الروس الى بناء المسجد من أجل الوفاء للحقيقة التاريخية ، ومجاملة لمن يزورون المنطقة من المسلمين الاجانب والمواطنين من خارج (تتارستان) .

وصلنا البلدة الجديدة ويسمونها (بلغار) أيضا على اسم المدينة التاريخية فوجدنا بيوتها متفرقة اشبه ماتكون بالخيام مع انها من الاخشاب والآجر الابيض ذات سقوف من الصفيح ، ولاحظت كثرة الغربان والبط فيها رغم ما بين هذين النوعين من الطيور من تنافر مما لم أر له مثيلا فيما يتعلق بالغربان الا في مطار الجنوب في موسكو عندما اقلعنا منه كما تقدم .

لوحة تذكارية:

وقفنا عند لوحة تذكارية واضحة مكتوبا عليها مايلي بالروسية (آثار قديمة، دولة بلغار كانت في القرن العاشر، يحفظ من الحكومة) .

اي أن أوامر الحكومة تقتضي المحافظة على هذه الآثار وقد

رأيانهم فيما بعد قد حافظوا عليها بالفعل ؛ كما كتبوا المعنى نفسه باللغة التتارية الشائعة في هذه الجمهورية ولكن بالحروف السيريلية المسماة بالحروف الروسية وهي حروف سلافية مخالفة للحروف اللاتينية .

العواصف والعواطف:

بينما كنا نقف عند اللوحة التذكارية كانت تهب على ذهني ، بل في ضميري كله عواطف كأنها العواصف من الأسى والحزن على ما وصلت اليه حال أهل الإسلام حتى آل الامر بهم الى سقوط دولة مسلمة ، بل ذات تاريخ مجيد في الإسلام وكانت تمثل اقصى أم الإسلام من جهة الشمال واقربها الى القطب الشمالي ، وكانت قد انضمت الى حظيرة الإسلام عن طيب خاطر وبدون غزو او فتح كما سبق فيما نقلناه وتأتي تنمة لذلك فيما نقله بعد ذلك إن شا الله تعالى .

بينما كنت كذلك واخوتي المرافقون ؛ كانوا يذكرون انهم يعانون مثله إذ هبت علينا عاصفة قوية ولكنها قصيرة العمر من عواصف البرية كأنها هي عواصف الصحراء عندنا في آخر فصل الصيف الذي يسميه عوام الكتاب عندنا بفصل الربيع .

فعجبت من تشابه الامر وارجو الايسرع القارئ الكريم فيحكم بأن هذا من سداجة الرأي او من التجوز في القول فقد تخيلت هؤلاء الاخوة المسلمين على خيولهم وهم ينادون بكلمة التوحيد : الله اكبر ، الله اكبر ، كما تخيلت ملكهم (المش بن بالطوار) الذي هو أول ملك يسلم منهم وهو يستقبل رسول الخليفة العربي المسلم المقتدر بالله

الذي وصل الى بلادهم بناء على طلب منهم من أجل ان يعلمهم أمور دينهم فوصل اليهم بعد أن قضى فى الطريق إليهم أكثر من أحد عشر شهراً .

ثم تصورت هدم المسجد الجامع وتخريب هذه العاصمة المسلمة ومحاولة محو آثارها الإسلامية عند تخريبها حتى تصور المتصورون من الاعداء والاصدقاء أنها لن تقوم فيها للإسلام قائمة ولن ترتفع في جوها منارة ترمز الى توحيد الله، ولكن الله اخلف ظنهم وها هو المسجد الجامع الجديد فيها يشاد بهمة الاخوة المسلمين من أهلها وهو المسجد الذي سنزوره بعد زيارة آثار المدينة التاريخية .

وتجاوزنا بلدة بلغار الحديثة متجهين الى آثار المدينة التاريخية فرأينا عند حافة هذه البلدة أيضا كنيسة نظيفة المظهر ذات مبنى معتنى به، وقد طلي أعلاها باللون الأخضر .

فى مدينة بلغار التاريخية :

وصلنا الى فراغ من الارض عندما غادرنا بلدة بلغار الحديثة التي يسميها بعضهم قرية بلغار لصغرها وسرنا فيه نحو ١٨٠٠ متر وإذا بنا نصل مساحة محجوزة بسياج من الحديد وقفنا عندها فاستقبلتنا اخت مسلمة اسمها (رويلة بنت رشيد) وهي من اهل بلغار المسلمين الذين صاروا أقلية قليلة في موطن امجاد البلغار المسلمين . و(رويلة) خبيرة بأمر هذه الآثار تشرح من أمرها ما خفى على السياح، كما كانت الأخت رويلة ترتدي لباساً عصرياً ولكنه سابغ وتضع على رأسها منديلا يستر شعرها وهو ما لاتفعله هنا إلا المسلمات .

وقفنا عند بوابة قصيرة لا يزيد طولها على متر واحد لأن السياج كله كذلك .

تاريخ مدينة بلغار:

قالت الأخت الدليلة رويلا: لقد اعتنق البلغار المسلمون الدين الإسلامي في عام ٩٢٢ للميلاد وبنوا مسجد بلغار التاريخي هذا الذي ترون بقاياه في القرن العاشر الميلادي، وكان بناؤه من الخشب في أول الامر لأنهم هكذا كانت بيوتهم من الخشب .

قالت: وعند ما احتل القيصر (اي فان قروزني) مدينة قازان عام ١٥٥٢م كانت مدينة بلغار خالية تماما من السكان ولم يكن يأتي إليها الا بعض السكان من أجل الصلاة في مسجدتها للتبرك .

الكنيسة من احجار المسجد:

الاخت رويلا موظفة في مصلحة الآثار ولذلك كانت تتجنب في اثناء الشرح ايضاح بعض الاشياء المعروفة في المنطقة التي كان مرافقونا يعرفونها .

ومن ذلك أنها قالت - ونحن نقبل على كنيسة ظاهرة باقية على هيئتها القديمة، وهي بجانب بقايا المسجد التاريخي - : لقد بنيت هذه الكنيسة في عام ١٧٣٧م عندما زار القيصر الروسي بترو الاكبر هذه المدينة لمدة ثلاث ساعات أمر ببناء الكنيسة وكان تاجر روسي من المقيمين في قازان اسمه ميخائيل قد قدم تكاليف بنائها الى القيصر ورغب أن يأمر القيصر ببنائها على أن يتحمل التاجر نفقات البناء .

وقالت : لقد وجد ابن فضلان وهو الكاتب العربي الذي رافق البعثة التي بعثها الخليفة المقتدر اليهم عندما وصل في ١١ مايو عام ٩٢٢م عندهم خمسة مساجد أوقالت لقد بني في عهد ابن فضلان خمسة مساجد ولكن لم يبق الآن لأي منها أثر او حتى معرفة موقع الا هذا المسجد القديم الذي بقاياها ظاهرة .

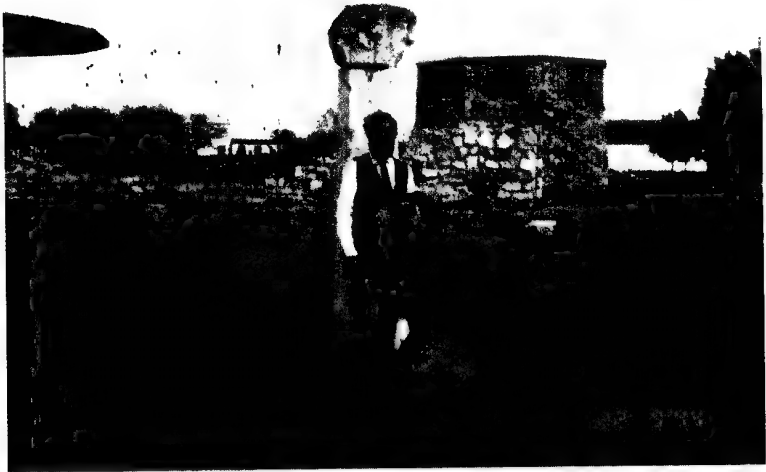
وكانت المساجد القديمة الخمسة كلها من الخشب ولكن هذا المسجد التاريخي مبني بالحجارة بناءً قوياً في القرن الثالث عشر كما يتضح ذلك من بقاياها التي تشاهدونها .

واقول إن وصول ابن فضلان اليها كان في ١٢ محرم من عام ٣١٠ هـ بناءً على طلب ملكها المسلم (المس بن بالطور) الذي هو أول الملوك الذين أسلموا من اهلها ، وكانت الدليلة تتكلم بلهجتها البلغارية او لنقل التتارية فكان يصعب على الاخوة المرافقين متابعتها في فهم ما تقوله مع أنهم مجاورين لها فاضطرونا الى ان يترجم لنا أحدهم ما تقوله بالعربية ثم اضطررنا الى ان نتكلم معها بالانكليزية بحكم عملها في شرح حال هذه الآثار بالانكليزية للسياح من الاوروبيين والامريكيين .

وقالت الدليلة : لقد خرب هذا المسجد (باتو خان) وهو حاكم مسلم غزا المدينة وظني انها بذلك تريد أن تبعد التهمة عن الروس في تخريبها لان الثابت تاريخياً انه غزاها واضرم النار في بعض منازلها الخشبية ولكن المسجد مبني من الحجر بناءً قوياً وليس من المستساغ

عقلا أن يخرب حاكم مسلم جنده ايضا مسلمون مسجداً قويا لمجرد
خلافه مع أهل البلدة التي يوجد فيها .

والدليل على عدم صحة ما نسب الى (باتو خان) من تخريب
المدينة ما ذكرته الدليلة نفسها من كونه أشعل النار فيها عام ١٣٧١م
واقام فيها خمس سنوات؛ فكيف يقيم فيها خمس سنوات اذا كان
خربها تخريبا؟ فضلاً عن كونه يهدم مسجدها وانما الذي فعله فيما
يظهر أنه أحرق جزءاً منها لكي يتغلب على مقاومة اهلها ثم استقر
فيها ٥ سنوات عندما تغلب عليهم .



[المؤلف عند عمود باق من اعمدة المسجد]

والمفهوم المعروف لنا الآن ان الذي خرب مدينة بلغار ذلك
الخراب الذي لم تعمر بعده هو (باسيل الروسي) .

والشيء الذي لم تقله الدليـلة ولكن قاله لنا احد المرافقين بالعربية :
ان اساسات الكنيسة وحيطانها بنيت بحجار مأخوذة من المسجد ولا
مجال للشك في ذلك لانني رأيت انا وبقية المرافقين حجارة في أسفل
جدران الكنيسة عليها كتابات بالحروف العربية التي كان يكتب بها
القوم لغتهم وبعضها ظاهر منه أنها ربما كانت آيات قرانية غير أننا لم
نتأكد من ذلك بسبب اختفاء بعضها في داخل الجدار .

وقالت الدليـلة : لقد كان المسجد الجامع هذا في وسط المدينة ولا
نرى الآن أى شيء مهما من منازلها حوله لأنها كلها كانت قد أحرقت .
وعادت الدليـلة لتقول : لقد استخدمت بعض حجارة المسجد
التي كانت ساقطة في بناء الكنيسة لان الكنيسة بنيت بالحجارة مثلما
بنى المسجد .

المسجد التاريخي:

صعدنا إلى المسجد التاريخي أوبأ لاصح أن يقال فيه بقايا
المسجد التاريخي او (أشلاء المسجد التاريخي) مع درج حجري
خشن نحو المتر حيث لازالت بقايا المسجد وعمود او عمودان منه
باقية كأنما لتشهد على ما فعله الخلاف والتنازع بين المسلمين الذين
مكنوا لعدوهم بذلك من أنفسهم ويقع ملاصقاً للكنيسة .

وقد قال احد الذين رأيناهم في المكان : ان هذا المسجد كان
يرتفع ٢٥ متراً قبل هدمه ،

وكان التاجر ميخائيل قد طلب من القيصر ان يبنى برج الكنيسة

بحيث يعلو على منارة المسجد او على الأقل لا يقل عنها علواً في ذلك الوقت .

والمسجد وأسع جداً لا تزال حدوده موجودة بل ظاهرة ذكرت الدليـلة أنه كان يتسع لألف مصل وانه عندما جرى الاحتفال بمرور الف سنة على اعتناق أهل هذه المنطقة الدين الإسلامي قبل سنتين صلى فيه بالفعل نحو الف مصل ، هذا مع ان أرضه غير مستوية ولكنها قد اكتست بساطا من الاعشاب البرية الخضر جعلت الصلاة عليه مريحة ، ولا تزال بقايا حجارتـه ساقطة بأكوام كبيرة لم تنقل وهى من الحجارة المهذبة .

نـجـب اعادة بناء المسجد :

هذا المسجد بيت من بيوت الله ذكر اسم الله فيه قرونا متطاولة وهو يمثل قلب الحضارة الإسلامية لأمة مجيدة اخنى عليها الدهر وقد أهين حتى بنيت بحجارتـه التي نقشـت عليها الجمل والكلمات العربية الإسلامية أساسات كنيسة مجاورة لالشيء إلا لكي توجد الكنيسة بجانب المسجد وتغطى عليه والا فانه لم يكن يوجد سكان مسيحيون في المكان عندما بنيت الكنيسة ولا يزال الامر كذلك حتى الآن .

ولذلك كنت أفكر فيما ينبغي أن نفعله تجاه هذه الآثار الإسلامية لالـكى نخلصها وننقذها ، وانما من اجل ان نشرح حالها ونوضح ما كان من أمرها لأبنائنا وأبناء المسلمين حتى يأخذوا العبرة والموعظة لئلا يتكرر في مكان آخر من العالم الإسلامي الواسع ما حدث هنا لهذا المسجد .

وقلت : إن أول شيء يجب أن نفعله هو أن نعيد بناء المسجد كما كان فالسياح من المسلمين وغيرهم يأتون اليه كل يوم فيصلي منهم من تدركه الصلاة فيه وقد يتطوع متطوع بالصلاة حتى في غير أوقات الصلاة المفروضة، ثم ان في ذلك رفعا لمعنويات أبناء المسلمين في هذه البلاد وتذكيراً حياً بماضيهم المجيد بدلاً من ان يروه مهانا محطماً .

وبناء المسجد واعادته الى ما كان عليه ليس غريباً على الاخوة المسلمين في الحواضر الإسلامية الذين يملكون ثروات طائلة وأموالا جمّة، وعندهم من الرجال الكفاء الذين يستطيعون ان ينفذوا ذلك بطريقة مناسبة بل مشرفة، ويمكن ان يستصдروا الاذن من السلطات بأن يبنوا فندقا او حتى نُزلاً صغيراً لأقامة السياح غير بعيد من المسجد يكون موقوفا على المسجد ويخصص زيعه لمصلحة المسجد .

وبينما كنت افكر ذلك ونحن في بطن المسجد أو لنقل في وسط أشلائه، رأيت الدليلة المسلمة تشير إلى ناحية ملاصقة للمسجد، وتقول : إنهم الان - تريد المسلمين واطنّها تعني حكومة تاتارستان - بدأوا بإعادة وبناء منارة المسجد ليعيدوها كما كانت على علو ٣٠ متراً لتكون أعلى من برج الكنيسة الذي بنى معاندة للمسجد بخمسة أمتار، وقد صبوا أساس المنارة بالاسمنت المسلح القوي في مكانها القديم من المسجد .

شواهد تاريخية:

لبشنا فترة اكثر مما قدرته الدليلة ، واكثر مما اعتاد غيرنا ان يلبث

في المسجد لذلك نادتنا للقيام بجولة على بقية آثار مدينة بلغار .

الأثر الأول : كان الذهاب الى مبنى أشبه ما يكون بالمحقرن المقلوب اوالمقرب تقريبا حاداً وهو مبنى بالحجارة والطين وقالت الدليلة : انه ضريح وتبين انه بالفعل مقبرة لجماعة ربما كانوا من الملوك والأمراء القدماء ولكنها ذكرت أنه من غير المعروف اسم الشخص الذي دفن فيه او صفته، وظني ان ذلك غير صحيح لأن المكان قديم ولن يخفى على علماء الآثار أمره اوحتى مجرد تقدير البناء المقام عليه، ويبعد عن موقع المسجد والكنيسة بنحو ٨٠ متراً وقد كتبوا عليه باللغة العربية العبارة التالية : (**الضريح الشمالي القرن الرابع عشر**)، وهو مقبرة بدون شك اذ راينا قبوراً في داخله لاتزال شواهدا باقية فوقها كما رأينا قبوراً أخرى في خارج المبنى ليست عليها شواهد وظني أن شواهدا قد نقلت الى مكان آخر .

دخلنا الضريح الداخلي فوجدنا فيه كنوزاً اثرية من شواهد القبور التي عليها كتابات بالحروف العربية وليس عليها كتابة بأية حروف أخرى غيرها، وبعض هذه الحروف باللغة العربية كلها، وبعضها بلغة القوم وهي اللغة البلغارية وهي احدى فروع اللغة التركية القديمة المسماة بالجغتوية، او الالتائية وهي تختلف عن لغة تنارستان التي يتكلم بها اهل قازان الآن، ولا يتكلم بهذه اللغة الآن الا بقايا البلغار الذين منهم الدليلة؛ هكذا اخبرتنا الدليلة وهكذا اخبرنا غيرها . ولا يقلل من أهمية هذا الكنز الأثري الذي هو أشبه بمعرض اللوحات الاثرية العربية الا ضيق الوقت بالنسبة لنا وعدم وجود اى

نور في المكان الخالي من النوافذ وحتى بابه فانه كان ضيقا لا يسمح بنفاذ ضوء كبير.

وسألت القوم عما اذا كانوا يعرفون دراسة متكاملة لهذه الشواهد والنصوص المكتوبة بالحروف العربية فنفوا ذلك وظني انه لا بد من ان توجد دراسة لها وان كانوا لا يعرفونها؛ ولهذا السبب لم نستطع الاهتداء الى تاريخ أكثرها لما ذكرت واكثرها بلاشك عندي من مخطوطات القرن السابع الى التاسع الهجريين، عرفت ذلك من معرفتي الشخصية بالمخطوط العربية القديمة التي حصلت عليها من كوني عملت في اول عمل لي في وظيفة (قيم مكتبة جامع بريدة) وفيها مخطوطات عديدة.

ثم اخذت أجمع مخطوطات عربية من البلدان العربية ومن داخل المملكة وبخاصة من المدينة المنورة عندما نقل عملي اليها في عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

وعرفت من ذلك ملامح المخطوطات العربية في قرون مختلفة. وقد قرأنا على احد الشواهد كتابة عربية واضحة (هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) وتاريخها ٩٨٤ والمراد بذلك من التاريخ الهجري لأنها من خطوط القرن العاشر الهجري، ثم قرأنا نصاً عربياً آخر عليه تاريخه ظاهر واضح بالخط النسخي المستعمل في العصور الوسيطة مؤرخا في عام ٧١٠ للهجرة.

ومن الطريف ان المدير المسؤول عن المنظمة كلها وهو روسي حضر الينا وقال وهو يشير الى هذا النص المكتوب عليه تاريخه العربي

الواضح ٧١٠هـ ان هذه الكتابة قد مضت عليها الان سبعمائة سنة .

فقلنا في اذهاننا : إنا اعرف بها منك

كنيسة الضرار :

مثلما خرب المسجد وعطل عن الصلاة سلط الشيوعيون على الكنيسة فعطلوها عن العبادة، بل غيروا طبيعتها وان لم يغيروا بناءها فجعلوها متحفا من المتاحف، وهي بالفعل متحف صغير، إذ مساحتها الداخلية ليست واسعة ولا تقارن مطلقا بمساحة المسجد وقد اسميتها كنيسة الضرار اذ يسمى المسجد الذي يقام بجانب مسجد آخر - لالشيء الالكى ينصرف الناس عن الصلاة في المسجد الاول - بمسجد الضرار .

اما هذه الكنيسة فهي كما قلنا انما اقيمت لصرف أنظار الناس عن وجود المسجد ولمضاهاته بقصد وجود رمز الديانة المخالفة له بجانبه .

رأينا لافتة قرب الكنيسة مكتوبا عليها بالروسية والانكليزية (برج الأجراس الكنيسة الاسبينية ١٨٤٧-١٨٤٩ .

قبل أن أدخل الكنيسة حمدت الله في سري على كون ابن فضلان، بل ومن بعده من علماء المسلمين وكتابهم لم يعيشوا إلى هذا العصر الذي انتصبت فيه كنيسة بجانب المسجد المعطل، بل المهدم الذي استعملت احجاره المحلاة بالكتابة العربية الإسلامية في بنائها .

ودخلناها مع الداخلين الذين كان كثير منهم من السياح واغلبهم من انحاء روسيا وفيهم نسبة من المسلمين أو لنقل : انهم من انسال المسلمين .

وكانوا قد قسموا الكنيسة - على ضيقة مساحتها - الى قسمين رئيسيين عرضوا في كل واحد منهما اشياء مما يعرض في المتاحف وكلها من هذه المنطقة وبخاصة ما يتعلق بتاريخ البلغار وسكانها القدماء المنقرضين فكان من اظهرها الادوات المستخدمة في نحت الصخور، هذا مع العلم بأن اوائلهم كانوا يبنون بيوتهم من الخشب المتوفر في المنطقة وهو مناسب للجو البارد، ولكن يظهر ان متطلبات الحياة المدنية التي اصبحوا عليها واتصالهم بالآخرين من المسلمين المتقدمين جعلتهم يعدلون عن اتخاذ بيوتهم من الاخشاب الى البناء بالحجارة، ولكن في الابنية المهمة التي لم نر باقيا منها الا المسجد والمبنيين الآخرين اللذين وصفت احدهما وسيأتي الكلام على الآخر فيما بعد - إن شاء الله - كما عرضوا عظاما مستخرجة من المنطقة لحيوان المأموت وهو ضخمة يعيش في الماء يقال : ان الحيتان من انساله أو هو من أجدادها سيان .

كما عرضوا ايضا عظاما آدمية بشكل واضح وسافر لاقوام ذكروا أنهم ماتوا في القرنين التاسع والعاشر بمعنى ان بعضهم عاش في القرن التاسع وبعضهم في القرن العاشر للميلاد .

ومن تلك العظام جمجمة كاملة وعظام ارجل وأيد، وظني انهم استخرجوها من المقابر الموجودة في المنطقة وسيأتي شئ مما يقوي هذا الظن .

كما عرضوا مصنوعات جيدة قديمة من صناعات ذكروا أنها من دولة (التون اورده) او القبيلة الذهبية وهي الدولة المسلمة التي

استمرت قروناً حية قوية في منطقة نهر إيتل (الفولقا) وجنوب روسيا وشمال قازان، وقالت الدليلة معلقة على ذلك : إن أسرار الصناعة الأولية قد اكتسبها الروس من المسلمين وهذا واضح من الناحية التاريخية، لأن المسلمين هم الذين احتك بهم الروس من الاقوام المتمدنة المتقدمة في تلك العصور .

وقد عرضوا من مخلفات دولة (التون اوردو) مجوهرات ذهبية وادوات من ادوات الزينة، ثم انابيب من الفخار تستخدم لإسالة الماء فيها كالأنابيب الموجودة الآن من الحديد وهو متقنة الى درجة عجيبة، كما عرضوا رسماً كبيراً يوضح شكل المدينة في القديم على ارضية خضراء الا انه مجمل غير مفصل، وانموذجاً لمحكمة شرعية سارعت الدليلة الاخت (رويلة) تقول إن هذه المحكمة لا تصدر أحكاماً بالقتل او قالت لم تصدر عنها أحكام بالقتل وعللت ذلك بقولها : ان القوم كانوا متقدمين في مضمار المدنية .

ولا شك في ان بعض الشعوب ذات التقاليد العريقة تكون فيها عقوبات معنوية او لنقل : اجتماعية ربما تكاد تعادل القتل في قوة اثرها في النفوس فتمنع كثيراً من الجرائم الى جانب كون القوم في اول عهدهم مسلمين متمسكين بالإسلام مما يقلل من الجرائم عندهم؛ كما وضعوا رسماً لأحد بيوت البلغار القدماء الخشبية ورسماً آخر أهم منه ويمثل فيما يقولون جيش البلغار في ثلاثة رسوم كبيرة ورسماً آخر لسوق المدينة .

ونظراً لصعوبة تصويرها بالمصورة التي احملها فقد طلبت من

الدليلة ان تجد لنا كتيباً فيه شرح لهذه الامور كلها كما هو المعتاد في مثل هذه المواضع المهمة فاعتذرت بأن ذلك لا يوجد الا باللغة الروسية فطلبت منها ان تشتري صوراً لبعض هذه الرسومات فذكرت ان ذلك لا يوجد، وهذا ايضا من التقصير لأن المعتاد في مثل هذه المواقع السياحية المهمة أن توجد صور وحتى بطاقات بريدية ممتازة الصور فيها ليشتريها السياح ويرسلوها الى ذويهم او ليحتفظوا بها بمثابة التذكرات .

وفى ركن من المتحف الذي هو الكنيسة عرضوا أسلحة غربية ذكروا أنها من اختراعات البلغار القدماء، او من انفراداتهم منها سكين صغيرة حادة تحذف حذفا بطريقة خاصة تتطلب مهارة عالية فتصيب العدو من بعد قبل ان يصل سلاحه الذى يكون بيده الى رامي السكين؛ وكذلك مطرقة لها ثلاثة رؤس يحملها المقاتلون من الفرسان تمنع المهاجمين من التقدم .

وقد حفل المتحف أيضا بكتابات عربية وأخرى بلغارية بحروف عربية منها شاهد على قبر تقول الكتابة العربية عليه : (الحمد لله العلي الكبير، الحاج أول محمد مولتكا رحمة الله عليه رحمة واسعة) . ذكروا أنه كتب في بداية القرن الرابع عشر ولم أجد عليه تاريخاً ولكن يظهر من خطه انه من خطوط القرن التاسع الهجري .

وشاهد ثانٍ عليه كتابة عربية طويلة مؤرخة تاريخاً عربياً واضحاً فى عام ٧٠٠ للهجرة؛ وثالث عليه كتابة عربية أيضاً ولكنها طمست فى بعض المواضع اولها (الْحَكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) ، هو أول ... وفي

آخرها تاريخها واضح أيضا وهو في عام ٧٢٠ للهجرة، كما عرضوا صورة كتابة عربية مؤرخة في عام ٧٠٠ هـ أيضا.

وعندما رأيت هذه الكتابات العربية التي دلت على ان هذه المنطقة الإسلامية القصية من الوطن الإسلامي القديم كانت مجالا مهما من مجالات الثقافة الإسلامية التي أداتها اللغة العربية وذكرت أن إخواننا المسلمين المعاصرين من أنسال البلغار او من أخلافهم المسمين بالتتار يتوقون الى اعادة مجد الثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد ولكنهم لا يجدون التعضيد والتأييد اللازم من بعض المسلمين القادرين على ذلك قلت في نفسي: لاحول ولاقوة الا بالله (ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا) وصممت على أن ابذل جهدي في التعاون معهم ومع اخوانهم المسلمين في بقية هذه الاصقاع الشمالية النائية بقدر الاستطاعة و ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ثم عرضوا بعض مخلفات الرسوم للذين خلفوا المسلمين في هذه المنطقة .

مشهد شاهده ابن فضلان:

قالت الدليلة: انه يمكن لمن يرغب القاء نظرة عامة من مكان مرتفع على المنطقة أن يصعد مع هذا السلم داخل برج الكنيسة . وصعدت مع احد الرفاق وهو الأخ حسن ازميزلي ولم يصعد الاخرون وكان الصعود مع سلم حديدي حلزوني أملس صعب المرتقى لأنه لم يوضع في الأصل من أجل ان يصعد فيه وانما من أجل ان يكون مظهراً لوجود الكنيسة ولينافس منارة المسجد؛ اضافة الى كونه قد صار أملس يصعب الامساك به بسهولة .



[نهر الفولقا كما يبدو من مكان عالٍ في مدينة بلغار التاريخية (تصوير المؤلف)]

وفى رأس البرج الذي يبلغ ارتفاعه ٢٥ متراً ألقى نظرة على المنطقة متمثلاً مشاعر الكاتب ابن فضلان عندما رحل الى هذا المكان قبل الف عام، وألقى نظرة عليها هي نظرة فريدة بالنسبة الى نظرائه من الكتاب والمثقفين في مدينة بغداد فى ذلك الوقت نظراً لبعدها المسافة، وقلة المعلومات عنها لولا ان الله هدى اهلها البلغار الى الإسلام وارسلوا الى خليفة المسلمين المقتدر بالله يطلبون ارسال وفد يعلمهم أمور دينهم ولولا ذلك لاستمر الجهل بأحوال هذه الأمة المجيدة فى تلك العصور.

ورأيت نهر ايتل (الفولقا) من رأس البرج متسعاً جَمَّ المياه اوسع فى رأي العين من نهر النيل عند القاهرة.

ويقع على بعد نحو (٢٥٠٠) متر من موقع البرج الذي ذكر

الاقدمون انه كان وسط المدينة القديمة .

كان المنظر مؤثراً وجميلاً اختلط ذلك فى ذهنى بما ذكرته فكان
منظراً من المناظر التى لا تكاد تمحى من الذاكرة .

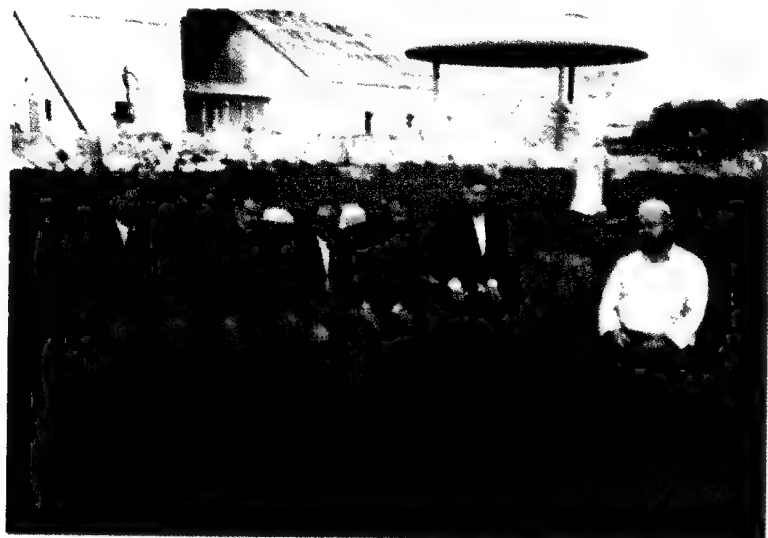
الأثر الثانى:

قلت ان المباني القائمة منذ العهد الإسلامى هي ثلاثة أهمها
وأكبرها المسجد الجامع التاريخي وإن كان أكثره متهدماً والثاني هو
المبنى الذي ذكرته من قبل وذكرت أنهم كتبوا عليه بالعربية «الضريح
الشمالي» اما الثالث فإنه هذا الذي نتجه الآن إليه وقد كتبوا على بابه
باللغة العربية أيضاً: «الضريح الشرقي، القرن الرابع عشر»؛ كما
كتبوا العربية تحت الروسية .

وهذا المبنى أشبه ما يكون بالقبة المخروطة الشكل، وجدنا فيها
قبوراً خالية من المقبورين، ذكر احد الحاضرين من غير المرافقين أنهم -
يريد بذلك السلطات الحاكمة كما فهمنا منه- يكشفون على القبر
فان وجدوه قبراً لأحد المسلمين تركوه وارجعوه كما كان وان كان
لوثنيين - وهذا تعبير يعبرون به عما كان عليه هؤلاء القوم قبل أن
يعتنقوا الإسلام - أبعدوه، ولا أدري إلى أين يبعدونه ولكنني أظنهم
يحفظونه في المتاحف .

ولكنني رأيت ما يناقض ذلك لأن القبور الموجودة داخل هذه
المقبرة هي خالية من المقبورين ومتروكة على حالها قبل أن يدخل إليها
الميت، وهي مثل القبور عندنا تماماً من دون أي اختلاف فهم

يلحدون للميت لحداً ولا يشقون له شقاً في القبر مما يقطع بأن الذين
حفروها هم من المسلمين .



[الصلاة على ارض جامع بلغار المهذوم]

ثم ان العبارة المكتوبة على المبنى وانه الضريح الشرقي من القرن
الرابع عشر (الميلادي) تدل أيضاً على أنها قبور للمسلمين لأن اهل
البلاد قد اسلموا في القرن العاشر الميلادي وهو أول القرن الرابع
الهجري، اللهم الا اذا كانت القبور التي رأيناها محفورة خالية قد
أعدها حافروها من المسلمين للدفن ولم يدفن فيها أحد فإن هذا
محتمل وان كان بعيد الاحتمال .

ولم يكن اللبث في داخل هذا المبنى الذي هو مقبرة أيضاً طويلاً
لأنه لا نوافذ فيه ولا نور وحالته من ناحية العناية غير جيدة .

الأذان لأيتام المسلمين :

عدنا إلى المسجد الجامع فصعدنا مع درج حجري له آخر من جهة الشرق التي هي ايسر القبلة لأن قبلتهم هي جهة الجنوب .

وأذن أحدنا في وسط أشلاء المسجد بأقصى ما يستطيع صوته أن يبلغ ثم أقمنا الصلاة وصلينا الظهر والعصر جمعاً في هذا المسجد القديم، وحتى الذين معنا صاروا معتبرين من المسافرين لبعدهم مدينة بلغار التاريخية عن بلادهم .

كان يوجد في المنطقة أعداد من السياح وقفوا يتفرجون برؤيتنا ونحن نؤدي الصلاة، ثم جلسنا قليلاً للراحة على بساط أخضر واعشاب نظيفة ريانة فوق أرض المسجد التي هي مرتفعة على ظهر الأرض التي حولها ولذلك صارت بعيدة عن أي شيء تأتي به الريح، فما شعرنا إلا بمرأتين مظهرهما مظهر الاوروبيات ومعهما طائفة من الاطفال من ذكور واناث هم أيضا في مظهر الاوروبيين من حيث اللون واللباس كنا ظننا أول الامر انهما من المدرسات وأن الأطفال الذين معهما هم من طلبة إحدى المدارس جاؤا بهم لكي يشاهدوا الآثار، ويتعرفوا عليها كما هي العادة في كثير من أنحاء العالم .

ولكن المرأتين تقدمتا إلينا وقالتا باللغة الروسية : إننا رأيناكم على البعد تصلون فعرفنا أنكم من المسلمين - وكنا نلبس الملابس العالمية المسماة بالملابس الأفرنجية -، وهؤلاء الأطفال هم من أيتام المسلمين أحضرناهم إلى هنا لمشاهدة الآثار والترويح عن انفسهم، ونرجو ان تسمعوهم صوت الأذان، او ان استطاع أحدكم أن يقرأ آيات من

القرآن حتى تنزل على قلوبهم السكينة والطمأنينة .

فانبرى رفيقنا الأخ (نور الإسلام) يتلو من القرآن الكريم تلاوة شجية بصوته الذي كان جيداً يندى بالخشوع والروحانية، فأصغى الجميع له من أيتام وغيرهم ثم طلبوا الدعاء منا ثم تحدثنا إلى المرأتين عندما عرفنا انهما من المسلمات وأنهما قدمتا مع هؤلاء الأيتام من مدينة في تارستان اسمها (يارشلي)، كان اسم احد المرأتين (قل جوهر بنت فاتح) واسم الأخرى (بي نصري بنت نجيب) كما انضمت إليهما عجوز مسلمة اسمها (خديجة بنت عبدالرحمن) وسلمنا على الأطفال وصافحناهم كلهم وشجعناهم ، وجعلنا مع ذلك شيئاً هو (٣٠٠) دولار أمريكي اعطيناها المرأتين والجميع ينظرون وقلنا لهم اقسموها على هؤلاء الأيتام، فأعظم الجميع ذلك واكبروه، لأنهم لم يكونوا يظنون انهم سيحصلون على شيء ولم يؤملوا فيه وإنما كانوا يقصدون الدعاء وسماع القرآن الكريم؛ ثم التقطنا صوراً تذكارية مع الجميع .

بلدة بلغار الحديثة:

ركبت معنا الدليلة الأخت رويلة بنت رشيد تحدثنا عن البلدة وعن أمور هذه المنطقة التي تعرفها اكثر من غيرها .

لا تبعد البلدة الحديثة التي اسموها مدينة (بلغار) على اسم مدينة بلغار القديمة، الا أن اكثرهم ينعته بأنها قرية وذلك لقلّة عدد سكانها اذ ذكرت الدليلة ان مجموع السكان فيها هو ٩ آلاف نسمة؛ وشي مهم آخر، وهو ان معظم السكان فيها هم من الروس وأن

المسلمين فيها الآن هم اقلية قليلة، وقد زادت الدليـلة الأمر تفصيـلاً بقولها: يقطن في هذه البلدة (٤٠) أسرة من المسلمين الى جانب ١٩٠ أسرة روسية غير مسلمة، وهم هنا في اكثر أحاديثهم واصطلاحاتهم يقولون لغير المسلمين الروس بدون أن ينعتوهم بأنهم مسيحيون او انهم من غير المسلمين، كما يقولون للمسلمين التتار دون ان ينعتوهم بالمسلمين لأن ذلك يعني انهم مسلمون .

وتبعد اطراف هذه البلدة او القرية البلغارية الحديثة عن بلغار التاريخية الفـي متر فقط، وقلت في نفسي وانا أدخلها: أبعد ذلك الاسم المجلجل في أسماع التاريخ المجاهد في سبيل الله لمدينة بلغار تلتقط هذه القرية ذلك الاسم؟ وبدون ثمن، ثم تمثلت قول الشاعر العربي :

وما عن رضا كانت سليـمى بديـلة لهند، ولكن للضرورات أحكام .

دخلنا قرية بلغار ولن أسميها بعد هذا إلا القرية وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والربع، مع شوارع ترابية خالية من الزفت او حتى أي شيء آخر من التبليط، مع أن جمهورية (تاتارستان) التي تقع فيها هي من الجمهوريات المنتجة للنفط ولكن معظم نفطها يذهب إلى الخزينة في عاصمة الاتحاد الروسي : موسكو .

اهم ما في القرية ان منازلها تقع في صفوف مستقيمة على هيئة دارات (فيلات) بينهما مساحات غير واسعة من الفراغ وفي الطريق الذي دخلنا منه الى داخل القرية حفـر، و(مطبات) وغبار يكاد يجعلل السيارة .

وقد غرسوا في جانبي الشارع اشجاراً صارت عالية الآن إلا أنني

لاحظت ان معظم اوراقها قد سقط تحتها مع ان الجو الآن دافئ جدا كأنه جو الربيع في القصيم فليس فيه من البرد شيء فقلت في تعليل ذلك انه إما ان يكون بسبب موجة من البرد سبقت مجيئنا الى هذه البلاد بايام قليلة او بحكم الغريزة وهي الفطرة التي فطر الله الخلق عليها بأنها في مثل هذا الوقت تشعر بأن الخريف قد حان فتبدأ اوراقها بالتساقط، وهذا معروف عن الأشجار في موضوع آخر وهو أن اشجار المناطق الباردة مثل سيبيريا إذا ولى الشتاء عنها ببرده سارعت باخراج الأوراق والأغصان وانتاج الثمار في مدة قصيرة لا تنمو في مثلها الأوراق والأغصان في البلدان المعتدلة شعوراً منها بالغريزة أن ايام الدفء قصيرة وأنها يجب أن تستغلها بأقصى ما تستطيعه من إخراج أوراق الأغصان والثمار ان كانت أشجاراً مثمرة تصبر على العيش في البلدان الباردة أو هذا ما رآه الناس من أمرها وظنوا ما ذكرته .

ولاحظت انه يوجد عند ابواب بعضهم اخشاب من اخشاب الوقود مما يدخرونه للشتاء أيام اشتداد البرد، واخشاب اخرى مكومة في ميدان من الميادين للبناء بها .

جامع قرية بلغار:

من مزايا هذا الدين الإسلامي الحنيف ان الله يبعث له انصاراً في بلدان كثيرة ليس له فيها أنصار فضلاً عن ان يكون له فيها دولة تتفتح بصائرهم وعقولهم لمحبه فتستنير بهديه، وتبذل الغالي والرخيص في سبيل دعمه وتثبيته من دون ان تنتظر أن تلقى جزاء او شكورا من الناس .

وهذا ما سمعناه من الاخوة في الادارة الدينية في جمهورية
تتارستان قبل أن نقدم إلى هنا بأن اهالي بلدة بلغار على قلتهم
العديدة بالنسبة الى سكان قرية بلغار الحديثة قد عزموا على بناء
مسجد يكون بمثابة البعث الجديد للمسجد التاريخي القديم وجعلوه
في هذه القرية لكون منازلهم فيها فالمسجد التاريخي بعيد عنهم مع
عدم تيسر وسائل النقل اليه، ولكونه منطقة اثرية لا تسمح الحكومة
بأحداث شئ فيها الا بعد دراسة وبعد ان تكون لدى من يتقدم
لذلك المبالغ المالية اللازمة لبنائه وهي مبالغ كبيرة.

وعندما وصلت الى قازان سألت أول الأمر عما فعله الإخوة
البلغاريون المعاصرون أخلاف البلغاريين الغابرين بمسجدهم فأخبروني
بسرور أنهم قد بدأوا البناء بل قطعوا مرحلة جيدة فيه؛ لذلك كان
ذهابنا الى المسجد مباشرة بارشاد احد الإخوة الذي صحبنا من قريته
والدليلة السياحية المسلمة رويلة رشيد.

لقد كان منظرًا لا يمحي من الذاكرة عندما رأيت المسجد شامخ
البناء عالي المنارة بهي الطلعة فهو اعلى مبنى في القرية كلها وهو أعلى
من الكنيستين الموجودتين فيها أضعافا بل انه ببنائه المميز كأنما قامت
على بنائه حكومة من الحكومات او شركة من الشركات الرأسمالية
الكبيرة.

فكانت مئذنته منارة حقا مبنية بالآجر الأبيض المزين بفواصل
من الآجر الأحمر ورأينا العمال يعملون بجد في المنارة، وهي بجانب
المسجد خارجه كتبوا عليها تاريخ ابتداء انشائها وانه في عام ١٩٩١

-١٩٩٢م، وقد كتبوا هذا التاريخ بلبن الآجر الصغير الملون.

منظر مؤثر:

لقد ازددنا تأثراً بالموقف إذ رأينا حينما دخلنا الى داخل المسجد ان رئيس جمعية المسجد ويسمونه هنا (المتولي) وهو الاخ (رشيد ابن صفي الله) يعمل في المسجد ومعه فتاتان تعملان على السلالم المثبتة بالجدران وهما في مكان عالٍ من السلم تضعان (اللياسة) وهي الملاط او الطلاء الاسمنتي فوق اللبن ومع كل واحدة منهما آلة تلييس الاسمنت بيد واليد الاخرى تأخذ الاسمنت المخلوط من الوالد الذي هو كهل في حدود الستين وتعملان بجد . وهما بنتاه .

عندما رأينا هذا المنظر بهرنا فلم نتوقع ان تعمل بنات المسلمين في هذا العمل الشاق في المسجد .

واسم البنت الصغيرة (روشن) وعمرها في حدود الثامنة عشرة او التاسعة عشرة وقد لبست لباساً ساتراً وفوق رأسها منديل وفي الرجلين خفان فلا يرى من جسمها الا الوجه والكفان .

أما البنت الكبيرة فاسمها (منيرة) ويدها مثل يدي اختها ملطخة بهذا الاسمنت الذي هو أجمل منظراً فيهما واطيب رائحة من (المناكير) في أيدي بعض البنات المترفات من بنات المسلمين لانه من بناء المسجد الذي قصرت عن بنائه وبناء أمثاله هم صناديد من صناديد الرجال في بلاد الإسلام لا لكونهم يعجزون عن ذلك وانما لكونهم قد غفلوا او تغافلوا عنه فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

واردت ان اتحدث بواسطة المترجم مع البنيتين لأعرف مشاعرهما الخاصة فمنعهما الخجل من ذلك فأثنت عليهما ودعوت لهما
واذا غضضنا الطرف عن عمل هاتين البنيتين وابعهما الشيخ في
المسجد بأيديهم، فذلك لكوننا سننظر في مساعدة هذا المسجد
العظيم الذي يفوق من حيث الحجم والنفقة وجودة المظهر كثيراً من
المساجد الجديدة التي بنيت في هذه الظروف العصيبة التي تمر بالإخوة
المسلمين في المنطقة .

رأينا المسجد مؤلفاً من طابقين أحدهما ارضي فيه قاعة واسعة
للمناسبات الإسلامية بجانبها عدد من الغرف، وظننت انهم
سيجعلونها مدرسة ولكنهم لم يوضحوا لنا ذلك فقد اتينا المسجد
على حين غرة فيما يظهر وحتى رئيس جمعية المسجد الاخ رشيد
صفي الله لم يبد على استعداد للقاء فملابسه ملابس العمل في بناء
المسجد ويداه ملطختان بالاسمنت .

ورأيت على وجهه شيئاً آخر ظننت منه وهو يكلم مرافقينا انه
يعتب عليهم او يظهر عدم رضاه لهم لكونهم لم يرسلوا مساعدة
للمسجد كما كانوا وعدوا بذلك فيما قال .

وقلت له : ان المفتي الشيخ (عبدالله خليل صفا) قد تقدم إلينا
للمساعدة على بناء مسجدكم وقد قدمنا من أجل ان نراكم ونرى
المسجد ونقدم بعض المساعدة المالية العاجلة وسوف نفعل ذلك الآن .
وقفنا في داخل المصلى الرئيسي نتحدث معهم في شؤون
المسجد فأخبرونا بأنهم حصلوا على الأرض من الحكومة بالجمان ،

وأنهم باشروا في جمع التبرعات بعد ذلك فصاروا يحصلون عليها قليلا قليلا، إلى درجة أنهم الآن لم يبق عندهم اي رصيد من التبرعات فأعلنت لهم تبرع رابطة العالم الإسلام بأربعة آلاف دولار امريكي نقداً دفعناها لهم بعد ان احضروا خازن الجمعية المسمى أمين الصندوق وكاتب الجمعية وعدداً من اعضائها .

وهذا المبلغ رغم قلته في بلادنا فانه كثير في هذه البلاد كما اشرنا الى ذلك فيما سبق وأخبرناهم ان رابطة العالم الإسلامي مستعدة لدفع المزيد من المساعدات لاكمال بناء المسجد ، اذا لم

يكفهم هذا الذي اعطيناهم مع ما يحصلون عليه من تبرعات أخرى اذا كتبوا ذلك بوساطة الشيخ المفتى الذي ينبغي ان يوضح لنا ما بلغه سير العمل في اكمال المبنى .

لقد اظهروا الامتنان لهذا التبرع الذي ذكرت لهم انه ليس تبرعاً في الحقيقة وإنما هو



[العمل جار في مسجد القرية المدنية للبلغار في تارستان]

معاونة على قيام هذا البيت من بيوت الله بعد أن لبثت هذه المنطقة التي كانت إسلامية مدة تقرب مما يزيد على خمسمائة سنة من دون مسجد، فهذا المسجد هو أول مسجد يبنى فيها بعد ذلك الليل الطويل الذي ران عليها بعد الإشراق الإسلامي الذي كان موجوداً فيها لعدة قرون.

ثم خرجنا لرؤية مبنى المسجد من الخارج فالفيناه بناء قويا جميلا حتى إن المسجد في نظرنا أجمل مبنى في القرية من دون منازع واطنه كذلك في نظر كل منصف محب للجمال، ووجدناهم قد اعدوا أكواما من الخشب المذهب لينوا به المرافق الخاصة بالمسجد وكذلك بعض أسواره.

قالت الدليلة وهي تغالب السعال من غبار الشارع : إن مجيئكم لهذه المنطقة له أثر عظيم في النفوس، إنه بمثابة القنبلة التي تحرك مشاعرهم وسوف يذكرونه لمدة طويلة لانكم انتم مسلمون حقيقيون أما نحن فإننا مسلمون بالاسم.

فشكرتها على حسن ظنها، وقلت : إنكم انتم الذين قاومتم حملات التنصير والاحاد، وحملات الاذابة التي استهدفت وجودكم ووجود ثقافتكم الإسلامية في المنطقة وواجبنا جميعا أن نتعاون على البر والتقوى كما قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وكان جمع من المسلمين في القرية يسمعون ذلك.

مغادرة بلغار:

ودعنا الإخوة المسلمين عند مسجد قرية بلغار وشرنا مع شارعها غير المزفت ومع ذلك كانت فيه عدة أبقار ضخمة تتبختر كأنما لم

يكفه ما فيه من التراب والغبار حتى تزيد ذلك ما تلقيه فيه من اوراث
وما تثيره حوافرها من غبار .

ويشاركها التبخر في الشارع أسراب من البط الأبيض الكبير
تتمايل في سيرها، كأنما تتحدى سرعة الزمن ، وعربة يجرها حصان
قد اثقلها حملها، وأهم من ذلك عندي أنني كانت تتناوبي مشاعر
متناقضة أو لنقل انها متباينة من الفرح والحزن والعجب والإثارة :

أما الفرح فلشفاء النفس من رؤية مدينة بلغار ومشاهدة آثارها،
وتطبيق ما عرفته من اخبارها على واقع أرضها .

واما الحزن فإنه للحالة التي كان عليها الوضع الإسلامي ولا يزال
المسلمون المقيمون في المنطقة يعايشونه الا ان الإثارة والعجب هي في
محاولة نهوضهم وإعادة المساجد الى هذه المنطقة التي كانت عامرة
بالمساجد في العهد القديم، مع ضعف الوسائل المادية وضيق ذات اليد
وضعف الأنصار .

كانت مغادرة قرية بلغار قبيل السادسة، وقد بقيت في النهار
بقية، ووقف السائق في محطة لبيع المحروقات في ضاحية من القرية،
ولم نصدق أنها محطة لأنها في أرض ترابية وليس عليها سقف او
اي ستر يقيها العوارض الجوية كذلك لم ار عندها أية سيارة ولا حتى
صاحبها، لذلك انفقوا وقتا ثميناً في انتظاره عندما ذهبوا يبحثون
عنه، وكان السائق مضطراً لانتظاره لأنه لا توجد محطات في الطريق
كبيرة لبيع وقود السيارات .

وقبيل مفارقة ضاحية المدينة رأيت راكبين على عربة يجرها

حصان محملة بالعلف فالتقطت لها صورةً.

انطلقت السيارة مسرعة عائدة مع الطريق المعهود الى بلدة (بازارني ما ساجي) التي كنا مررنا بها من قبل واخذنا منها الأخ سلطان بن أحمد وذلك لرؤية أرض فيها مخصصة لبناء المسجد ولتناول العشاء في بيت مرافقنا الأخ (سلطان بن أحمد)، ولم يكن في الطريق جديد أثناء العودة، وقد غربت الشمس قبيل الساعة السابعة، إلا أن الجو كان منيراً لأننا في بلاد شمالية لا يغيب فيها الشفق بسرعة وهو النور الذي يبقى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس وقبل استحكام الظلمة، وقد شاهدت الشفق مضيئاً طول الليل في قازان عندما زرتها للمرة الأولى في أواخر شهر يونيو عام ١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٤ م وذكرت ذلك في كتابي: «الرحلة الروسية».

على أرض المسجد:

كانت الشمس قد غربت قبل فترة عندما وصلنا بلدة (بازارني) فقصدنا الأرض التي أعدت لبناء المسجد؛ بل انهم قد شرعوا في بناء المسجد وصبوا أساساته بالخرسانة الاسمنتية القوية على هيئة قطع كبيرة.

لم يكن الجو مظلماً رغم غروب الشمس لما سبق مما سمح بالتقاط صورة تذكارية في أرض المسجد مع الأخ سلطان بن أحمد في هذا الوقت، ومن الممكن القول بأننا كنا نتحرك على ضوء الشفق بعد أن غربت الشمس.

وهذا المسجد هو أول مسجد يقام في القرية وتبلغ مساحة أرضه (٢٥٠٠) متر مربع منحتها الدولة لهم بالجمان وقد علمنا فيما بعد أن

جميع ما تم من عمل في تأسيس المسجد مع ما صاحب ذلك من نفقات هو من الأخ سلطان بن أحمد وقال لنا أحدهم انه لم يجد من يدفع شيئاً مجزيا من أهل القرية بسبب الفقر وقد اطلعونا في ضوء الشفق على مخططات المسجد وعلى الصك الذي صدر بمنح أرض المسجد لهم من الحكومة دون مقابل لكونه لعمل خيري .

وقد قدمنا لهم تبرعاً مجزيا للمسجد وطلبنا أن يحضر المسؤولون في جمعية المسجد لكي نسلم المبلغ لهم بحضورهم من باب المشاركة في الحضور والشعور والا فإن معنا مرافقين من العاملين الرئيسيين في ادارة الشؤون الدينية في (تارستان) وسوف يتابعون العمل في المساجد التي تبرعنا لها ويكتبون لنا تقارير عن ذلك فيما بعد .

مائدة بلغارية:

عدنا الى بيت الأخ الكريم سلطان بن احمد وفي هذه المرة دخلنا الى قلب المنزل بل الى اقصى منزل فيه فهكذا وضعوا قاعة الجلوس التماساً للدفء في الشتاء وهربا من الجو الثالج والبيت دافئ بالفعل فهو من الخشب يتجاوز الداخل منه الى غرفة الجلوس مدخلا بعد مدخل، وكانت الساعة عندما دخلنا البيت تشارف الثامنة .

وجدنا على المائدة مقدمات الطعام من التفاح الطري الطازج الذي قطفوه من الأشجار الموجودة في البيت وبجانبه كعك لين (كيك)، وسلطة من الطماطم اللذيذة، وذلك لأنهم يستعملون لتسميد الأرض التي يزرعون فيها الخضروات الأسمدة الطبيعية .

ثم جاؤا بعد ذلك بالحساء (الشوربة) التي أسميتها الحساء التركستاني لأنه لا بد منها في موائد التركستانيين وغيرهم من اهل البلاد الشمالية الباردة فكان وقعها في اعيننا واذواقنا جميلاً للحاجة اليها بعد التعب وهي دسمة حارة فيها قطع من البطاطس المسلوقة وبعض الشعيرية، ثم جاؤا بالطعام الرئيسي من الخبز الغليظ ومرق جيد ولحم بط جميل المنظر شهى الطعم، وقد عرفت سبب حرصهم على تربيتهم البط عندهم لكونهم ينتفعون من بيضه وتزايدته عن طريق التفريخ ويذبحون منه ما يذبحون بدلاً من اللحم الذي لا توجد له مجازر واسعة كالتي تكون في المدن .

ومما ينبغي تذكره ان سكان القرية يبلغون خمسة آلاف نسمة فيهم ثلاثة الاف مسلم والفان من غير المسلمين من الروس وأمثالهم كما سبق؛ كما ان القرية مضاءة بالكهرباء بشكل قوي، وقد جاء بعد الطعام بالشاي ومعه مربى الفراولة الذي يضعون منه مقادير على الشاي تحلية له ، وتحسينا لمذاقه .

و كنت أتأمل هذه الغرفة التي اسميتها غرفة الجلوس فأجد فيها مقاعد كبيرة (كنب) وجهازاً للتلفزة وسرير نوم وفي سقفها ثريا كهربائية معلقة، الا أنها رثة روسية الصنع ومسجلا والأهم من ذلك ان في حائطها صورة كبيرة معلقة للكعبة المشرفة قبل التوسعة الحديثة للحرم المكي الشريف، لذلك يبدو فيها الحرم على ما كان عليه قبل اربعين سنة، وذلك لكونهم قد انقطعوا عن الحج منذ ان سيطر الشيوعيون على مقاليد البلاد قبل اكثر من سبعين سنة بقليل الى جانب سجادة معلقة خفيفة للصلاة .

هذا وكان الجلوس في بيت الأخ الكريم سلطان بن احمد بن غريب الله ممتعا من وجوه كثيرة أحدها أننا تناولنا فيه عشاء دسما نحن في أشد الحاجة إليه وثانيها أننا استرحنا فيه بعد السير المتواصل الذي لم نثن خلاله أرجلنا إلا أثناء الصلاة في بقايا مسجد بلغار التاريخي، وثالثها: أننا حصلنا على معلومات مسموعة ومرئية عن أحوال هؤلاء الإخوة المسلمين الأعزاء.

يبلغ عمر الأخ سلطان بن احمد السادسة والستين وسألوني وقد تحدثوا عن اعمار الحاضرين عن عمري فأخبرتهم أنه فوق الستين فتعجبوا من ذلك وقالو: إنهم لا يصدقون انني بلغت الستين لأنني فيما رأوه أقل من ذلك، ولو قلت لهم الحقيقة وانني في التاسعة والستين من العمر لكان عجبهم اكثر وربما لم يصدقوه.

لم يستغرق تناول العشاء وقتا طويلا لأننا وجدناه جاهزا وكانت زوجته المسنة تخدمنا الى جانب رجل او رجلين من أهل القرية جزاهم الله خيراً.

وقد أوصيتهم أثناء الحديث بما أوصى به رسول الله ﷺ وهو تقوى الله تعالى ومراقبته في السر والعلن والعناية بأطفال المسلمين وناشئتهم وتنشئتهم على معرفة الدين الإسلامي وتعليمهم ما يلزم لأمر دينهم، وقلت لهم بانهم أمانة في أعناقكم ستسئلون عنهم يوم القيامة، كما انهم اذا كبروا سيؤاخذون المقصر في حقهم فيرمونه بالأهمال.

وقد شكوا من عجز اهل القرية عن بناء المسجد فقلت لهم إن

بإمكانهم ان يتقدموا بطلب التبرع الى المؤسسات الإسلامية المعروفة بمنحها للتبرعات للمشروعات الإسلامية وإنه يمكنهم ان يستشهدوا بنا واننا رأينا المسجد بأنفسنا وشاهدنا اجتهادهم في بنائه كما أننا على استعداد لأن نرسل لهم المزيد من المساعدة من رابطة العالم الإسلامي اذا كتب لنا بذلك المفتي رئيس الادارة الدينية في تاتارستان .

مغادرة منطقة البلغار:

غادرنا منطقة البلغار قبيل التاسعة ليلاً وذلك حينما غادرنا قرية (بازارني ما ساجي) وليس المراد بذلك مدينة بلغار التي غادرناها قبيل السادسة عصراً وتبعد نحو ٩٠ كيلو متر عن هذه القرية، وكان الظلام قد استحكم وان كان القمر مشرقاً مضيئاً مما جعلني أقول لرفقائنا - وقد اعجبني صفاءه وعظيم إشراقه ممازحاً لهم - إن قمركم اكثر نوراً من قمرنا .

وقد فهموا ذلك على سبيل الممازحة والمطايبة فقلت لهم : ان القمر هو هو ولكن الشيء الذي اقوله جاداً غير مازح : إن نجومكم هي غير نجومنا، والمقصود بذلك من النجوم النجوم الجنوبية والشمالية فالنجوم الجنوبية وفي مقدمتها (سهيل) لا يمكن ان ترى في هذه البلاد الشمالية وقد فطن أسلافنا العرب لذلك فنوهوا بأن (سهيلا) لا يرى في أرمينية ومرادهم بذلك بلاد الأرمن التي تقع الآن في الشمال من العراق، وهو جمهورية ارمينيا التي كانت سوفيتية واستقلت مع ما استقل من جمهوريات كانت تابعة للاتحاد السوفيتي، مع أن بعد أرمينيا عن جزيرة العرب - حيث تقع ارمينيا في جنوب جبال قفق

التي تسمى الآن في كتبنا العربية بجبال القوقاز - لا يقارن ببعده هذه البلاد البلغارية الذاهبة شمالاً كما ان (بنات نعش) لا ترى في النصف الجنوبي من الارض، وعلى هذا فإن البحث عن مواقع النجوم في هذا الجزء الشمالي من الأرض بحث ممتع لمن يكون ذا عناية سابقة وإلمام كاف مسبق بذلك.

عبارة الليل.

لم تكن هناك مناظر يناسب التعليق عليها في الطريق إذ كل شيء كان هادئاً مظلماً بحيث لا توجد على الطريق أماكن للراحة وتناول المشروبات كالمقاهي والمقاصف ولذلك ساد السكون حتى وصلنا الشاطئء الجنوبي لنهر قاما وهو الذي قطعناه في هذا الضحى من شماله الجنوبيه.

لم نجد العبارة في المرسى فانتظرناها مع عدد من السيارات كانت قد وصلت قبلنا واخبرونا ان العبارة قادمة وبعد انتظار ممل بانث أنوارها ففرح الجميع ، الا أنها خيبت ظنهم عندما وصلت وقال الموظفون فيها إنها لن تحملهم لأن نوبتها في العمل قد انتهت وسوف تأتي عبارة اخرى بعد قليل ثم اطفأت أنوارها ونزل منها موظفوها.

وران سكون عجيب حتى جاءت العبارة الأخرى ولم تتحرك الا بعد ان كانت قد مضت لوقوفنا على شاطئ النهر ٥٥ دقيقة.

والعجيب أنني لم أسمع احداً يشكو من الركاب، ولا من المرافقين مثلما كانت عليه الحال في أمور أخرى من أمور الاتحاد السوفيتي السابق، وربما كان ذلك راجعاً الى العزلة التي فرضها

الشيوعيون على الشعب حتى صار الناس لا يعرفون ان في الإمكان احسن مما كان ولذلك لا يتأففون فضلاً عن أن يشكوا مما يشكو منه غيرهم . سارت العبارة على صفحة النهر في منظر جميل بل جليل ، فقد كانت السماء صافية صفاء عجيبا ، وكان القمر منيرا ، وكان الهواء يهب نسيما عليلا حانياً فكان يداعب صفحة البحيرة برفق فتهتز برفق كأنما تفعل ذلك طربا لمداعبته فينعكس عليها ضوء القمر متموجاً كأنه ذوب النور الذي يتدفق بحنان .

ولم نستطع ان نفارق هذا المنظر بأن ندخل في السيارة او داخل العبارة فقضينا المدة التي قطعت العبارة النهر فيها وهي ٣٥ دقيقة ، في هذه المرة ونحن واقفون على حائط العبارة نتأمل ذلك ، وقال الأخ مارس بن جلال الدين : ان هذا المنظر جميل كما ترون ، ولكن المنظر في الشتاء جميل أيضا فنحن نقطع النهر بالسيارة بسرعة من دون ان نحتاج الى عبارة لأنه يكون متجمداً صلب الصفحة فلا ننتظر عند ضفافه ، ولا ندفع رسما اجباريا للعبارة ، وعلى ذكر هذا الرسم أقول : ان المرافقين دفعوا (٨٠٠٠) روبل رسما على نقل السيارة ويساوي ذلك ثلاثة دولارات أمريكية ونصفا او ١٣ ريال سعودي مع دفع رسم على كل راكب من ركاب السيارة ولكنه قليل هو (٢٠٠) روبل اي نحو ٨ سنتيمات او نحو ثلث ريال سعودي .

وقد علل الأخ مارس تردده هنا بكون زوجته من هذه المنطقة الواقعة خلف نهر (قاما) وذكر ان كل شيء في الشتاء يكون أبيض ناصع البياض تستوي في ذلك الأماكن المرتفعة والأماكن غير المرتفعة إذ الثلج يجلل الجميع .

رسالة ابن فضلان

رسالة ابن فضلان الى بلاد البلغار:

قبل انقطاع الحديث عن بلاد البلغار رأيت أنه ينبغي ان أنقل هنا بعض ما جاء في رسالة الكاتب ابن فضلان الى هذه البلاد التي هي أول كتابة علمية مدونة واسعة، بل انها أول كتابة علمية بالعربية عن منطقة (ايتل) الفولقا وعن حالة الروس الذين كانوا يردون اليها للتجارة وكانوا في ذلك الوقت كلهم وثنيين لأنهم لم يدخلوا في النصرانية بعد .

وقد سبقت الاشارة عدة مرات الى الكاتب ابن فضلان وما ذكره عن هذه البلاد كما جاء في كلام الشيخ محمود الرمزي الذي حرص على الإطلاع على رحلة ابن فضلان مدفوعاً بالشوق إليها بما كان قد قرأه مثلي فيما سجله ياقوت الرومي - رحمه الله وجزاه عن العلم والعلماء خيرا - فقد ذكر أشياء عجيبة نقلاً عن ابن فضلان في رحلته تلك ولكنه لم يتوسع لأن كتابه لا يحتمل نقل تلك الرسالة كلها، ولكن الشيخ محمود الرمزي قد ذكر في كتابه ان رسالة ابن فضلان مفقودة وأنه لم يسمع لها بذكر في المكتبات التي اطلع عليها، ولا سمع بخبرها لدى العلماء المهتمين بأمرها، حتى جزم بأنها مفقودة، الا ان المجمع العلمي العربي في دمشق قد طبع جزءاً صالحاً من الرسالة بتحقيق الدكتور سامي الدهان الذي لم يقصر في تحقيق الرسالة والتعليق عليها بما استطاع الوصول اليه من معلومات في المراجع الأخرى .

غير أن النسخة التي طبع عنها الرسالة ناقصة من آخرها نقصاً

واضحاً لأن الكلام انقطع عند آخر صفحة بما لا يجوز الوقوف عنده، لكنه أضاف بتحقيق هذه الرسالة الفريدة يداً عظيمةً لقراء العربية الكرام ، بل حتى لغيرهم من محبي المعرفة، فقد اخبرني أحد الموظفين من الروس - وهو يتكلم العربية بطلاقة - أن دراسة رسالة ابن فضلان على طلاب اللغة العربية في الجامعة هي أمر مقرر ملزم وذلك لما تتضمنه من معلومات مهمة لا يمكن نقلها نقلاً سليماً بالترجمة وحتى يتعلموا لغة تلك الرسالة .

ثم بلغنا في المدة الأخيرة ان احد علماء النرويج عشر على جزء من القطعة المفقودة من رسالة ابن فضلان وحقق منه ما يتعلق بكلام ابن فضلان على الأقاليم الشماليين الذين يسكنون في اسكندنافيا في وقته وهم المعروفون بالفايكنج وقد اشتهروا بالفروسية ثم بالتجارة وكانت لهم معاملات ومداومات مع أطراف البلدان الإسلامية حتى إنهم وصلوا إلى الأندلس .

وقد ترجم العالم المذكور ذلك الجزء الى اللغة النرويجية وعلق عليه ونشره ثم ترجمه عالم آخر الى الانكليزية؛ كما ترجم الاستاذ احمد عبدالسلام البقالي من المغرب ذلك الجزء من الانكليزية الى العربية وهو اكبر حجماً مما نشره الدكتور الدهان غير انه لم يكن بالعربية فقد ذكر الاستاذ البقالي أنه لم يستطع الحصول على النص العربي الذي ترجم عنه العالم النرويجي لذلك لم يكن الأسلوب أسلوب احمد بن فضلان في رسالته التي اطلعنا على الجزء المتعلق منها بالسفر من بغداد الى بلاد البلغار ومقابلة ملكها وهو النص الذي

نقل اكثره ياقوت في معجم البلدان نقلا من رسالة ابن فضلان وهو اسلوب مميز، أما روح ابن فضلان فانها موجودة في النص المترجم وان كانت تظهر فيه عناية ابن فضلان بالتفصيلات فان المرء مثلنا لا يطمئن اليه الا اذا اطلع على أصله بالعربية او على صفحات منه مصورة وهذا لم يحصل بالنسبة الى هذا الجزء الذي ترجمه الاستاذ البقالي من الرسالة، كما ان المترجم الى العربية وربما كان ينقل ذلك عن الترجمة بالانكليزية قد ذكر ان أهل الشمال - الذين يريد بهم الاسكندنافيين- قد أسروا ابن فضلان قبل أن يصل الى ملك البلغار وتسليمه كتاب الخليفة وما معه من الهدايا.

وهذا ينافي حقائق واضحة منها ما ذكره ابن فضلان نفسه من القطعة من الرحلة التي نشرها المجمع العلمي العربي بتحقيق الدكتور هناك، وما كان نقله ياقوت عن الرحلة منذ اكثر من ستمائة سنة من ان ابن فضلان قابل الملك وذكر من التفصيلات والأمر المتعلقة بتلك المقابلة من وصف لها ووصف لمجلس الملك وما ئدته ونظام الجلوس في محله فذلك كله يقطع بانه التقى بملك البلغار وسلمه ما معه من الرسائل وغيرها.

أما كونه أسر من جهة الاسكندنافيين فلا شك أنه جرى بعد ذلك، اذ ذكر أنه بعد مقابلته للملك سافر خارج عاصمة الملك لأنه طلعة محب لمعرفة كل شيء عن هذه البلاد الشمالية المجهولة فأسره الشماليون (الاسكندنافيون) واخذوه معهم وهم يسافرون في نهر أيتل (الفولقا) حيث أحداث ذلك الجزء من الرحلة والله اعلم.

وجاء في رسالة ابن فضلان أن السفر من بغداد الى مدينة (بلغار) قد استغرق احد عشر شهراً على وجه التقريب مع ذكر مصاعب ومتاعب جمة صادفت البعثة التي فيها ابن فضلان، ولو لم يكن في رسالته إلا أنه أوضح ما تحمله أسلافنا الكرام العظام في الوصول الى هذه البلاد المسلمة في تلك العصور القديمة من أجل هدف إسلامي نبيل الا وهو الاستجابة لرغبة ملك (البلغار) المسلم في أن يجد من علماء المسلمين من يفقهونه وقومه في الدين ويطلعونهم على بعض الفنون الحضارية .

وكنت أردت أن أنقل مما يتعلق ببداية الرحلة والوصول الى بلاد البلغار من النسخة التي طبعها الاستاذ البقالي وذكر في اولها ما طبعه الدكتور الدهان على أن احذف التعليقات ، واختصر ذلك كله لأن من يريد الإطلاع على الرسالة كاملة يستطيع ان يرجع اليها بسهولة بخلاف كتاب (تلفيق الأخبار) الذي يصعب الإطلاع على نسخة منه ولأن مقصودي - كما قدمت - هو بيان الوقت الذي استغرقه سفر الوفد الذي فيه ابن فضلان وما قابله من متاعب، غير أنني رأيت أخيراً حذف ذلك من الكتاب اعتماداً على أن من يريد الاطلاع على رسالة ابن فضلان يستطيع ذلك إما من حوانيت الورّاقين أو من خزائن المكتبات العامة .

ومن محاسن الصدف أنني بينما كنت أبيض هذا الكتاب وافكر فيما ذكره الدكتور سامي الدهان من أنه لم يقع على ترجمة ابن فضلان في كتب الجغرافية والتاريخ والأخبار ولم ير سطوراً واحداً يشير

اليه رأيت مصادفة اسمه مضبوطاً مصححاً وقد قال الدكتور الدهان :
نحن نجهل كل الجهل ما كان من اسمه فهو عند ياقوت أحمد بن
فضلان بن العباس بن راشد مولى محمد بن سليمان وهذا يخالف ما
جاء في الرسالة من ان اسمه محمد يريد ما جاء في صلب الرسالة في
حكاية ان اسمه محمد ثم غلط الدكتور الدهان في اسم مولاه وهو
الذي اعتقه او اعتق اباه وهو محمد بن سليمان فذكر انه محمد بن
سليمان بن المنفق ابو على الكاتب كما جاء في تجارب الأمم ٥٠ / ٥
أنه فتح مصر وشتت آل طولون، والصحيح ما يأتي مما ذكره ابن
فضلان نفسه او من روى عنه رسالة المناظرة من أن مولاه هو محمد
بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب .

وقد وصلتني من الأخ الاستاذ علي بن عبدالعزيز الشبل رسالة
حققتها وطبعها وذكر أنها تنشر لأول مرة وعنوانها : (مناظرة للامام
الحجة جعفر بن محمد الصادق) وهذا هو العنوان الخارجي اما
العنوان الداخلي فقد اضيفت إليه جملة (مع الرافضي في التفضيل بين
ابي بكر وعلي رضي الله عنهما)؛ وقد طبعها في الرياض عام
١٤١٧هـ .

فوجدت فيها عرضاً اسم ابن فضلان مذكوراً في سلسلة الرواة
الذين رووا هذه المناظرة؛ وابتدؤا بالحافظ الحجة المحدث ضياء الدين
المقدسي صاحب التصانيف في الحديث منها (الأحاديث المختارة)
وقد توفي الحافظ في عام ٦٤٣هـ وجاء في سلسلة رواة هذه المناظرة
الى الامام جعفر الصادق اسم (ابن فضلان) كاملاً واسم مولاه وهو

الذي اعتقه كاملاً، بل وردت فيها كنيته وأنها (أبو بكر) وهي كنية لم ترد في الكتب المعروفة، ولم أطلع عليها قبل ذلك ونص ذلك :

(حدثنا أبو بكر أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب إماماً، قال : حدثنا أحمد بن عبدالعزيز الجوهري بالبصرة الخ(ص ٧٠) .

ويلاحظ أن جده ذكر هنا أنه (راشد بن حماد) وفي الرسالة الرشيد وما هنا أصبح لأنه مقروء مقر من حفاظ للحديث ثقة من الذين يدققون في مثل هذه الأسماء .

ابن بطوطة في بلاد البلغار:

ابن بطوطة ذلك الرحالة الطنجي المغربي هو اصدق الرحالة العرب وصفا وهو اكثرهم عناية بالتفصيلات في رحلته وهو الطفهم حساً في ميدان كتابة الرحلات وقد ذكر (بلاد البلغار) في رحلته ولكنه لم يتوسع في كلامه عليها كما انه ذكر شيئاً لا يمكن أن يكون صحيحاً الا إذا أخذنا لفظه على غير ظاهره و بحثنا له عن تخريج وسوف ياتي ذلك في تعليقنا على كلامه .

قال ابن بطوطة - رحمه الله - :

« كنت قد سمعت بمدينة بلغار، فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل، وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر، فطلبت منه من يوصلني إليها، فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه؛ ووصلتها في رمضان، فلما صلينا المغرب افطرنا، وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها، وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً، وأقمت بها ثلاثاً، وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يوماً، ثم أضربت عن ذلك، لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى، والسفر إليها لا يكون إلا في عجالات صغار تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد، ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو

نحوها، موفرة بطعامه وشرابه وحطبه، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر، والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت، وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف .

فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمرور والسنجاب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه، وان لم يرضه تركه، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم، ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبيعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم الإنس، ولا يرون أحدا .

والقاقم هو أحسن أنواع الفراء، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون، وهي شديدة البياض، من جلد حيوان صغير على طول الشبر، وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله، والسمرور دون ذلك، تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها، ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل، وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق، وكذلك تجار فارس والعراقيين .

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان صحبتي، فوجدت السلطان محله على الموضع المعروف ببش دغ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان، وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد الجمعة. ١٠هـ كلامه

وأولى الملاحظات على كلام ابن بطوطة رحمه الله قوله: فلما صلينا المغرب افطرنّا واذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر، وطلع الفجر اثر ذلك.

فهذا غير صحيح إذ لايزيد قصر الليل في الصيف على خمس ساعات او نحوها فلا يصل قصره الى ما ذكره ابن بطوطة الا اذا كان ابن بطوطة يريد بطلوع الفجر طلوع النور من قبل الشرق فهذا صحيح ولكن يظل منيراً لمدة طويلة وليس كما يكون الحال عندنا بان يكون بين طلوعه و طلوع الشمس نحو ساعة ونصف او أقل قليلا من ذلك؛ بل ان الذي شاهده ان الشفق وهو النور المتبقي بعد غروب الشمس لا يذهب في تلك البلاد في الصيف حتي يطلع النور في المشرق فإذا كان هذا هو الذي ذكره ابن بطوطة فكلامه صحيح.

والثانية قوله: إنه أراد الدخول الى ارض الظلمة فهو يعني منطقة القطب الشمالي وهذا وصف لها بالظلمة في الشتاء اما في الصيف وهو الفصل الذي ذكر انه زار فيه مدينة بلغار فان النهار والضوء فيها هو اطول واوضح مما في مدينة بلغار، وقد رايت ذلك بنفسي عندما سافرت في عام ١٤١٠هـ الموافق ١٩٩٠م الى مدينة (مورمانسك) في اقصى شمال روسيا فهي واقعة على خليج من

المحيط المتجمد الشمالي ، وكانت الشمس فيها لا تغيب ابداً عندما كنت هناك في الثلث الاخير من شهر يونيو وهذا أمر معروف وقد ذكرت تلك الزيارة لها في كتابي (الرحلة الروسية) وهو كتاب مطبوع .

الملاحظة الثالثة مما ذكره عما سمعه عن السفر في بلاد الظلمة التي هي منطقة القطب الشمالي وما ولاها من جهة الجنوب فإنه صحيح معروف الآن .

العودة الى قازان

وبعد العبارة ايضاً لم يكن ما يستدعي الحديث عن المناظر
- فنعس من نعس من القوم وهذا منهم من هداً بعد حركة حتى وصلنا
ضواحي قازان في الثانية عشرة والنصف فصارت السيارة تمر ببعض
المرافقين الذين بيوتهم في الطريق الى قلب العاصمة، ولم ندخل فندقنا
(فندق تاتارستان) الا في حدود الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

يوم الجمعة : ١٨ / ٤ / ١٤١٥ هـ ٢٣ / ٩ / ١٩٩٤ م.

الى قلب قازان الفاخر:

وهو قسم منها قديم، ولكن كان اهم جزء منها لأنه كان فيه
ولا يزال قصرالحكومة وعدة مبان اثرية وموقعه مرتفع يرى المرء من
شرفته نهري قازان وايتل (الفولقا) وهما يتعانقان ثم يمتزجان امتزاج
روحي المحبين وهو واقع على ضفة هذا الخضم الضخم من مياههما
المتمازجة .

وكنت قد زرته في المرة الماضية ولكننا سندهب هذه المرة اليه
لان فقرتين من برنامج زيارتنا هذا العام ستكونان فيه وهما حديث
للتلفاز الرسمي ارادوا ان يكون هناك حتى يظهر هذا المنظر الجيد منه،
ومقابلة مستشار رئيس الجمهورية في القصر الجمهوري الذي يقع فيه ايضاً .

حديث التلفزة :

اجرى حديث التلفزة معنا أحد العاملين في التلفاز الحكومي
واسمه (مُقَدَّس أحمد) ولما سألت المفتي الذي كان يرافقنا ومن معنا

من المشايخ أيضا عن معنى اسم (مقدس) أجابوا بأنه المقدس العربي
- يريدون اللفظ - من التقديس .

ولاشك ان الذين تسموا من قبله بهذا الاسم كانوا على جانب
كبير من التدين و جانب غير كبير من معرفة اللغة العربية وإلا لما اسموه
بهذا الاسم الذي لايجوز ان يطلق على شخص من سائر الناس
لاسيما إذا لم يكن معروفاً بطاعة الله تعالى باتباع اوامره واجتناب
نواهية ثم صار الناس يسمون هذا الاسم تقليداً لمن سبقوهم ممن سموا
به وليس لمعرفتهم معناه .

بدأ الأخ (مقدس) الحديث بأن عرفنا للمشاهدين، ثم طلب
مني أن اتحدث للمشاهدين عن الغرض من زيارتنا لتتارستان وعن
ملاحظاتنا في هذه البلاد، فقلت إنني من رابطة العالم الإسلامي التي
هي منظمة شعبية عالمية كنا في زيارة لجمهورية روسيا الاتحادية
فانتهزنا الفرصة لزيارة هذه الجمهورية التي تجمعنا بطائفة كبيرة من
سكانها جامعة ثقافية تاريخية مهمة هي الثقافة الإسلامية، وقد اطلعنا
على بعض المساجد الجديدة وعرفنا الحرية الدينية التي يتمتع بها
المواطنون في الوقت الحاضر وإننا نرجو ان تزيد العلاقات ما بين بلادنا
السعودية وجمهورية تتارستان في جميع المجالات، كما نرجو ان
تقوى العلاقات الثقافية الإسلامية ما بين رابطة العالم الإسلامي في
مكة المكرمة وبين الادارة الدينية لمسلمي جمهورية تتارستان، وسوف
نعمل مع صديقنا فضيلة المفتي الشيخ عبدالله خليل صفا لتحقيق ذلك
- إن شاء الله - .

مقابلة مستشار رئيس الجمهورية:

وسمعت بعضهم يسميه (نائب رئيس الجمهورية) وهو من المقربين إلى الرئيس وذوي النفوذ في الحكومة واسمه (تيمور بوروفيتش اكلوفن) .

كان اللقاء في مكتبه في القصر الجمهوري الواقع في هذا القسم المرتفع الممتاز من مدينة قازان ، وذلك في الساعة التاسعة والنصف .

دخلنا سيراً على الأقدام إلى القصر الجمهوري المجاور للمكان الذي اجرينا فيه المقابلة التلفزيونية ، وجدنا القصر واسع المدخل والفناء الداخلي تنتشر فيه الأشجار الضخمة ، إلا انه ليس منسقاً تنسيقاً جيداً من حيث التزهير أو التزيين بالخضرة وصعدنا إلى الطابق الثاني مع درج واسع مفروش بالسجاد فوجدنا الأخ تيمور في مكتبه غير البعيد من مكتب رئيس الجمهورية في القصر نفسه .

استقبلنا الأخ تيمور بوروفيتش (اكلوفن) هاشا باشا مرحباً بالعربية التي يتكلم بها كما يتكلم بها ابناؤها وذكر لنا فيما بعد انه تعلمها في كلية اللغات في موسكو ثم عمل في عدد من الأقطار العربية فتمرن على التكلم بها .

بدأ الكلام الجاد على مائدة مستطيلة ، اتخذت شكل موائد المحادثات الرسمية حيث جلس مستشار رئيس الجمهورية بجانبه بعض الاخوة من اهل تاتارستان فيهم بعض مرافقينا ومنهم الشيخ عبد الله خليل صفا وجلست مقابلاً له مع الاخوين حسن ازميرلي ورحمة الله ابن عناية الله عضوي وفد الرابطة .

فكان ان تكلم باللغة التتارية التى هي كما كررت القول متفرعة من اللغة التركية القديمة وترجم الكلام الى العربية أحد الاخوة الحاضرين ليسمعه من لا يفهم منهم محافظة على الطابع الرسمي لمنصب الرجل، ومع ذلك بدأ كلامه بشكر رابطة العالم الإسلامي على ما لاقاه من تكريم في الحج الماضي من قبل الرابطة مع بعض كبار المسؤولين في تاتارستان وقال : ان دعوة الرابطة له أفادته من جوانب عديدة فقد رأى بعينه التقدم الذي احرزته المملكة العربية السعودية في مجال العمارة والمجال الاجتماعي، ثم عبر عن سروره باستقبال وفد الرابطة وبإتاحة الفرصة له لاستقبالنا، وأشار الى التغيرات التى شهدتها تاتارستان ولا تزال تشهدها في ميدان حرية العبادة وبناء المساجد حتى ارتفع عدد المساجد الجديدة التى بنيت في المدة الأخيرة الى اكثر من ثلثمائة مسجد، وذكر ان تاتارستان رغم ما تعانيه بسبب طبيعة الارتباط مع روسيا التى ورثها العهد الحاضر عن العهد الماضي فانها تناضل من اجل الاستقلال الاقتصادى والثقافى، ولم يقل شيئاً عن الاستقلال السياسى لحساسية هذا الموضوع وعدم التفكير فيه في الوقت الحاضر.

وقال إننا نتمنى ان يتم اجراء اتصالات مكثفة ومتواصلة بين رجال المال والاقتصاد في المملكة العربية السعودية وبين جمهورية تاتارستان بغية تعزيز الروابط الاقتصادية بما يعود على الشعبين التتاري والسعودي بالفائدة، وقال : إن التجربة التى مررت بها في بلادكم التى شهدناها حين زيارتنا لها جديدة بأن يستفيد منها المسؤولون عن الاقتصاد في بلادنا.

وقد شكرته على ترحيبه بوفدنا ومشاعره الطيبة تجاه المملكة العربية السعودية وقيادتها وشعبها وقلت له اننا كما تعلمون من رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية ولذلك كان عملنا منصباً على تقوية العلاقات الثقافية الإسلامية في هذه البلاد وقد بحثنا مع صديقنا المفتي الشيخ عبدالله صفا واخوانه العاملين في الادارة الدينية في تارستان كيفية تقوية العلاقات الثقافية فيما بيننا، ومن حسن حظنا ان أتاحت لنا فرصة الإطلاع على النشاط المثمر الذي يجرى الآن في البلاد متمثلاً في بناء المساجد الحديثة التي رأينا فيها كلها غرفاً مخصصة للمدارس القرآنية وتعليم اطفال المسلمين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف .



١ في مكتب الاستاذ تيمور بوروفيتش اكرولوفن مستشار رئيس جمهورية تارستان قازان .

إن المسجد -ياصاحب المعالي- كان في صدر الإسلام مكان

العبادة، وموضع الالتقاء والتعارف بين المسلمين وهو الى ذلك كان المدرسة الإسلامية النافعة، اذ كانت تدرس فيه العلوم الإسلامية وكانت تلقى فيه المواعظ والتوجيهات بل كانت المساجد دور تربية وتنمية للاخلاق واننا نرجو ان تعود للمسجد مكانته في هذه البلاد التتارية الشقيقة التي كانت إبان تمسكها بالإسلام بلاداً مزدهرة عامرة بل كانت أرقى بلاد في المنطقة في تلك العصور.

ولو قارنا ما كانت عليه آنذاك وما هي عليه الآن من حيث الثقافة الإسلامية التي هي سبب عزها ومجدها وهي التي كونت شخصيتها القوية المميزة لوجدنا البون شاسعاً بل لوجدنا الفرق محزناً نحن المحبين لهذه البلاد الاشقاء لشعبها المجيد.

ايها الاخ العزيز: ان رابطة العالم الإسلامي ليس من عاداتها ولا من رغبتها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للإخوة المسلمين ونحن نؤكد ذلك حتى في العمل الإسلامي والثقافي فنحن لن نعمل الا بالاتفاق مع الجهات العاملة في الحقل نفسه في هذه البلاد، وطبقاً لما تقتضيه المصلحة الإسلامية العامة.

ومن حسن الحظ ان العلاقات الخاصة التجارية بين بلادنا وبين جمهورية روسيا الاتحادية التي تؤلف بلادكم جزءاً منها هي علاقات جيدة تسمح بتنمية العلاقات الثقافية ما بين رابطة العالم الإسلامي وبين المسلمين في روسيا الاتحادية.

ثم قلت : ولعل معاليكم تعرفون ان الدين الإسلامي الحنيف بالنسبة لنا ليس هو مجرد عبادات ومراسم دينية فهذه على اهميتها

وتأثيرها إنما هي تمثل الركن الأعظم من الموضوع لأن الإسلام لنا نحن المسلمين هو ديننا وثقافتنا وتاريخنا المجيد الذي نعتز به ولذلك يكون السعي في تعزيزه من كل مسلم إنما هو تعزيز لكل هذه الأشياء التي سوف تعيد للمسلمين مجدهم ومكانتهم التي فقدوها عندما فرطوا في أمور دينهم .

التتار ينقصون؟

استمر الحديث بعد ذلك معنا باللغة العربية التي لا يفهمها من الحاضرين الا القليل فسألته عن نسبة المسلمين في هذه الجمهورية فذكر انها النصف وان نصف السكان من غير المسلمين .

فقلت له : إن معنى هذا ان عدد التتار المسلمين في بلادهم هذه لا يصل الى المليونين مع أنهم موجودون منذ قديم الزمان في هذا الوطن وان عادة المسلمين انه يزداد عددهم بنسبة اكبر من نسبة غيرهم من ارباب الديانات الاخرى .

فقال : لاشك أن نسبة المسلمين الآن هي انقص مما كانت عليه في الماضي وذلك بسبب زيادة السكان من غير المسلمين .

فقلت له : الاتوجد لديكم خطط لتعديل هذه النسبة حتى تصبح للمسلمين زيادة راجحة؟؛ لانه اذا اجريت انتخابات في البلاد وانتم على ما انتم عليه من هذا العدد القليل نسبياً لم تستطيعوا ان تنجزوا القوانين المتعلقة بثقافة البلاد الأصلية وهي الثقافة الإسلامية، حيث ان أرباب الديانة الأخرى سيطالبونكم بمثل ذلك بخلاف ما اذا كان عدد المسلمين أكثر فانهم سوف يصوتون في الانتخابات إلى

جانب من يعمل على خدمة الثقافة الإسلامية المميزة لكم .

فقال : نعم اننا نعمل الآن على اعادة التتار الذين نرحوا من بلادنا في الماضي فنسهل لهم العودة اليها وذلك امر سهل قانونيا وعملياً ، لانهم موجودون في انحاء الاتحاد السوفيتي وهم يحملون جنسية روسيا الاتحادية ولذلك لا يوجد مانع قانوني يمنع من عودتهم الى تاتارستان والعيش فيها .

فقلت له ان هذا جيد ولكنه لا يحل المشكلة حلا جذريا لان عدد النازحين قليل وبعضهم اتخذ من انحاء روسيا الاتحادية او من البلاد التي كانت داخلة في الاتحاد السوفيتي سابقاً واستقلت الآن عنه وطناً ثانياً ونشأ فيه اولادهم وربما يصعب عليهم العودة ولاشك ان هذه ليست حال الاكثرية ولكنها موجودة .

فقال : هذا صحيح .

فقلت له : انني سأعرض عليكم اقتراحاً قد ترونه غير جاد لأول وهلة ، اوحى قد تظنون انه اقتراح مضحك ، لانه يتنافى مع قواعد التربية التي نشأ عليها المتعلمون في هذه البلاد خلال الحكم الشيوعي الملحد فيها ولكنه اقتراح جاد وعملي وربما كان اهم شئ في الموضوع الذي نبحثه الآن .

انه اقتراح العودة الى تعدد الزوجات فهو يتماشى مع الدين الإسلامي الحنيف الذي يعشقه شعب تاتارستان الذي له الحق في التمسك بأوامر دينه والسير على التقاليد المستوحاة منه .

وطبيعي ان الموضوع لن يكون أمراً فضلاً عن ان يكون الزاماً ،

فكثير من الناس حتى في البلدان الإسلامية التي تبيح تعدد الزوجات يقتصرون على زوجة واحدة وانما المراد ان يتاح ذلك لمن يرغب فيه من المسلمين عن طريق اباحته قانونيا ولا شك انه توجه فئة من الناس ستعمل به وبذلك يزداد عدد المسلمين في هذه البلاد زيادة كبيرة .

والى أن تصدر الجهات المختصة في هذه الجمهورية قانون اباحة تعدد الزوجات الذي هو في الحقيقة ليس قانونا جديداً على مسلمي البلاد وانما هو العودة الى شئ كانوا عليه في الماضي يمكن ان يوعز المسؤولون المسلمون في الحكومة بطريقة غير معلنة الى بعض الجمعيات الاجتماعية المعترف بها قانونياً وهي غير حكومية بأن تنشأ عندها صناديق تسمى (صناديق التشجيع على الزواج) تعتمد على جمع التبرعات المحلية والعالمية وتستعمل الاموال التي تجمعها لتشجيع زواج المسلمين المبكر بالمسلمات وتقتصر بصفتها إسلامية على المسلمين لكونها جمعيات اهلية وذلك عن طريق دفع تكاليف الزواج والمساعدة على تكوين بيت الزوجية عن طريق دفع مساعدات شهرية لمدة معينة حتى يكون الزوجان أسرة مسلمة مستقرة .

يضاف الى ذلك دفع اعانات ولو صغيرة لمن ينجبون من المسلمين اكثر من ولدين، أو اكثر من ثلاثة أولاد، حسب الخطة التي تتخذها الجمعية المعنية لهذا الغرض .

لقد دهش هذا الرجل السياسي المفكر لهذا الاقتراح الذي لاشك انه سمع به اول مرة، ولكنه لم يستطع ان يعلق عليه بالاستحسان حتى بالعربية، لئلا ينقل عنه علنا فيما أظن انه يؤيده ولكنني اطمأنت على انه قد سمعه مني وتفهم المقصود منه .

ان المسلمين اصبحوا لا يؤلفون اكثر من نصف السكان في بلادهم وذلك بسبب سياسة التهجير الروسية اليها وهي سياسة اساسها القهر والغلبة فلم لا يسعى المسلمون الى مقاومة ذلك بطريقة سلمية؟

الصومعة التذكارية :

وحقها ان نسميها بالمنارة التذكارية لولا انها تشبه المأذنة الأندلسية التي يبنها اخواننا المغاربة في مساجدهم حتى الآن وهي المربعة التي تكون مؤلفة في نظر العين من اجزاء اسفلها اعلى من الذي اعلى منه .



[المنارة التذكارية في قازان]

خرجنا من
القصر الجمهوري
حيث وقفنا على
هذه الصومعة التي
بقربه وهي ايضا
تقع بقرب كنيسة
مزوقة المظهر كانت
مسجداً فحوله
الروس عندما احتلوا
مدينة قازان الى
كنيسة ولا يزال
كنيسة حتى الان .
اما الصومعة
التذكارية هذه فقد

فرغوا من بنائها منذ وقت قريب وهي شامخة البناء يبلغ ارتفاعها ٦٧ متراً وتقع في هذا المكان المرتفع من مدينة قازان، بل هو اعلى الأماكن المرتفعة فيها على قلة الأماكن العالية فيها ، ولذلك ترى هذه الصومعة من مسافات بعيدة .

وقد ركبوا فوقها شاهداً ذهبي الطلاء ذكروا انه هدية من رئيس الجمهورية، ولا يشك من يرى هذه الصومعة انها منارة لمسجد كبير لانها تشبه المآذن الاندلسية كما قلت .

اما التعريف بها فإنهم ذكروا ان سبب بنائها ان الروس - بعدما احتلوا مدينة قازان وهدموا من مساجدها ما هدموا وقتلوا من رجالاتها من زعماء وفرسان وعلماء من قتلوا - ذكرت لملكهم أميرة تتارية جميلة، بل هي اجمل نساء عصرها فطلبها الملك الروسي لنفسه، فظهرت الترحيب بطلبه غير انها طلبت منه ان يبني لها مبنى تذكاريًا في هذا المكان المرتفع يكون ارتفاعه بقدر ارتفاع سبعة طوابق من الطوابق العالية التي كانت معروفة للأبنية الكبيرة في ذلك الوقت .

قالوا فوافق الملك على ذلك، وأمر ببناء الصومعة، ولما اكتملت صعدت الاميرة التتارية المسلمة الى اعلاها من اجل ان تشرف على المنطقة منها فيما قالته للملك، الا انها عندما بلغت اعلى منطقة منها القت بنفسها على الارض من ذلك الارتفاع فقتلت فوراً .

قالوا وقد صرخت بكلمات وداع الى شعبها المقهور قبل ان تلقى حتفها، وقد دخلت قصتها في الادب الشعبي التتاري، وقد خربت هذه الصومعة وتهدمت، الا ان القوم حينما ملكوا الحرية في بعض

شؤونهم قبل ثلاث سنوات بادروا بإقامتها على هيئة قوية وتوجوها بهذا الهلال الذي يُرى عليها الآن .

كرملين قازان :

واصلنا السير في هذا الجزء المهم من عاصمة تتارستان فقد اعتنوا به من ناحية النظافة والتنظيم ولم يكن فيه ما يكدر خواطر مثلنا الا منظر الكنيسة التي كانت مسجداً بأبراجها الذهبية وتحديدها لمشاعر المسلمين، فوصلنا الى قلعة ذات قبة خضراء الطلاء يسمونها كرملين قازان قياساً على تسمية الكرملين الشهير في موسكو .



[الكرملين في قازان]

وقد استعرضت في ذهني العز التليد الذي ليس له عز طارف في بلاد المسلمين هذه، فبعد ان كان على من يعين كينازاً في موسكو أي كبير الحكام في روسيا ان يرسل السلطان من قازان مرسوما يسمونه

(فرمانا) يتضمن تثبيت ولايته يقرأ في كرملين موسكو والا لم يعتبر الناس حتى الروس انفسهم ان توليته صحيحة .

واليوم اسس الروس بعد ان اخضعوا المسلمين بزمن طويل هذه القلعة في عاصمة المجد التليد للمسلمين لتكون رمزاً لسيادتهم واضمحلال سيادة المسلمين عليها .

قل يحييها الذي أنشأها أول مرة:

رأيت في هذه المرة كتابة في الميدان المرتفع الرئيسي من مدينة قازان وهو الميدان الذي لا بد لمن يزور المدينة أن يراه حتى ولو كان من داخل جمهورية روسيا الاتحادية لانه واقع في هذا القسم القديم الفاخر حيث يطل على نهر قازان، وتطل عليه (كرملين قازان) .

ولم اكن رأيت هذه الكتابة من قبل لانني تأملت المكان في الزيارة الاولى ولا يمكن ان تخفى هذه الكتابة علي لانها بالعربية ولكونها اية قرآنية كريمة لا يمكن ان يخطيها نظر مثلي في هذا المكان الواضح، وهي مكتوبة بخط عربي جميل جدا وذلك من دون ترجمة حتى الى اللغة التتارية بل هي متروكة بالعربية وحدها على هيئة لوحة حجرية واضحة .

والآية هي ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) [يس] وتصورت ان المقصود من ايراد هذه الآية في هذا المكان هو الدولة الإسلامية القديمة في هذه البلاد وسيطر علي الشعور حتى شرقت بدمعي، وسألت الاخوة المرافقين وانا اغالب الدمع عنمن كتب ذلك فذكروا أن وزارة الثقافة هي التي كتبت هذه الآية، اي

انها كتبتها جهة رسمية حكومية .

ولكن ما الغرض من كتابتها ان لم يكن التذكير بماضي الدولة المسلمة هنا وبأن الذي أنشأها اول مرة هو قادر على ان يعيدها ثانية؟ ولو كان المراد غير ذلك بأن يكون المراد مجرد إيراد آية من الآيات التي تقرر البعث يوم القيامة لكانوا ترجموا معناها وشرحوها، ثم لما كان مكانها هذا الموقع السياسي المهم حيث القصر الجمهوري والقلعة (الكرملين) والكنيسة التي كانت مسجداً فحول الى كنيسة، والصومعة التذكارية التي تكلمت عليها، ثم هذا الموقع الفريد الذي يطل على مياه نهري قازان وايتل (الفولقا) اللذين كانت مياههما من المنبع الى المصب مياهها إسلامية، ليس لغير المسلمين عليها سلطان .

صور الشجعان المسلمين :

وفي هذا الميدان ايضا رأيتهم رسموا صوراً لعدد من القادة الشجعان التتار الذين قُتلوا اثناء الحرب العالمية الثانية دفاعاً عن الاتحاد السوفيتي فاقام الروس لهم هنا لوحة تتضمن صوراً لهم مقتصرة على الراس واسمائهم كما هي العادة الروسية وقد تأملت اسماءهم فوجدتها كلها اسماء إسلامية وان كان بعضها قد حرف تحريفاً بعد به عن أصله الإسلامي أو العربي ، وهذه بعض الاسماء وكلهم من أبناء المسلمين .

سليم بخاروف

أحوآت ما شيف

وزنت حسنوف اي ابن حسن، لان (اوف) في اخر الاسم
يعني باللغة العربية (ابن) .

عبد الله بطالوف ، اي ابن بطال

احمد سمييف، اي ابن سمي واصلها : سميع الله .

غريب بابا ييف .

فؤاد بولا توف، اي ابن بولات وهي بولاذ التي هي الفولاذ .

عبدالله علي .

فؤاد بابا فالينيکوف .

غينان كرماتش وغينان : تحريف (عدنان) .

ميدان الاستقلال :

انحدرنا من المرتفع المهم في قازان الى القسم الجيد من المدينة
فوقفنا في ميدان يسمونه ميدان الاستقلال فيه تمثال للينين .

واعجب لاستقلال غير موجود، ولتمثال للينين طاغية الشيوعية
التي رفضها حتى قومه الادنون، ولكن تمثاله لايزال موجوداً بل مرفوعاً
في مكانه، وتقع على جانب من هذا الميدان (جامعة لينين) الحكومية
سميت بذلك لكون لينين قد درس فيها ابان دراسته، لانه من بلدة
تبعد (٣٠٠) كيلو متر، جنوباً من تاتارستان، واسمها (اوليانسكي)
لم تكن فيها جامعة لذلك جاء لينين للدراسة في جامعة قازان هذه،
ذكروا أنه بدأ تزعم المتذمرين من الحكم القيصري من هذه الجامعة

حيث كان يتظاهر مع من يقنعهم بالعمل مثله في هذه الجامعة وينطلق منها بالمظاهرة في شوارع المدينة .

ومما يجدر ذكره ان المنطقة التي فيها بلدة (اوليا نسكي) التي ولد فيها لينين تعتبر الان منطقة روسية اي تعتبر من بلاد الروس الأصلية مع أنها لم تكن كذلك وانما كانت من ديار المسلمين لان الروس لم تكن لهم بلاد الى الجنوب من تارستان إبان الدولة الإسلامية .

ومبنى الجامعة ذا طراز روماني قديم تتقدم مدخله اعمدة رومانية تقليدية، وقد بنيت الجامعة حديثاً مبنيين ضخمين من ١٦ طابقاً .
ومقابل مدخل الجامعة ميدان صغير ومتسع مرفوع عن الأرض فيه تمثال للينين، والاسم الكامل له فلا ديمير ايليتيتش لينين .

شاطئ قازان :

والمراد به نهر قازان وليس مدينة قازان ذهبنا بالسيارة مع الإخوة المرافقين الذين ارادوا أن يُرونا معالم المدينة المهمة في هذا اليوم الشامس الجميل، ورأينا أهم مبنى فيه كان اسمه (موموريال) بمعنى التذكاري كانوا انشأوه ليكون تذكاراً للينين وقد انفقوا عليه اموالاً طائلة في إسراف ظاهر، الا أنهم بعد ان تغيرت الظروف السياسية نتيجة لسقوط الشيوعية غيروه فحولوه الى مركز لجمع التراث المحلي وأسموه (المركز الوطني)، ويقع في مكان مختار من ضفة نهر قازان العظيم .



[على نهر الفولقا في قازان]

ميناء قازان :

والمراد بها هذه المرة مدينة قازان فهو ميناء المدينة على ضفة نهر ايتل (الفولقا) رأيناه مليئاً بالسفن الكثيرة المتعددة الاحجام ومنها سفن كبيرة لا تكون عادة الا في الموانئ البحرية العميقة ولكن مياه هذا النهر العملاق تحملها فتزد إليها وتسافر منها إلى عدة مدن اهمها مدن وبلدان واقعة على نهر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين حيث يمتد نهر إيتل (الفولقا) اليه فيصب فيه .

واما البلدان التي تقع على ضفة النهر قبل ان تنتهي في بحر الخزر الذي هو بحر داخلي مغلق فانها كثيرة، ولذلك يعتمدون بدرجة كبيرة على النقل المائي، مثلما يعتمد غيرهم على النقل البحري .

ويتجمد نهر (القولقا) هذا في الشتاء فيتعطل العمل في هذا الميناء، ويبلغ سمك التجمد فيه إلى متر واحد أو يزيد عن المتر قليلاً. وأما أسفل النهر فإنه يبقى سائراً لا ينقطع جريانه، لأنه لا يصله التجمد، وإذا تجمد النهر في الشتاء وتعطلت الملاحة النهرية فيه، ركبته السيارات، وسارت فوقه فصارت تسافر فيه بدلاً من السفن إلى أماكن بعيدة .

وقفنا ملياً نتأمل هذا النهر العظيم الذي لا يكاد المرء يرى ضفته الأخرى لولا وجود أماكن مرتفعة قليلاً فيها وفي النهر جزيرة بين ضفتيه غير واسعة، ورأيت عبارات جيدة وليست كالعبارة التي ركبناها على نهر (قاما) أحد روافد نهر (القولقا) فتلك قديمة خشنة، وقد رأيت في الميناء سفينتين كبيرتين واقفتين قال لنا مسؤول في الميناء : إن أحدهما ذاهبة إلى استراخان والأخرى إلى موسكو عن طريق القناة التي شقوها لتغذي نهر موسكو من نهر إيتل (القولقا) .

كان الجو ربيعاً شامساً عجب منه المفتي، وقال هذا الجو غير معتاد في مثل هذه الأيام من السنة حيث خلا من البرد، وخلت السماء من السحب فلا برد ولا مطر في موسم المطر هذه الأيام.

مسجد ألف عام :

هكذا اسمه وهو اسم غريب، وقصة المسجد أيضاً غريبة، وذلك أن هذا المسجد هو أول مسجد بنى في قازان بعد سيطرة الشيوعيين على الحكم في روسيا على اعتبار أنه مسجد تذكاري لمناسبة مرور ألف عام على دخول الإسلام للمرة الأولى إلى منطقة نهر إيتل

(القولقا) فوضع حجره الأساسي في عام ١٩٢٣م وصُلِّت فيه الجمعة مرة واحدة في عام ١٩٢٧م ثم أُغلق وصادره الشيوعيون وفي عام ١٩٩١م بعد سقوط الشيوعية استعادوه المسلمون، وسمي مسجد الف عام لهذا السبب، وقد غيروا اسمه أخيراً فسموه (مسجد التتار).

وصلنا المسجد في الساعة الثانية عشرة فوجدنا في الاستقبال عدداً من الأخوة المسلمين على رأسهم الاخ (اسحاق لطف الله) رئيس لجنة المسجد، ومدير المدرسة التي تتبعه وكان الاخ اسحاق يلبس عباءة عربية جيدة وإمام المسجد زكريا بن مني ولي .

وجدنا المصلين يتقاطرون على المسجد استعداداً لصلاة الجمعة مع انه لا يزال في الوقت متسع لذلك ذهبنا الى المدرسة الإسلامية ؛ واجلسونا الى مائدة مستطيلة في مطعم المدرسة الذي يقع في قاعة لا بأس بها والمدرسة مثلها مثل المرافق التابعة للمسجد كلها واسعة جيدة ، ورأينا اللافتات التي في قاعة المطعم هذه كلها عربية ومنها : (اجتمعوا على طعامكم واذكرو اسم الله ببارك لكم فيه) .

ولافطة عربية اخرى نصها : أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه اخاه المسلم، واخرى : (اكرموا الخبز، وإنما بعثت معلماً)، ورابعة : (ثمن الجنة لا اله الا الله دُم على الطهارة يوسع عليك الرزق)، وقال مدير المدرسة : طلابنا يعرفون اللغة العربية بمعونتكم .

ويشتمل منهج الدراسة في المدرسة على اللغة العربية والدين فقط فليس فيها منهج حكومي، وقد بدأت الدراسة فيها في شهر مايو

عام ١٩٩٠م، ومن العادة ان يبدأ العام الدراسي عندهم أول اكتوبر .
ثم اخذوا يشكون من قلة مواد المدرسة فذكروا ان عدد الطلاب
فيها الآن ١٢٣ طالبا منهم ٦٣ طالبا يقيمون في داخل سكن المدرسة
وقد رأينا مهاجعهم في غرف كبيرة جماعية وذكروا أنه كان في
المدرسة ٤ مدرسين من تركيا وكانت احدى الهيئات الخيرية السعودية
تدفع رواتبهم ولكنها تأخرت هذا العام فانقطعوا وقد وجدوا مدرسين
محليين براتب اقل وهو (٤٢) دولاراً في الشهر للمدرس الواحد
والآن المشكلة أنهم لا يملكون هذا المبلغ، وذكروا ان عدداً من الزوار
من البلدان الإسلامية قد وعدوهم بالمساعدة ولكنهم لم يفعلوا،
وذكروا ان بعض الطلبة القادرين وهم قلة بين الطلاب يدفعون مبالغ
شهرية ضئيلة واما البقية فإنهم لا يستطيعون دفع أى شىء لفقرهم،
وقالوا نحن ننفق عليهم في المدرسة وذكروا ان المدرسة مهددة
بالتوقف، كما ذكروا أن المسجد يحتاج الى النفقات المتكررة فأعلنت
لهم عن تبرع رابطة العالم الإسلامي بدفع رواتب المدرسين وهم
خمسـة لمدة سنة دراسية كاملة وهي عشرة أشهر بواقع اربعين دولاراً
في الشهر للمدرس الواحد بما مجموعه الف دولار امريكي، كما
اعلنت لهم اننا سندفع لهم ايضاً ثلاثة الاف دولار نفقات المدرسة
والمسجد وقد دفعنا لهم بالفعل ذلك وهو خمسة الآف دولار فوراً .

وقد صارت الستتهم تلهج بالدعاء والثناء فقلت لهم : ان هذا من
واجبنا وارجو ان يكون ذلك فاتحة التعاون ما بينكم وبين رابطة العالم
الإسلامي ويمكنكم ان تكتبوا لنا بوساطة الادارة الدينية في قازان .

ثم جلنا معهم في حديقة المسجد وارض له واسعة قد غمرتها اشجار الفاكهة المثمرة ومنها الشجرة التي رأيتها في اوتا عاصمة جمهورية بشكيريا وذكروا أنهم يستخرجون منها شرابا لذيذا في فصل الربيع وقد ذكرها علماءنا في بلاد البلغار، ومن الغريب اننا رأينا أسراباً كثيرة من البق تحوم حول هذه الشجرة دون غيرها من الشجر قالوا: ربما كان ذلك لحلاوة الماء الذي يخرج منها واشتبكت في أرضها الأعشاب حتى لا يكاد المرء يقدر على السير فيها بقدميه ولو بحذاء سميك من تشابكها وعلوها عن الارض .

وتبلغ مساحة الارض خمسة الاف متر مربع واقعة على ضفة بحيرة واسعة، من حي جيد في قازان اسمه (هادي تاق تاش) .

ومن المؤسف ان الحكومة كانت قد بدأت ببناء مبنى كبير جيد قبل أن يستعيد المسلمون المسجد، فأوقفت الحكومة البناء فيه عندما استعيد المسجد، وعرضت على جمعية المسجد أن تتسلم هذا المبنى وتكمله، فامتنعت الجمعية عن ذلك بعذر أنها لا تملك النقود التي تستطيع ان تكمل بها المبنى مع انه لا يبعد الا بأمطار قليلة عن المسجد وهو داخل الارض التي تتبعه، وذكروا أنه يلزم لا كماله ٨٠ الف دولار أمريكي وأنى لهم بذلك .

كان الجو جيداً كما قلت والخصب في حديقة المسجد التي لا يحتاج شئ فيها الى سقي الآن وفيها طائفة من الزهور الجميلة .

جمعة قازان.

كانت الجمعة الوحيدة التي صادف ان حلت وانا في قازان في

الزيارة الاولى في جامع المرجانية اكبر مسجد في المدينة، بل كان المسجد الوحيد المسموح بالصلاة فيه، اما هذه المرة فان الجمعة ستكون في هذا المسجد الذي يخشى ان تتوقف المدرسة فيه عن العمل ، وقد حرص الاخوة المسؤولون في الإدارة الدينية على ان نصلي فيه لنطلع على حاله ونعرف حاجة اهله الى التبرع لتسيير شؤونه .

وجدنا معظم المصلين قد دخلوا فعلاً في المسجد ومن المفرح ان بينهم صغاراً في السن وقد الفوا ثلاثة صفوف وبعض الصف وفي المؤخرة في قسم محجوز أشبه بالغرفة الكبيرة المفتوحة على المسجد توجد اخوات مسلمات حضرن لصلاة الجمعة معظمهن من المسنات . لقد جلسنا في الصف الاول فأذن مؤذن منهم بصوت جيد واخراج جيد واصعب ما على الاخوة المسلمين ممن لا يتكلمون العربية ان يتقنوا النطق بالحروف الحلقية ولكن هذا المؤذن أذن أذاناً خالياً من اللكنة ولم أعرف اسمه .

ثم طلبوا مني أن أؤمهم في الصلاة فامتنعت جرياً على عادة أخذت بها نفسي في مثل هذه المواقف وهي ان اكون مأموماً لان ذلك يعطي الامام الراتب حقه وثانياً لانه يمكنني من معرفة كيفية اداء الصلاة وثالثاً أنني لا احسن لغة القوم وأفضل ان يخطب فيهم من يفهم لغتهم .

وهكذا فعل المفتي الشيخ عبد الله صفا حيث تقدم فالقى خطبة قصيرة بالعربية اعقبها بخطبة او موعظة باللغة التتارية لغة القوم جلس

بعدها ثم نهض للخطبة الثانية فآلقاها قصيرة جدا بالعربية وكان يخطب واقفاً في المحراب لأنه لا يوجد في المسجد المنبر قصير لا يتعدى ارتفاعه نصف متر ، وقد اقام المؤذن وبعد فراغه مباشرة من الاقامة كبر الامام للصلاة بدون فاصل قصير او دعاء كما يكون عندنا، وقد قرأ الشيخ المفتي قراءة جيدة مفصلة .

وبعيد انتهاء الصلاة دخلوا مباشرة في صلاة نافلة من عدة ركعات لا يخل بها احد منهم، ولم ينصرفوا بعد النافلة بل بقوا كلهم في انتظار الدعاء والتسبيح والتحميد، فجعل الامام يهملهم بالدعاء دون ان يرفع صوته، ثم قال بصوت مرتفع (سبحان الله) ثم واصل الإسرار بالدعاء والتسبيح وقال كذلك (الحمد لله)، (الله اكبر)، ثم قرأ الشيخ نور الله آيات من القرآن الكريم قراءة جيدة حيث كان ادائه للتلاوة متقنا وصوته بها شجيا .

وكان الشيخ عبد الله صفا قد نوه بوجودنا في الخطبة وذكر لهم وظيفتي وانني سوف ألقى كلمة بعد الصلاة، وقد ألقى فيهم كلمة نوهت فيها بقوة الرابطة التي تربط بين المسلمين وانها اقوى من رابطة النسب وذكرتهم بأمجاد أسلافهم المسلمين في هذه البلاد وقلت لهم : انه من المطلوب منهم ان يعملوا على اعادة تلك الأمجاد الإسلامية عن طريق تربية أولادهم تربية إسلامية وبذلك يشعرون اولاً بتميزهم وبأن عليهم واجباً دينياً ثقافياً تجاه امتهم .

وقلت لهم : ان المسلم يجب أن يتميز بعمله الصالح ومعاملته الحسنة وبأمانته حتى اذا تعامل مع غير المسلمين، لان ذلك وسيلة لنشر

الإسلام لان الناس لا يعرفون عن الإسلام الا ما تحلى به اهله وهذه حال اكثرهم، ويجب على كل واحد منا ان يحاسب نفسه في نهاية كل يوم فاذا رأى انه قد عمل عملاً صالحاً في يومه حمد الله وشكر له واذا رأى انه قد فعل غير ذلك استغفر الله وعزم على ألا يعود لمثل ذلك العمل .

وقلت لهم : ان بلادكم تشهد الآن هذا التغير الجيد الذي سمح لكم باستعادة مساجدكم ، وبناء مساجد جديدة وبانشاء المدارس وهذه فرصة تنتهز، وينبغي اذا لم تستطيعوا شيئاً بسبب الحالة الاقتصادية التي عليها بلادكم في الوقت الحاضر ان تكتبوا لآخوانكم في الدين في بلدان الإسلام ومنها البلاد العربية توضحون فيها حاجتكم للمشروعات الإسلامية وتطلبون منهم مساعدتكم على تحقيق ذلك، فهذا الامر ليس فيه غضاظة على اي مسلم، لان المطلوب هو قيام المشروعات الإسلامية التي من اهمها بناء المساجد واقامة المدارس والحصول على الكتب الإسلامية بلغة يفهمها المسلمون في بلادكم ، وفي الختام دعوت الله تعالى لهم دعاء صادقاً بان يزيدهم من الخير وان يعيد الى بلادهم مجدها الإسلامي العريق وان يصلح ناشئة المسلمين في هذه البلاد ويصلح ما بين المسلمين ويجمع شملهم على الخير، وقد ترجم كلمتى الشيخ المفتي عبد الله صفا الى لغتهم ، وقد بكى كثير منهم تائراً بما ذكرته..

ثم بدأوا مصافحة نظامية بحيث جعلوا جميع المصلين في المسجد ياتون الينا في صف واحد منتظم طويل للمصافحة ومن

صافح لا يعود إلى المكان الذي جاء منه، ولاحظت ان الاخوات المصليات من النساء وكلهن من المسنات لم يخرجن من المسجد لأنهن كن يستمعن الى الكلمة ومنعهن أدبهن من ان يتقدمن الى المصلي الذي فيه الرجال فذهبت اليهن فالقيت فيهن كلمة تأثرن منها كثيراً وبخاصة عند ذكر مكة المكرمة والمدينة المنورة وبكين اكثر مما بكى الرجال، وطلبن منا الدعاء لهن في مكة المكرمة.

غداء المدرسة:

عدنا الى مطعم المدرسة مع الاخوة المسؤولين عن المسجد والمدرسة وعلى رأسهم الاخ (اسحاق لطف الله) فوجدناهم قد اعدوا المائدة فيها طويلة واسعة جلسنا عليها مع عدد منهم فكانت الفاكهة من البطيخ الاخضر (الحبب) والعنب وقيل لي انها من أذربيجان لان بلادهم باردة لا تنتج مثل هذه الفاكهة وكعك لين (كيك) وزبيب وحلوى من صنعهم وعصير توت، ثم جاؤا بالطعام الحار الرئيسي فيه بطاطس ومرق فيه شعيرية ولحم جيد دسم من لحم الغنم ثم الشاي.

انتقلنا بعد ذلك الى مكتب الجمعية في المسجد حيث حضرت محاسبة الجمعية وهي اخت اسمها (روزيلة بنت مبارك شاه) كما هي العادة في الجمعيات الإسلامية التتارية حيث تكون المحاسبات فيها من النساء ولكن الاخت (روزيلة) خالفت الكثيرات من المحاسبات في العادة بكونها شابة على حين كنا نرى المحاسبات في الجمعيات الإسلامية في البلدان التي مررنا بها في هذه السفرة وهي اقطار

البلطيق الثلاثة ليتوانيا ولاتفيا واستونيا ثم روسيا البيضاء كلهن من
المسناات؛ وقد خرجنا من المسجد في الساعة الثالثة بعد ان التقطت
للمسجد صورة خارجية بطلائه الاحمر، ومنارته التي جمعت بين أن
تكون صومعة مربعة ومنارة مستديرة .

الاجتماع في الادارة الدينية :

في الساعة السادسة عقدنا اجتماع عمل ختامياً في الادارة
الدينية لجمهورية تارستان حضره نواب رئيس الادارة الدينية الثلاثة
وفي مقدمتهم الاخ (مارس جلال الدين) الذي كان نعم صاحب
الملازم لنا طول اقامتنا وتنقلاتنا في هذه البلاد .

وكان الاخوة الموكلون بقطع التذاكر من قازان الى اسطنبول قد
اخبرونا انهم تسلموها قبل قليل من ذلك بعد مراجعة استمرت ثلاثة
أيام مع انهم كانوا قد سلموا ثمنها الى الشركة واخبرونا ان اقلع
الطائرة سيكون في الخامسة والنصف فجر غد، لذلك كان اجتماعنا
في مقر الادارة الدينية في الطابق الارضي من مسجد نور الله هو
الاجتماع الرسمي الاخير، فبحثنا مع الاخ المفتي ونوابه كيفية التعاون
ما بين رابطة العالم الإسلامي وهذه الادارة التي تمثل العمل الإسلامي
في هذه البلاد لأن الحكومة حكومة علمانية تسير على ما كانت تسير
عليه حكومة الاتحاد السوفيتي السابق من فصل الدين عن الدولة وان
الدولة لا تقدم شيئاً للدين الإسلامي الا أنها لا تسير على سياسة
الإلحاد ولا تقاوم الدين وتعطي من الاراضي الحكومية ما تحتاجه إليه
المساجد والمدارس الإسلامية بالجمان وذلك لكون الاراضي كلها مملوكة

للدولة طبقاً لما ورثوه من قوانين عن الحكومات السابقة.

ومن مظاهر تخلي الدولة عن الأمور الدينية في هذه البلاد ان
والدة زوجة رئيس الجمهورية توفيت قبل عهد قليل فحضر الصلاة
عليها في المسجد فاعتبر المسلمون ذلك فتحاً عظيماً ومزية كبيرة له
وبخاصة عندما قال للمفتي : اذا انا مت فادفنونني على الطريقة
الإسلامية، مع أنه لم يصل على الجنازة مثل الناس، حذراً من ان
يوصم بالانحياز الى جهة من الجهات الدينية لان غير المسلمين في
البلاد يقولون انه هو رئيسهم ايضاً وإن عددهم يؤلف نصف سكان
البلاد.

ومما يذكر ان زوجة رئيس الجمهورية وهي ابنة المتوفاة كانت قد
ادت فريضة الحج عام ١٤١٤ هـ على ضيافة رابطة العالم الإسلامي اذ
دعونا رئيس الجمهورية وعدداً من كبار المسؤولين فيها للحج على
ضيافة الرابطة مع زوجاتهم فحج اكثرهم بالفعل اما رئيس الجمهورية
فاعتذر بارتباطات سابقة وأرسل زوجته للحج وقد سر المسلمون
عندما صلت زوجة رئيس الجمهورية واعتبروا ذلك فالأحسن في
تظاهر المسلمين المسؤولين باداء الشعائر الدينية، لاننا لاحظنا في
البلدان الشيوعية التي زرتها وهي كل البلاد الشيوعية السابقة ان من
يكونون من المسؤولين مسلمين في الاصل او لنقل : انهم من أبناء
المسلمين لا يصلون علناً ولا يعلنون انهم يصومون وذلك ان سياسة
الشيوعية قائمة على الالحاد، ولأن التدين مناقض قانوناً للشيوعية.

هذا وقد اتفقنا مع الاخوة في الادارة الدينية على ما ينبغي عمله
في التعاون بيننا وبينهم، ودفعنا لهم مساعدات مالية للجهات التي

اعلنا لهم مساعداتها ولم ندفعها اما لعدم وجود المسؤولين عن المال فيها او لعدم وجود أوراق رسمية فسلمناها للادارة الدينية لتسلمها لأهلها، ثم سلمنا مساعدات مالية للادارة الدينية وكلها مساعدات رمزية عاجلة، تكفي لبدء التعاون ولتشغيل المشروعات التي وقفت لقصور النفقة لفترة معينة .

يوم السبت : ١٩ / ٤ / ١٤١٥ هـ - ٢٤ / ٩ / ١٩٩٤ م

مغادرة تارستان:

غادرنا فندقنا (فندق تارستان) في الخامسة والنصف حيث مر علينا اخونا المفتي الشيخ عبد الله صفا ونوابه فحملنا امتعتنا الى المطار واخبرنا الشيخ انه قد دفع للفندق ولاجرة السيارة بالعملة المحلية على اعتبار اننا ضيوف على الادارة الدينية فشكرت له ذلك، ودفعنا اليه ما دفعه وهو اقل من الاسعار التي يدفعها الاجنبي بكثير اذا استاجر الشيء بنفسه .

كان اهم الحركة في شوارع قازان - في هذه الساعة المبكرة اذ لا تزال انوار الشوارع مضاءة - وسائل النقل العام من قطار الكهرباء المسمى بالترمواى او الترام ومن حافلات الكهرباء (التروولي باص) حيث كثرت في الشوارع في هذه الساعة المبكرة التي لم نر فيها راكبين الا قليلا .

ومن الغريب ان الجو لا يزال ربيعاً دافئاً رغم كوننا في (كبد الشمال) كما تقول العامة عندنا فقازان تقع جهة الشمال من موسكو أى أنها اقرب قليلا الى القطب الشمالي من مدينة موسكو، وكان الجو صاحياً خالياً من الغيوم .

عندما وصلنا المطار أخبرنا رجل مسؤول فيه انه قد بقيت ساعتان على مغادرة الطائرة، ولم يكن على مكاتب الترحيل اي موظف؛ فطلبنا من مرافقينا ان يعودوا الى بيوتهم لان الانتظار سيطول الا أنهم انتظروا حتى جاءت الموظفات وجميع العاملين في مكاتب الترحيل هذا الصباح من النساء وهن على غاية من الخشونة وعدم معاملة الركاب بالكلام او بحسن التصرفات حتى إنني لم المح ابتسامة واحدة على أية شفة من الشفاه سواء من الرجال أو النساء أو من الركاب أو الموظفين حتى ولا من بعضهم للبعض، وهذا امر عرفناه من العاملين في المرافق العامة في الاتحاد السوفيتي السابق ولا يزال هو السائد في روسيا الاتحادية التي خلفت الاتحاد السوفيتي والتي منها هذه الجمهورية .

ومن غير المألوف ان الركاب قد حضروا قبلنا وبعضهم معنا وكلهم حضر قبل الموظفين وجلسوا ينتظرون ومن لم يجد منهم كرسيًا يجلس عليه ظل واقفًا ولم ار احداً منهم تافف من ذلك او ابدى اعتراضه عليه، وقد بدأت اجراءات الترحيل بتفتيش الحقائق تفتيشا الزاميا فاخبرناهم ان جوازاتنا (دبلوماسية) وان ذلك يعفينا من تفتيش الجمارك، وبعد مداولات ومراجعات لكبار الموظفين اشترك فيها مودعونا سمحوا لنا بان تدخل امتعتنا الى ميزان الترحيل دون تفتيش .

وكان الشئ الذي ضايقني ان طائفة منهم اخذوا مع الاخوة المودعين يرون كيفية تعبئة بطاقات الخروج ويتجادلون في ذلك وكاننا لم نركب من مطار قبل هذه المرة .

وعند ضابط الجوازات تاخر جوازي لانه اخذ يريه لعدد من الموظفين والظاهر ان سبب ذلك هو وجود صورتي فيه عليّ الملابس العربية على حين انني الان ارتدي الملابس العالمية المسماة بالافرنجية .

ومن المشكل ان ضابط الجوازات لايعرف الانكليزية وحتى زملاؤه الموظفون كذلك وكنا في راحة من وجود اخواننا الذين كانوا يترجمون لنا الى اللغة الروسية او التتارية .

ولكننا ودعناهم عندما وصلنا الجوازات ورأينا ان اجراءات السفر اكتملت حيث دخلنا الى قاعة الترحيل الا ان احد ضباط الجوازات جاء الينا وطلب جوازاتنا وظل يرطن بما لا نفهه ولم نجد من الركاب ولا من الموظفين من يحسن الانكليزية فيترجم لنا ما يريد فسكتنا حتى ذهب بالجوازين ثم اعادهما ولا ندري السبب .

الى اسطنبول :

في الثامنة وعشر دقائق خرجنا الى الطائرة سيراً على الاقدام لان الطائرة قريبة من القاعة وأعلنوا من مكبر الطائرة بثلاث لغات اولها التتارية ثم الروسية فالانكليزية ان الطيران الى اسطنبول سيستغرق ثلاث ساعات وثلاثا من دون توقف .

وعندما القيت نظرة على ركاب الطائرة وكانوا قد وضعونا على مقاعد في مقدمة الطائرة من باب التكرم ولم يضعوا في صف الكراسي التي امامنا احداً لذلك وسع علينا مع ان جميع مقاعد الطائرة مليئة الا خمسة مقاعد ، وجدت ان ركابها تقريبا كلهم من النساء وهي اغرب رحلة ركابٍ لانه حدث ان رايت طائرات فيها

نساء كثيرات الا ان اولئك كانوا في الغالب من المتجانسين في المظهر او السن او اللباس اما هؤلاء النسوة الراكبات فإنهن من اعمار مختلفة وفي مظاهر مختلفة ففيهن الروسيات وفيهن المتروسات وهن اللاتي اتخذن بحكم النشأة والعادة طبائع الروسيات ومنهن التتاريات .

وفي التاسعة الا الربع كانت الطائرة تقلع من المطار واستعدت في ذهني ما ذكرته الشركة من ان ثمن التذكرة الى اسطنبول هو ٩٨٧ دولاراً ثم اخذتنا شركة اخرى بـ ٢٥٠ دولاراً وكان منظر نهر ايتل (القولقا) من الطائرة جليلاً رائعاً بسعته وبوجود بعض الجزر الصغيرة فيه الا انه لا يقارن في عرضه بانهار عديدة كبيرة رأيتها في انحاء اخرى من العالم طرت فيها أو نزلت بجوار النهر ومن ذلك نهر (لبلاتا) العظيم الذي يفصل بين عاصمة أوروغواي منتفديو وعاصمة الأرجنتين (بوينس آيرس) وهو اعرض نهر في العالم اذ يبلغ عرضه في اضيق نقطة منه ٤٠ كيلو متراً واما في اوسع نقطة منه فان عرضه ٧٥ كيلو متراً .

وذكرت ايضاً نهر (سكيبو) احد انهار جمهورية غيانا التي عاصمتها (جورج تاون) في امريكا الجنوبية، حيث توجد في ذلك النهر ٣٦٠ جزيرة بعدد ايام السنة فيها جزر اكبر من دولة (بربادوس) غير البعيدة منهم والتي تقع في جزيرة من البحر الكاريبي .

وامعنت الطائرة في طيرانها فوق اراضي تترارستان التي شهدت امجاداً عظيمة من امجاد المسلمين ضيعها اهلها باختلافهم واستعانة بعضهم على بعض بالكفار الاعداء كما فعل حكام الطوائف في

الاندلس وقد بدت بعض الحقول بيضاء من الطائرة لانها كانت حقول قمح حصيد، وكثرت مجامع المياه التي هي اشبه بالبحيرات الصغيرة . هذا والطائرة روسية الصنع بطبيعة الحال وهي من طراز (توبوليف ١٣٤) النفاث وليست فيها درجة اولى، بل كلها درجة سياحية .

وبعد ان امضت الطائرة خمسين دقيقة من الطيران وكانت قدارتفعت عالية في الجو اعلنوا باللغات الثلاث انهم سوف يقدمون بعد دقائق طعام الفطور، ثم جاؤا بالفطور وقد جعلوا الصحن الرئيسي فيه دجاجا مخلوطاً بلحم الخنزير ولو لم يكن الدجاج مخلوطاً بالخنزير لما اكلناه لان ذبحهم للدجاج غير شرعي فأكلنا من خبز وزبد وجبن أصفر منفصل عن الأول، ومعه بسكويت وحلوى مغلفة وعصير تفاح عليه حروف عربية تبين انه مستورد من ايران ثم الشاى .

وفي الساعة الثانية عشرة والربع بتوقيت قازان وهي الثالثة والربع بتوقيت اسطنبول كانت الطائرة تهبط في مطار اسطنبول الذي أعلنوا فيه أن درجة الحرارة (٢٠) درجة مئوية وهي نفس الدرجة تقريباً في قازان وموسكو حينما كنا فيهما؛ ومن اسطنبول عدنا إلى بلادنا بخير وسلامة ولله الحمد .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
جمهورية تتارستان	١١
التتار	١٥
مدينة سراى	١٨
ذكر وقوع الاختلاف بين السلطان بركة خان وابن عمه هولاكو	٢١
ذكر كيفية هذه المحاربة	٢٨
شاهد من التاريخ	٣٢
حادثة شفقال خان	٣٣
اليوميات التتارية	٣٩
من موسكو إلى قازان	٤١
نهر موسكو	٤٢
إفلاس الشركة من افلاس النظام	٤٢
الريف المسكوفي	٤٤
مطار الجنوب	٤٥
إلى قازان	٤٧
في مطار قازان	٥٠
في مدينة قازان	٥١

الصفحة	الموضوع
٥٣	صباح قازان
٥٤	على مائدة المفتي
٥٦	حي قراواى
٥٧	مسجد نور الإسلام
٥٨	الأخ فخر الإسلام
٦٢	في المدرسة الإسلامية
٦٤	إلى مسجد آخر
٦٤	مسجد رمضان
٦٩	مسجد نور الله
٧١	جولة في قازان
٧٣	في الادارة الدينية
٧٤	المسجد الازرق
٧٧	الشمس والقمر في المسجد
٨١	حي باومن
٨١	جامع اسكي طاش
٨٤	المجرى المائي الفاصل
٨٩	بلاد البلغار
١١٥	المشاهدات البلغارية
١١٧	من قازان إلى مدينة بلغار
١١٩	ريف تارستان
١٢١	موسم جنى البطاطس

الموضوع	الصفحة
قرية سوبوري	١٢٢
نهر ميشا	١٢٢
قرية روسية	١٢٣
قرية ايمان كسكا	١٢٤
قرية قل يانجي	١٢٥
النهر العظيم	١٢٦
موقعنا من النهر	١٢٨
مدن كثيرة تحتاج إلى جسر	١٢٩
وجاءت العبارة	١٣٠
غداء العبارة	١٣٣
ناحية اليسكي	١٣٤
القمح العجيب	١٣٥
بلدة بازارني ماساجي	١٣٦
مغادرة بازارني ماساجي	١٣٨
سكان البلدة	١٣٨
قرية جغاصوما	١٤١
قرية نيكولسكي	١٤١
حدود بلغار	١٤٣
لوحة تذكارية	١٤٤
العواصف والعواطف	١٤٥
في مدينة بلغار التاريخية	١٤٦

الموضوع	الصفحة
تاريخ مدينة بلغار	١٤٧
الكنيسة من احجار المسجد	١٤٧
المسجد التاريخي	١٥٠
تجب اعادة بناء المسجد	١٥١
شواهد تاريخية	١٥٢
الأثر الأول	١٥٣
كنيسة الضرار	١٥٥
مشهد شاهده ابن فضلان	١٥٩
الأثر الثاني	١٦١
الأذان لأيتام المسلمين	١٦٣
بلدة بلغار الحديثة	١٦٤
جامع قرية بلغار	١٦٦
منظر مؤثر	١٦٨
مغادرة بلغار	١٧١
على ارض المسجد	١٧٣
مائدة بلغارية	١٧٤
مغادرة منطقة البلغار	١٧٧
عبارة الليل	١٧٨
رسالة ابن فضلان	١٨١
رسالة ابن فضلان إلى بلاد البلغار	١٨٣
ابن بطوطة في بلاد البلغار	١٨٩

الموضوع	الصفحة
العودة إلى قازان	١٩٣
إلى قلب قازان الفاخر	١٩٣
حديث التلفرة	١٩٣
مقابلة مستشار رئيس الجمهورية	١٩٥
التتار ينقصون	١٩٩
الصومعة التذكارية	٢٠٢
كرملين قازان	٢٠٤
قل يحييها الذي انشأها أول مرة	٢٠٥
صور الشجعان المسلمين	٢٠٦
ميدان الاستقلال	٢٠٧
شاطيء قازان	٢٠٨
ميناء قازان	٢٠٩
مسجد الف عام	٢١٠
جمعة قازان	٢١٣
غداء المدرسة	٢١٧
الاجتماع في الادارة الدينية	٢١٨
مغادرة تتارستان	٢٢٠
إلى اسطنبول	٢٢٢

كتب في الرحلات للمؤلف

أولاً - كتب مطبوعة :

- ١ - « في إفريقية الخضراء » طبع أكثر من مرة وترجم إلى عدة لغات .
- ٢ - « مدغشقر : بلاد المسلمين الضائعين » نشره النادي الأدبي في الرياض .
- ٣ - « جولة في جزائر البحر الزنجي » طبع المطابع الأهلية للأوفست بالرياض ١٤٠٢هـ .
- ٤ - « في نيبال ، بلاد الجبال » طبع مطابع نجد في الرياض .
- ٥ - « رحلة إلي جزر مالديف » طبع مرات ونشرته دار العلوم في الرياض .
- ٦ - « رحلة إلى سيلان » نشرته الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة .
- ٧ - « صلة الحديث عن إفريقية » نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٤هـ .
- ٨ - « مشاهدات في بلاد العنصرين » نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة .
- ٩ - « شهر في غرب إفريقية » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .
- ١٠ - « زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .
- ١١ - « رحلات في أمريكا الوسطى » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .
- ١٢ - « إطلالة على نهاية العالم الجنوبي » نشره النادي الأدبي في مكة المكرمة .
- ١٣ - « إلى أقصى الجنوب الأمريكي » طبع في مطابع الفرزدق بالرياض .
- ١٤ - « ذكريات في إفريقيا » محاضرة طبعها رابطة العالم الإسلامي .
- ١٥ - « جولة في جزائر البحر الكاريبي » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .
- ١٦ - « على قمم جبال الأنديز » طبع في مطابع الفرزدق التجارية .
- ١٧ - « جولة في جزائر جنوب المحيط الهادي » طبع بمطابع الفرزدق التجارية .
- ١٨ - « على ضفاف الأمازون » نشره النادي الأدبي في أبها .
- ١٩ - « في أعماق الصين الشعبية » نشرته مجلة المنهل التي تصدر في جدة .
- ٢٠ - « نظرة في وسط إفريقية » طبع في مطابع الفرزدق التجارية .
- ٢١ - « في بلاد المسلمين المنسيين : بخاري وما وراء النهر » طبع بمطابع الفرزدق التجارية .
- ٢٢ - « في غرب البرازيل » .
- ٢٣ - « بقية الحديث عن إفريقية » .
- ٢٤ - « بورما الخبر العيان » طبع في بيروت .
- ٢٥ - « داخل أسوار الصين » (مجلدان) .
- ٢٦ - « مع المسلمين البولنديين » .

- ٢٧- « بين الأرغواي والبارغواي » .
- ٢٨ « سياحة في كشمير » .
- ٢٩- « جمهورية أذربيجان » .
- ٣٠- « بلاد الداغستان » .
- ٣١- « ذكريات في يوغسلافيا » مطابع
الفرزدق التجارية بالرياض .
- ٣٢- « مقال عن بلاد البنغال » مطابع
الفرزدق التجارية بالرياض .
- ٣٣- « أيام في النيجر » طبع في بيروت .
- ٣٤- « الرحلة الروسية » مطابع الفرزدق
التجارية بالرياض .
- ٣٥- « نظرة في أوروبا الشرقية وحالة
المسلمين بعد سقوط الشيوعية » . طبع
ببيروت .
- ٣٦- « كنت في بلغاريا » مطابع
الفرزدق التجارية بالرياض .
- ٣٧- « كنت في ألبانيا » مطابع الفرزدق
التجارية بالرياض .
- ٣٨- « قصة سفر في نيجيريا »
(مجلدان) .
- ٣٩- « على أرض القهوة البرازيلية »
مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .
- ٤٠- « بين غينيا بيساو، وغينيا
كوناكري » مطابع الفرزدق التجارية
بالرياض .
- ٤١- « من أنقشولا إلى جزر الرأس
الأخضر » مطابع الفرزدق التجارية
بالرياض .
- ٤٢- « في جنوب الصين » نشرته رابطة
العالم الإسلامي في مكة المكرمة .
- ٤٣- « يوميات آسيا الوسطى » مطابع
- الفرزدق التجارية بالرياض
- ٤٤- « حديث قازاقستان » نشرته دار
القبلة في جدة .
- ٤٥- « بلاد القرم » نشرته دار القبلة في
جدة .
- ثانيا : كتب مخطوطة :**
- ٤٦- « في ربوع السودان الغربي » .
- ٤٧- « وراء العمل الإسلامي في الولايات
المتحدة الأمريكية » .
- ٤٨ « رحلة في أمريكا الجنوبية » .
- ٤٩- « رحلات في شرق الهند » .
- ٥٠- « رحلات في شمال الهند
الشرقي » .
- ٥١- « وراء العمل الإسلامي القارة
الإستراتيجية » .
- ٥٢- « وراء المشرقين : رحلة حول
العالم » .
- ٥٣- « في بلاد الهند والسند :
باكستان » .
- ٥٤- « في أندونيسيا : أكبر بلاد
المسلمين » .
- ٥٥- « مشاهدات في تايلند » .
- ٥٦- « رحلات في بلاد الملايو » .
- ٥٧- « نظرة إلى الفلبين بين زيارتين
رسمية وخاصة » .
- ٥٨- « الإشراف على أطراف من المغرب
العربي » .
- ٥٩- « رحلات في القارة الأوروبية » .
- ٦٠- « الحل والرحيل في بلاد
البرازيل » .
- ٦١- « في مهد الترك » .

- ٦٢- « رحلات في البيت » .
- ٦٣- « العودة إلى غرب إفريقيا » .
- ٦٤- « زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي » .
- ٦٥- « في شرق البرازيل » .
- ٦٦- « في الشمال الشرقي من البرازيل » .
- ٦٧- « رحلات فنزويلية » .
- ٦٨- « بقية البقية من حديث إفريقيا » .
- ٦٩- « خلف الستار العقدي » .
- ٧٠- « رحلات في شمال الهند » .
- ٧١- « رحلات في وسط الهند » .
- ٧٢- « رحلات في وسط الهند » .
- ٧٣- « رحلات في غرب الهند » .
- ٧٤- « تأه في نهايتي » .
- ٧٥- « نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض » .
- ٧٦- « ذكريات المؤتمرات » .
- ٧٧- « جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط » .
- ٧٨- « مؤتمرات إسلامية حضرتها » .
- ٧٩- « إطلالة على موريتانيا » .
- ٨٠- « زيارة رسمية لتايوان » .
- ٨١- « في جنوب البرازيل » .
- ٨٢- « العودة إلى الصين » .
- ٨٣- « في وسط الصين » .
- ٨٤- « إلى أقصى الجنوب الإفريقي » .
- ٨٥- « في أدغال أندونيسيا » .
- ٨٦- « أيام في فيتنام » .
- ٨٧- « مشاهدات في لاوس وكمبوديا » .
- ٨٨- « العودة إلى ما وراء النهر » .
- ٨٩- « في شمال شرق آسيا » .
- ٩٠- « فوق سقف الصين » .
- ٩١- « على سقف العالم » .
- ٩٢- « إطلالة على استراليا » .
- ٩٣- « في جنوب تايلند (فطاني) » .
- ٩٤- « حديث قيرغزستان » .
- ٩٥- « إلى جنوب الشمال : بلاد السويد » .
- ٩٦- « إلى شمال الشمال : النرويج وفنلدا » .
- ٩٧- « الاستفادة من السفر إلى تشاد » .
- ٩٨- « جولة في جزائر المحيط الأطلسي » .
- ٩٩- « رحلتنا المسافات الطويلة » .
- ١١٠- « حول العالم في خط متعرج » .
- ١٠١- « الاعتبار . في السفر إلى ماليار » .
- ١٠٢- « راجستان : بلاد الملوك » .
- ١٠٣- « بالي : جزيرة الأحلام » .
- ١٠٤- « بلاد الشركس : الإديغي » .
- ١٠٥- « بين بلاد القرتشاي، وبلاد القبوداي » .
- ١٠٦- « العودة إلى داغستان » .
- ١٠٧- « المكسيك وقواتمالا » .
- ١٠٨- « بيليز والسلفادور » .
- ١٠٩- « هندوراس ونيكارقوا » .
- ١١٠- « أقطار البلطيق » .
- ١١١- « من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء » .
- ١١٢- « بلاد التتار والبلغار » وهو هذا الكتاب

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة د. حسن باجوادة
- ٢ - الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه أ. أحمد محمد جمال
- ٣ - الرسول في كتابات المستشرقين أ. نذير حمدان
- ٤ - الإسلام الفاتح د. حسين مؤنس
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري د. حسان محمد حسان
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن د. عبد الصبور مرزوق
- ٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية د. علي محمد جريشة
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية د. أحمد السيد دراج
- ٩ - التوعية الشاملة في الحج أ. عبد الله بوقس
- ١٠ - الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره د. عباس حسني محمد
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل أ. محمد طاهر حكيم
- ١٣ - مولود على الفطرة د. حسين أحمد حسون
- ١٤ - دور المسجد في الإسلام د. علي محمد مختار
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم د. محمد سالم محيسن
- ١٦ - البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام أ. محمد محمود فرغلي
- ١٧ - المرأة وحقوقها في الإسلام د. محمد الصادق عفيفي
- ١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] أ. أحمد محمد جمال
- ١٩ - القراءات: أحكامها ومصدرها د. شعبان محمد اسماعيل
- ٢٠ - المعاملات في الإسلام د. عبد الستار سعيد
- ٢١ - الزكاة: فلسفتها وأحكامها د. علي محمد العماري
- ٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم د. أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا أ. سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر د. عدنان محمد وزان
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة د. معالي عبد الحميد حمودة
- ٢٦ - تربية النشء في ظل الإسلام د. محمود محمد عمارة
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي د. محمد شوقي الفنجري
- ٢٨ - وحي الله - حقائق وخصائص في الكتاب والسنة د. حسن ضياء الدين عتر
- ٢٩ - حقوق الإنسان وواجباته في القرآن أ. حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية أ. محمد عمر القصار
- ٣١ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] أ. أحمد محمد جمال

٣٢-	الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج	د. السيد رزق الطويل
٣٣-	الاعلام في المجتمع الإسلامي	أ. حامد عبد الواحد
٣٤-	الالتزام الديني منهج وسط	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٣٥-	التربية النفسية في المنهج الإسلامي	د. حسن الشرقاوي
٣٦-	الإسلام والعلاقات الدولية	د. محمد الصادق عفيفي
٣٧-	العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨-	معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها	د. محمود محمد بابلي
٣٩-	النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	د. علي محمد نصر
٤٠-	من التراث الاقتصادي [١]	د. رفعت العوضي
٤١-	أسس المفاهيم الاقتصادية في الإسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢-	الأقليات المسلمة في أفريقيا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٣-	الأقليات المسلمة في أوروبا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٤-	الأقليات المسلمة في الأمريكتين والبحر الكاريبي	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٥-	الطريق إلى النصر	أ. محمد عبد الله فودة
٤٦-	الإسلام دعوة الحق	د. السيد رزق الطويل
٤٧-	الإسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨-	دحض مفتريات ضد إعجاز القرآن ولغته	د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
٤٩-	المجاهدون في فطاني	أ. ضياء شهاب
٥٠-	معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١-	مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية	د. سيد عبد الحميد مرسي
٥٢-	ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي والماركسي	أ. أنور الجندي
٥٣-	الشورى سلوك والتزام	د. محمود محمد بابلي
٥٤-	الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أ. أسماء عمر فدعق
٥٥-	مدخل إلى تحصين الأمة	د. أحمد محمد الخراط
٥٦-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	أ. أحمد محمد جمال
٥٧-	كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خليف
٥٨-	الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩-	نظرات في قصص القرآن [١]	أ. محمد قطب عبد العال
٦٠-	اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة	د. السيد رزق الطويل
٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	أ. محمد شهاب الدين الندوي
٦٢-	المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان	د. محمد الصادق عفيفي
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	د. رفعت العوضي
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	أ. أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان للإنسانية عقيدة وشرعية	أ. أحمد عبد الغفور عطار

٦٧-	العدل والتسامح الإسلامي	أ. السيد أحمد المخزنجي
٦٨-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	أ. أحمد محمد جمال
٦٩-	الحريات والحقوق في الإسلام	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠-	الإنسان الروح والعقل والنفس	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١-	موقف الجمهوريين من السنة النبوية	د. شوقي بشير
٧٢-	الإسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣-	تأملات قرآنية	د. عصمة الدين كركر
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	أ. أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والإسلام	أ. سعد صادق محمد
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	د. علي محمد نصر
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	أ. محمد قطب عبد العال
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	أ. أحمد سامي عبد الله
٧٩-	كيف ندرس القرآن لأبنائنا	د. سراج محمد وزان
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١-	كيف بدأ الخلق	أ. عيسى العراباوي
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة	أ. أحمد محمد جمال
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	أ. صالح محمد جمال
٨٤-	المبادئ الاجتماعية في الإسلام	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام	د. عاصم حمدان علي
٨٦-	الحقوق المتقابلة بين الزوجين في الشريعة الإسلامية	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧-	من حديث القرآن عن الإنسان	د. علي محمد حسن العماري
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	د. محمد الحسين أبو سم
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الإسلام	أ. جمعان عايض الزهراني
٩٠-	القضاء في الإسلام	أ. سليمان محمد الحميضي
٩١-	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ محمد سويد
٩٢-	المنظور الإسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم صابر
٩٣-	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	أ. رحمة الله رحمتي
٩٤-	الفطرة وقيمة العمل في الإسلام	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥-	أوصيكم بالشباب خيراً	أ. أحمد محمد جمال
٩٦-	المسلمون في دوائر النسيان	أ. أسماء أبو بكر محمد
٩٧-	من خصائص الإعلام الإسلامي	أ. محمد خير رمضان يوسف
٩٨-	الحرية الاقتصادية في الإسلام	د. محمود محمد بابلي
٩٩-	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	أ. محمد قطب عبد العال
١٠٠-	مواقف من سيرة الرسول ﷺ	أ. الأمين الحاج محمد أحمد
١٠١-	اللسان العربي بين الانتشار والانحسار	أ. عبد الرحمن خليف

- ١٠٢- أخطار حول الإسلام
- ١٠٣- صلاة الجماعة دراسة فقهية مقارنة
- ١٠٤- المستشرقون والقرآن
- ١٠٥- مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية
- ١٠٦- الاقتصاد الإسلامي هو البديل الصالح
- ١٠٧- توجيه وإرشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ
- ١٠٨- في ظلال سيرة الرسول ﷺ
- ١٠٩- المخدرات مضارها على الدين والدنيا
- ١١٠- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١١١- زينة المرأة بين الإباحة والتحریم
- ١١٢- التربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا
- ١١٣- النموذج العصري للجهد الإسلامي
- ١١٤- المسلمون حديث ذو شجون
- ١١٥- المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات
- ١١٦- آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم
- ١١٧- اللباس في الإسلام
- ١١٨- الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم
- ١١٩- أسس النظام المالي والاقتصادي في القرآن
- ١٢٠- المستشرقون والقرآن [٢]
- ١٢١- الإسلام هو الحل
- ١٢٢- نظرات في قصص القرآن [٣]
- ١٢٣- من حصاد الفكر الإسلامي
- ١٢٤- خواطر إسلامية
- ١٢٥- الإسلام ومكافحة المخدرات
- ١٢٦- دروس تربوية نبوية
- ١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وأفاق المستقبل
- ١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي
- ١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [١]
- ١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [٢]
- ١٣١- المسجد الباطني قضية لا تنسى
- ١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة
- ١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل الاتصال الحديثة
- ١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام
- ١٣٥- منهاج الداعية
- ١٣٦- في جنوب الصين
- السيد هاشم عقيل عزوز
- د. عبد الله محمد سعيد
- د. اسماعيل سالم عبد العال
- أ. أنور الجندي
- د. شوقي أحمد دنيا
- د. عبد المجيد أحمد منصور
- أ. السيد أحمد المخزنجي
- د. ياسين الخطيب
- أ. محمود محمد كمال عبد المطلب
- د. حياة محمد علي خفاجي
- د. سراج محمد وزان
- أ. عبد رب الرسول سياف
- أ. أحمد محمد جمال
- أ. نور الإسلام بن جعفر علي آل فايز
- د. جابر المتولي قميحة
- أ. أحمد بن محمد المهدي
- أ. ناصر عبد الله العمار
- أ. محمد أبو الليث الخير آبادي
- د. اسماعيل سالم عبد العال
- أ. محمد سويد
- أ. محمد قطب عبد العال
- د. محمد بهي الدين سالم
- أ. ساري محمد الزهراني
- أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- أ. صالح أبو عراد الشهري
- د. عبد الحليم عويس
- د. مصطفى عبد الواحد
- أ. أحمد محمد جمال
- أ. أحمد محمد جمال
- أ. عبد الباسط عز الدين
- د. سراج محمد وزان
- أ. ابراهيم اسماعيل
- د. حسن محمد باجودة
- أ. أحمد أبو زيد
- الشيخ محمد بن ناصر العبودي

- ١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة د. شوقي أحمد دنيا
- ١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل د. محمود محمد بابلي
- ١٣٩- سقوط الأيديولوجيات وكيف يملأ الإسلام الفراغ أ. أنور الجندي
- ١٤٠- الطفل في الإسلام أ. محمود الشرقاوي
- ١٤١- التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها أ. فتحي بن عبد الفضيل بن علي
- ١٤٢- لمحات من الطب الإسلامي د. حياة محمد علي خفاجي
- ١٤٣- الإسلام والمسلمون في ألبانيا د. السيد محمد يونس
- ١٤٤- أحمد محمد جمال (رحمه الله) مجموعة من الأساتذة الكتاب أ. أحمد أبو زيد
- ١٤٥- الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية د. حامد أحمد الرفاعي
- ١٤٦- الإسلام والنظام العالمي الجديد أ. محمد قطب عبد العال
- ١٤٧- من جماليات التصوير في القرآن الكريم أ. زيد بن محمد الرماني
- ١٤٨- الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي أ. جمعان بن عايض الزهراني
- ١٤٩- الماسونية والمرأة أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ١٥٠- جوانب من عظمة الإسلام د. حسن محمد باجودة
- ١٥١- الأسرة المسلمة في ضوء القرآن د. أحمد موسى الشيشاني
- ١٥٢- حرب القوقاز الأولى المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة النبوية
- ١٥٣- المقاومة الغزو الروسي أ. زيد بن محمد الرماني
- ١٥٤- المسلمون في جمهورية الشاشان وجهادهم في القدس في ضمير العالم الإسلامي
- ١٥٥- الطريق إلى الوحدة الإسلامية أ. السيد محمد يونس
- ١٥٦- المركز القانوني الدولي لمدينة القدس اعداد مجموعة من الباحثين
- ١٥٧- الحوار النافع بين أصحاب الشرائع د. جعفر عبد السلام
- ١٥٨- الإنسان والبيئة د. عبد الرحمن الحوراني
- ١٥٩- الإسلام وأثره في الثقافة العالمية أ. علي راضي أبو زريق
- ١٦٠- الموت .. ماذا أعدنا له ؟ أ. محمود الشرقاوي
- ١٦١- زواج المسلمة بغير مسلم وحكمة تحريمه أ. عبد الله أحمد خشيم
- ١٦٢- عطاء الإسلام الحضاري د. محمود محمد بابلي
- ١٦٣- إحياء الأراضي الموات في الإسلام أ. أنور الجندي
- ١٦٤- أهمية يوم الجمعة وخطب مختارة أ. عاطف أبو زيد سليمان علي
- ١٦٥- البوسنة والهرسك .. حقائق وأرقام أ. محمد بن سليمان الأهل
- ١٦٦- المسلمون في لاوس وكمبوديا أ. خالد الأصور
- ١٦٧- المشكلات التربوية والدينية عند المسلمين في المجتمع الهولندي أ. محمد بن ناصر العبودي
- ١٦٨- أ. إبراهيم الدرعاوي

- ١٦٩- مفاهيم يجب أن تُصحح أ. بغداد سيدي محمد أمين
- ١٧٠- السنة النبوية المطهرة أ. الشيخ محمد علي الصابوني
- ١٧١- نحو مشروع حضاري للإسلام د. أحمد القديدي
- ١٧٢- الإعلام الإسلامي رسالة وهدف أ. سمير بن جميل راضي
- ١٧٣- الشريعة والتشريع أ. فاطمة السيد علي سبّاك
- ١٧٤- ترجمات معاني القرآن الكريم د. عبد الله عباس الندوي
- ١٧٥- خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام أ. زيد بن محمد الرماني
- ١٧٦- الرحمة المهداة محمد رسول الله ﷺ د. نزار بن عبد الكريم بن سلطان الحمداني
- ١٧٧- المعاهدات الدولية في فقه الإمام محمد الشيباني أ. عثمان بن جمعة ضميرية
- ١٧٨- التكامل وتقسيم العمل الإقليمي بين الأقطار الإسلامية د. محمد إبراهيم منصور
- ١٧٩- شقائق الرجال وحل مسألة المرأة في المنهج الإسلامي أ. حسني شيخ عثمان
- ١٨٠- في غرب الهند أ. محمد بن ناصر العبودي
- ١٨١- في بلاغة الدعاء النبوي د. عبد الرازق محمد محمود فضل
- ١٨٢- الإعلام الغربي والمؤامرة على الإسلام في أفريقيا د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
- ١٨٣- منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام د. حلمي عبد المنعم صابر
- ١٨٤- معالم من الفكر التربوي عند علماء المسلمين د. أحمد محمد الخراط
- ١٨٥- أهل الحل والعقد صفاتهم ووظائفهم د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي
- ١٨٦- التربية في عهد الرسول ﷺ نشأتها وتطورها حامد سالم عايض الحربي
- ١٨٧- الزكاة وتنمية المجتمع السيد أحمد المخزنجي